البابا شنوده الثالث

معالم الطريق الروحي



البابا شنوده الثالث

معالم الطريق الروحى

Characteristics of the Spiritual Way

by H. H. Pope Shenouda 111

3rd Print

Aug. 1994

Cairo

الطبعة الثالثة

أغسطس ١٩٩٤

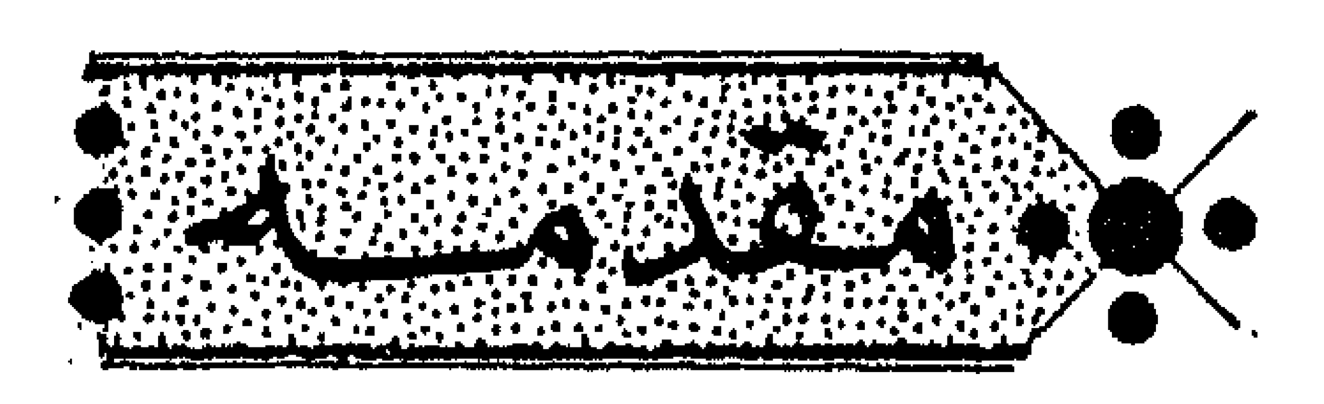
القاهرة

الكتاب : معالم الطريق الروحى .
المؤلف : قداسة البابا شنوده الثالث .
الطبعة : **الثالثة - أغسطس ١٩٩٤**
المطبعة : الأنبا رويس (الأوفست) العباسية - القاهرة .
الناشر : الكلية الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٨١٢٠ / ١٩٨٧ .



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)



من بين مقالات عديدة جداً، ألقيتها فى الكاتدرائية المرقسية الكبرى بدير الأنبا رويس، خلال الستينات والسبعينات، اخترت لك هذه المجموعة لتشرح لك الطريق الروحى، وعلاماته ومعالمه، وكيف تسير فيه ...

أولاً: ما هو الهدف الروحى السليم ؟ وكيف تثبت فيه .

ثم ينبغى أن تبدأ ، وكما تبدأ تستمر .

وبعدها نناقش نقطة البدء، ونعرض كيف أن **مخافة الله** هى البدء حسب تعليم الكتاب **(أم ٩ : ١٠)** . ومخافة الله تدعو إلى السير فى الطريق السليم، ولو **بالتغصب** إلى أن يصل الإنسان إلى محبة الروحيات ومحبة الله ...

ثم نعرض بعد ذلك للعمل: **العمل الإيجابى، والعمل الداخلى.**

وبعد هذا نورد ثلاث مقالات عن الحكمة والافراز، حيث أن الحكمة يجب أن تتخلل كل عمل روحى وتمتزج به .

ثم نتحدث عن عناصر عامة لا يمكن أن يستقيم بدونها العمل الروحى. وهى **صفات الجدية، والالتزام، والتدقيق، والأمانة** فى العلاقة مع الله، وتبدأ بالأمانة فى **القليل،** حتى يقيمنا الله على الكثير.

وكل هذا يقود إلى **حياة الانتصار.** ولا يمكن أن ينتصر الإنسان فى حياته الروحية، إلا إذا انفصل عن كل المجالات الخاطئة. وهنا نكتب لك مقالاً عن (الفصل بين النور والظلمة).

وإذا ما وصل الإنسان إلى قمة العمل الروحى، إنما يصل بالتالى إلى **حياة التسليم**، وفيها يعيش الإنسان **فى حياة الشكر الدائم**. فكان لابد أن نتحدث عن هذين الموضوعين باعتبارهما من معالم الطريق الروحى.

على أنه من صفات الطريق الروحى فى كل ما ذكرناه خاصية ذكرها رب المجد فى العظة على الجبل، وهى الدخول **من الباب الضيق** (متى ٧ : ١٣).

هنا ونسأل ما هى نهاية الطريق الروحى ؟

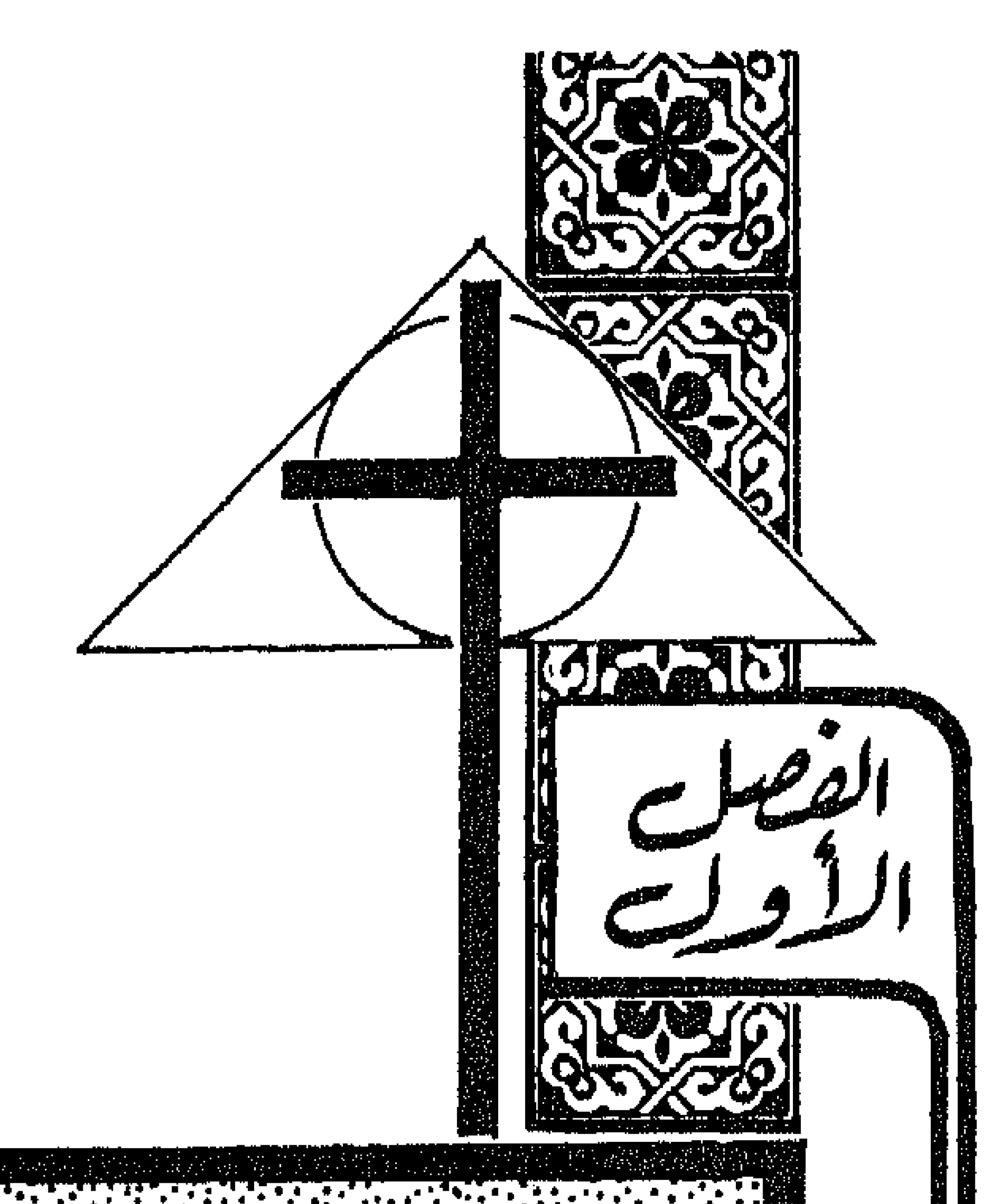
الطريق الروحى هو رحلة نحو الكمال، الوسيلة فيها هى النمو الروحى الدائم.

وعن هذا الموضوع حدثناك أيضاً فى آخر هذا الكتاب، واضفنا إلى ذلك موضوعاً آخر عن عوائق النمو.

اترانا قد شرحنا لك كل ما يتعلق بمعالم الطريق الروحى؟ كلا بلا شك. فالحديث عنه هو الحديث عن الحياة الروحية كلها.

ولا تزال هناك موضوعات أخرى، أحب أن أضيفها فى جزء آخر إن احبت نعمة الرب وعشنا.

شنوده الثالث



الهدف الروحى وثباته

الهدف الروحى

أسباب النجاح .

الهدف الوحيد هو الله .

أهداف زائفة .

ثبات الهدف

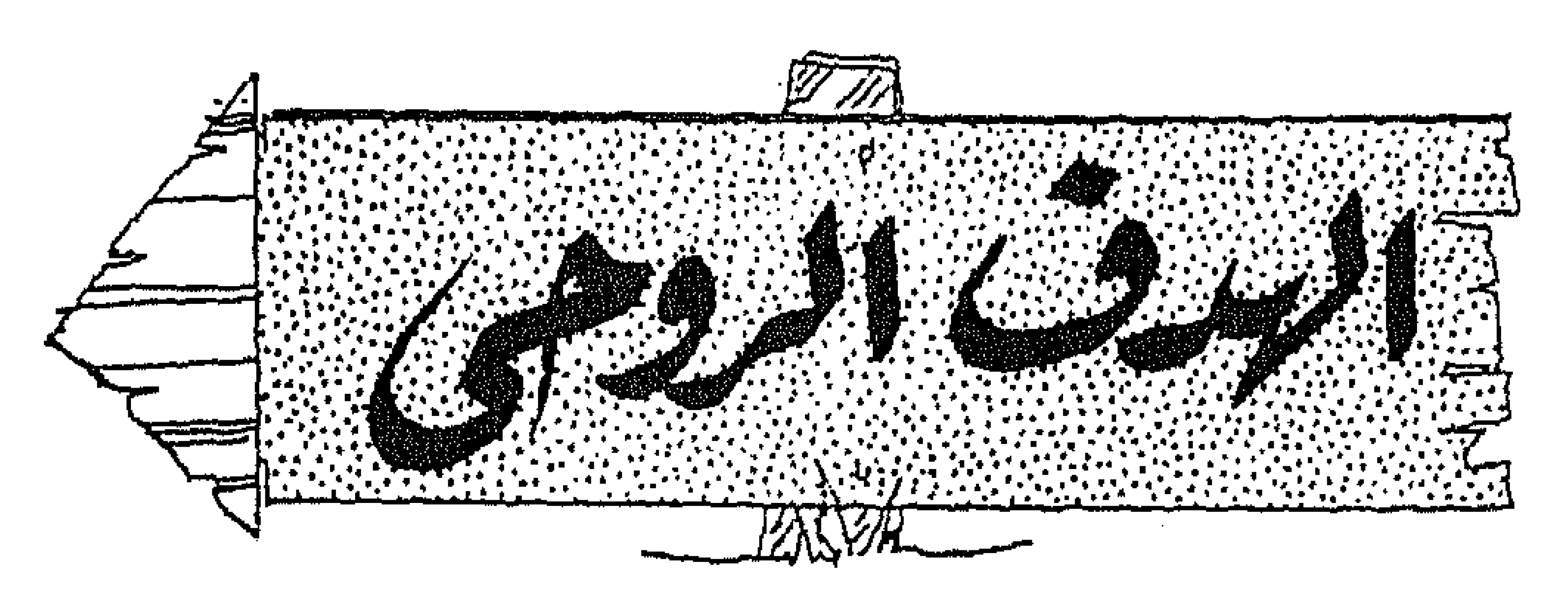
فائدة ثبات الهدف .

أمثلة ممن سقطوا .

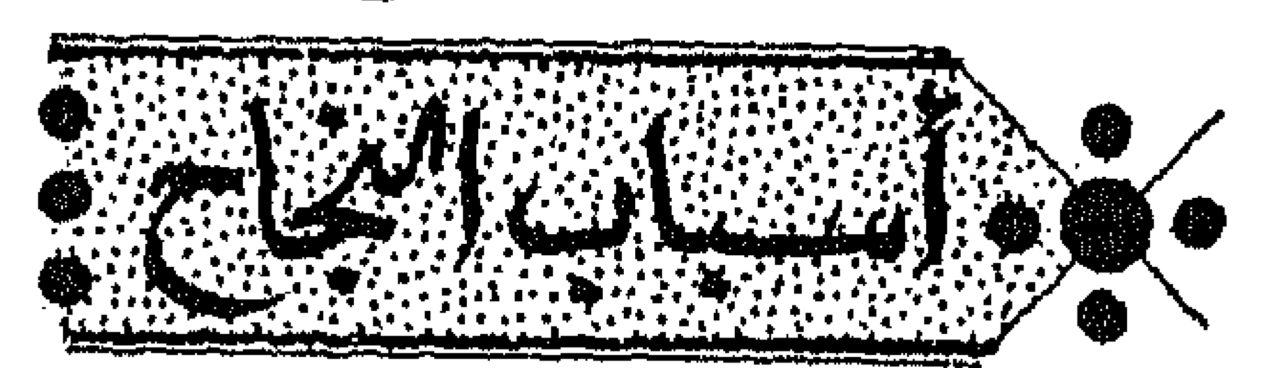
أمثلة للتائبين .

أمثلة من التائبين .

ثبات الشهداء .



أنت يا أخي سائر في طريق الحياة وأود أن أناقش معك خطة لمسيرتك هذه . ولعل أول سؤال يقابلنا هو: ما هي أسباب نجاح الكثيرين ؟



والإجابة هي أن مقومات النجاح كثيرة . وفي مقدمتها أن الذين نجحوا في حياتهم ، كانت لهم أهداف قوية وضعوها أمامهم ، واستخدموا كل إمكانياتهم لتحقيقها .

ومحبة الهدف والرغبة في تحقيقه منحهم حماساً وقوة ونشاطاً وروحاً .

كما منحهم الهدف تركيزاً في حياتهم وتنظيماً لها . واصبحت كل إمكانياتهم وطاقاتهم : وكذلك كل أعمالهم سائرة في طريق هذا الهدف في اتجاه واحد بلا انحراف .

والهدف جعل لحياتهم قيمة .

إذ شعروا بأن هناك شيئاً يعيشون من أجله . فاصبحت حياتهم لها لذة .. حياة هادفة لها قيمتها . وكل دقيقة من دقائق حياتهم صار لها ثمن .

وكلما كان الهدف في الحياة سامياً عالياً ، تكون قيمة الحياة أعظم ، وتكون الحمية في القلب ناراً متقدة لتحقيقه .

أما الذي يعيش بلا هدف ... فإن حياته تكون مملة وثقيلة عليه ...

حياة لا معنى لها ولا طعم ، ولا اتجاه ولا ثبات . و يكون مقلقلاً في كل طرقه . وغالباً ما ينتابه الملل والضجر في أحيان كثيرة . و يشعر بأن حياته رخيصة ، وضائعة وتافهة ، يبحث فيها عن وسائل لقتل الوقت ! لأن الوقت لم تعد له قيمة ولا رسالة ...

وكثيراً ما يتساءل هؤلاء : لماذا نحيا ؟ لماذا خلقنا الله ؟

ما معنى الحياة ؟ وما هو غرضها وهدفها ؟ إنهم مساكين . يعيشون ولا يعرفون لماذا يعيشون ! تجرفهم دوامة الحياة دون أن يشعروا . وإن شعروا : يسألون ... إلى أين ؟

أما إن وجدوا لحياتهم هدفاً ، فإن كل هذه الأسئلة تبطل ...

هنا ونود أن نبحث أهداف الناس التى تحركهم فى الحياة .

لأنه ، حسبما يكون الهدف ، هكذا تتحد الوسيلة التى تقود إليه ... البعض هدفه المال ، أو الوظيفة ، أو اللقب ، أو السلطة : أو السيطرة أو النجاح فى العمل . والبعض شهوته اللذة ، **سواء كانت لذة الحواس أو لذة الأكل والشرب ، أو لذة الجسد ، أو لذة الراحة** . والبعض هدفه الزواج والاستقرار فى بيت ، أو النجاح فى الدراسة .

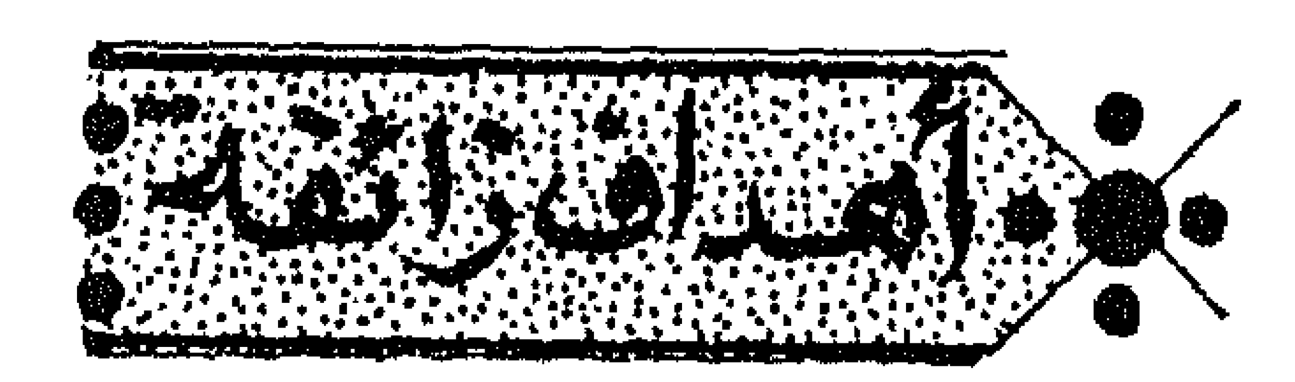
ولا نستطيع أن نسمى كل هذه أهدافاً . إنما هى رغبات وشهوات .

وإن حسبت أهدافاً ، تكون مجرد أهداف عارضة ، أو مؤقتة ، أو زائلة أو سطحية لا عمق لها . كما أنها محددة بزمن . وكلها تدخل تحت قول الرب لمرثا « أنت تهتمين وتضطر بين لأجل أمور كثيرة ، والحاجة إلى واحد » (لو ١٠ : ٤١) .



الإنسان الروحى هدفه الله وحده لا غيره . كل هدفه هو أن يسعى إلى الله ، و يعرفه ويحبه و يعاشره و يثبت فيه . و يكون علاقة معه ، يسكن الله فى قلبه و يسكن هو فى قلب الله . و يقول لله فى [illegible]

« **معك لا أريد شيئاً على الأرض** » (مز ٧٣ : ٢٥) . وهكذا بالتصاقه بالله ، يمكنه أن يستغنى عن كل [illegible] تقود إلى التجرد وإلى الزهد وكلما يختبر الله و يذوق حلاوة العشرة معه يثق بأن كل شىء فى الدنيا باطل وقبض الريح (جا ٢ : ١١) ـ وكما يقول المثل ـ [illegible] العسل (أم ٢٧ : ٧) . هكذا النفس الشبعانة بالله تدوس كل شهوات الأرض .



ولكن الشيطان لا يعجبه هذا إنه يجول فى الأرض يوزع أهدافاً.

و يبذر و يزرع أغراضاً وآمالاً ورغبات وكل ذلك بغية أن يتوه الإنسان عن هدفه الروحى الوحيد الذى هو الالتصاق بالله ، والاستعداد للأبدية . و بالأهداف العالمية التى يوزعها الشيطان : يتلظى أهل العالم فى جحيم من الرغبات ، لا يمكن أن تشبعهم إذ أن فى داخل كل إنسان حنيناً إلى غير المحدود . وكل ما فى العالم محدود ..

وأول هدف يقدمه الشيطان هو الذات ...

فتصير الذات صنماً يعبده الإنسان وتصير ذاته هى محور ومركز كل تفكيره يريد أن يبنى هذه الذات ، و يكبرها و يبنيها ، ويجعلها موضع رضى الكل ومديحهم . و ينشغل بذاته بحيث يهمل كل شيء فى سبيلها ، حتى علاقته بالله .

وهكذا تصير الذات منافساً لله ...

تدخل أولاً إلى جوار الله فى القلب ثم تتدرج حتى تملك القلب كله ، وتبقى وحدها فيه ، فيتحول الإنسان إلى عبادة الذات و يظل كل يوم يفكر: ماذا أكون ؟ ومتى أكون ؟ وكيف أكون ؟ وكيف أتطور إلى أكبر وأعظم ... ؟

و يا ليته يهتم بذاته إهتماماً روحياً ...

إذن لكان يبذل ذاته من أجل الله ومن أجل الآخرين ، ويحيا حياة المحبة التى تضحى ، وتبذل نفسها فدية عن الآخرين . وحينئذ يجد ذاته ، أعنى الوجود الحقيقى . يجدها فى القداسة وفى البر والكمال ، فى الله نفسه ... إن بولس الرسول ، من أجل الحياة مع الله قال « ولا نفسى ثمينة عندى » (أع ٢٠ : ٢٤) . أما الذى يهتم بذاته بربطها بشهوات العالم فإنه بالتالى :

يجعل شهوات العالم هدفاً له .

وهكذا يضع أمامه بريق العالم الحاضر وأمجاده ، وملاذه ولهوه ، واحلامه وأمانيه ، و ينشغل بكل هذا حتى ما يتفرغ لأ بديته . و يبقى مخدراً بشهوات الدنيا ، ما يضيق

منها إلا ساعات الموت ، حينما يتركها كارهاً ... ! أما أنت ، فلا يكن لك هذا الفكر ولا هذا الاتجاه ، وإنما :

كل هدف يبعدك عن الله وعن خلاص نفسك اعتبره خدعة من الشيطان وارفضه فى حزم ..

وكذلك أرفض كل وسيلة تبعدك عن هدفك الروحى . ولا تسمح مطلقاً بأن تكون ذاتك منافساً لله فى قلبك ، ولا تسمح بأن يصير العالم هدفاً . فإن الكتاب يقول إن «العالم يبيد وشهوته معه» (١يو٢ : ١٧) . و يقول أيضاً إن محبة العالم عداوة لله (يع ٤ : ٤) .

إذن راجع منذ الآن كل أهدافك وكل وسائلك ، فى ضوء اهتمامك بأبديتك : وفى ضوء هدفك الروحى الذى هو محبة الله ...

إن كل هدف ضد ملكوت الله هو انحراف عن الخط الروحى .

وكل شيء يصطدم بمحبة الله فى قلبك ، اتركه مهما تكن قيمته . كما قال القديس بطرس للرب «تركنا كل شيء وتبعناك» (متى ١٩ : ٢٧) .

إن يوسف الصديق خسر حريته حينما بيع كعبد وخسر سمعته حينما ألقى فى السجن ، وخسر أبو يه وأخوته ووطنه حينما عاش فى بلد غريب ... ولكن كان يكفيه وقتذاك ، الله وحده . كان هو هدفه .

الذى هدفه هو الله لا يتأذى إن خسر أى شيء عالمى .

ابراهيم أبو الآباء كان الله هو هدفه لذلك سهل عليه أن يترك أهله وعشيرته ووطنه (تك ١٢ : ١) و يتغرب وهو لا يعلم إلى أين يذهب (عب ١١ : ٨) بل سهل عليه أن يأخذ أبنه ليقدمه محرقة للرب ...

و بولس الرسول سهل عليه أن يترك المركز والسلطة والصلة بالقادة ، إذ لم يكن شيء من هذا هو هدفه ... واستطاع أن يقول «خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية ، لكى أربح المسيح» (فى ٣ : ٨) . هذا هو هدفه الذى من أجله خسر كل شيء ، دون أن يحزن .

ودانيال النبى : لم يأبه بالقصر الملكى ، ولا بالوظائف ، ولا بكل أطايب الملك ، ولم يأبه حتى بحياته إذ القى فى جب الأسود ، إذ كان له هدف واحد تضاءل أمامه كل شيء ...

إن الذى هدفه هو الله لا يجعل حتى الأمور الروحية هدفاً له !

البعض قد يجعل الصلاة هدفاً له ، فيصلى ليس من أجل محبته لله ، وإنما لكى يكون رجل صلاة ! و يهتم بالدراسة اللاهوتية كهدف ، لا لكى يعرف الله فيثبت فيه ، إنما لكى يصير من علماء اللاهوت ، يعطيه العلم شهرة ومكانة وعظمة ! وهكذا ، أيضاً ، قد يتحول الصوم إلى هدف ، و يتحول كل عمل روحى إلى هدف ، يعمل الإنسان لكى يرضى عن نفسه ، أو لكى يرضى الناس عنه !!

بينما كل هذه وسائط وليست أهدافاً . فالهدف هو الله .

الصلاة والصوم والمعرفة : وكذلك التأمل والقراءة ، كل هذه هى مجرد وسائل توصلك إلى هدفك الوحيد الذى هو الله ومحبته . والارتباط به . فإن جعلتها هدفاً تكون قد قصدتها لذاتها ... وقد تتقدم فيها ، وتكون بعيداً عن الله الذى قال « هذا الشعب يكرمنى بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً » (متى ١٥ : ٨) .

وقد تصبح الرهبنة والتكريس هدفاً !

ولكن الرهبنة هى مجرد وسيلة توصل إلى الله . ولذلك عرفوها بأنها ـ الانحلال من الكل للارتباط بالواحد ـ فإن تحولت إلى هدف ، تحولت الوحدة إلى هدف ، والصمت إلى هدف فما أسهل أن تكسر وصايا الله من أجلها !

فيتخاصم الراهب مع الدير من أجل حياة الوحدة . يعيش كمتوحد دون أن تكون له فضائل الوحدة ، ودون أن ينمو فى محبة الله . وفى هذا قال ماراسحق « هناك من يجلس خمسين سنة فى القلاية ، وهو لا يعرف طريقة الجلوس فى القلاية » .

والبعض قد يجعل الإصلاح هدفاً ...

و بسبب الاصلاح يثور و يتخاصم : و يدين الآخرين و يشهر بهم ، و يفقد محبته

للنـاس ، و يفقد هدوءه وسلامه و يشتم و يسب ، ويحتد و يصخب ، و يتحول إلى قنبلة متـفـجرة تـقـذف شظاياه في كل مكان. وفى كل ذلك تبحث عن علاقته بالله ، فلا تجدها . لقد أصبح - إصلاحاً - بدون الله و بدون محبة وصارت غيرة بلا تدين !

وهكذا أيضاً فى الخدمة :

كثيرون بدأوا بالخدمة .. وأنتهوا بأنفسهم !

بدأوا بالسعى إلى مجد الله ، وانتهوا بمجد أنفسهم ! بدأوا الخدمة وهدفهم هو الله . ثم وضـعـوا الخـدمـة إلى جـوار الله : وأحياناً قبله . ثم تركزوا فى الخدمة وصارت لهم هدفاً ونـسـوا الله . ثم بحثوا عن نجاح الخدمة . ثم صار نجاح الخدمة هو نجاحهم الشخصى . وانـتـهـوا إلى الـذات وإذ وصـلـوا إلى هـذا ، تحـولـت الخدمة إلى مجال للسيطرة والظهور ، وأصبحت مجرد نشاط واستخدام للطاقة وربما أصبحت وسائلها بعيدة عن الله تماماً ، فيها الذكاء والحيلة والدهاء . وضاع الهدف الروحى الذى هو الله !

أما أنت ففى كل عمل روحى ، قل مع داود النبى :

جعلت الرب أمامى فى كل حين :

وليكن الله هو هدفك الوحيد . أنت من أجله تخدم . وإذا تعارضت الخدمة مع الله ، اتـركـهـا . لأنـه مـا أسهل على الشيطان أن يتيهك حتى فى داخل الكنيسة . وتذكر إن الإبـن الـضـال الـكـبير ابـتـعـد عـن محبة أبيه وهو فى صميم الخدمة « يخدمه سنين هذا عددها » (لو١٥ : ٢٥ - ٣٢) .

لذلك كله فإن الله يسألك أين أنا فى وسط أهدافك ؟

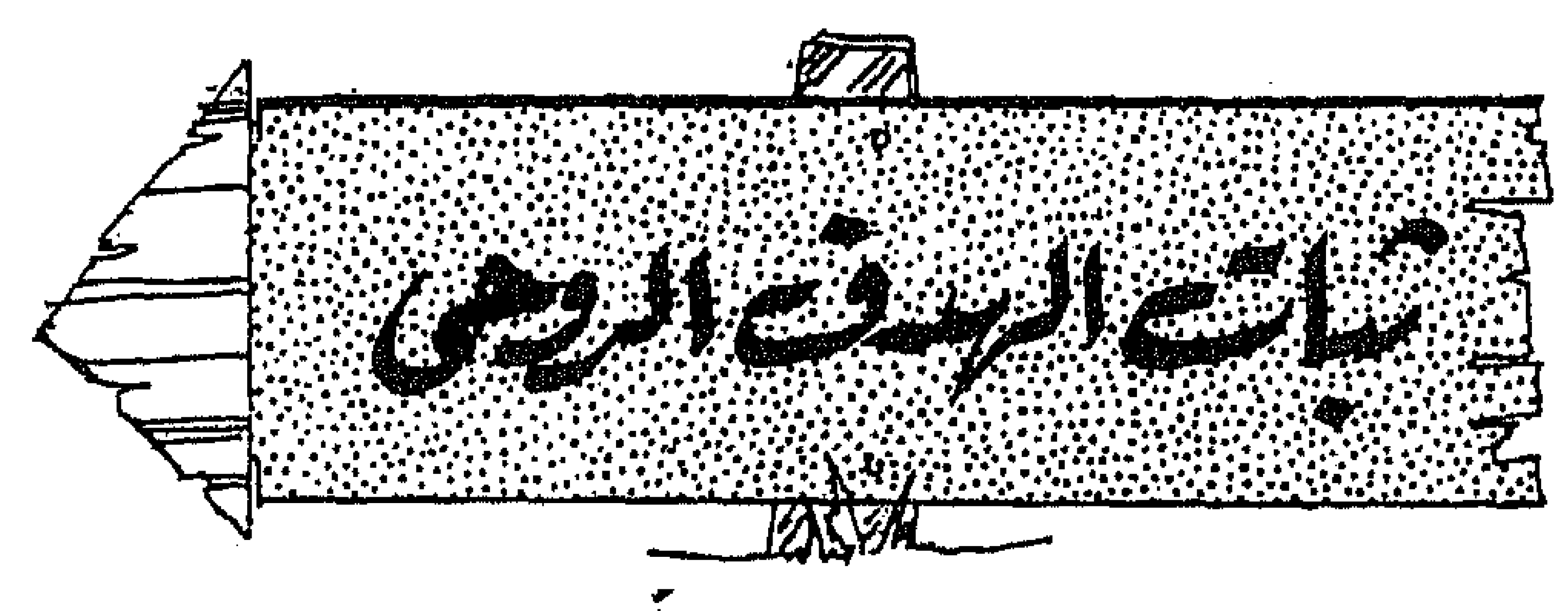
أجـب عـن هـذا السؤال بصراحة كاملة : هل الله هو أحد أهدافك ؟ أم هو الهدف الأول ؟ أم الهـدف الـوحـيـد ؟ أم أنـه لـيـس هـدفـاً على الاطـلاق ؟ أم تـضعه فى آخر القـائـمـة : قـد تـتـذكره أحياناً ، وقد لا تتذكره ! أم أن الله قد تحول فى نظرك إلى مجرد وسيلة لتحقيق أهدافك ! وإن لم يحققها لك : تغضب منه وتثور ، وقد تقطع صلتك به .

هل تحب الله كما أحبك ؟

وهل قلبك كله له ؟ أم هناك أهداف جانبية إلى جوار الله ، تسعى أن تكون هى الأصل ؟

هل تفكر فى أبديتك ـ وقبل أن تصل إلى أحضان القديسين ، تصل إلى أحضان الله ؟

حسبما يكون هدفك هكذا تكون حياتك وهكذا تكون وسائلك . فراجع نفسك ...



الإنسان الروحى هو شخص مستقر فى هدفه وفى وسائله . له هدف واضح ثابت لا يتغير. وقد ركز كل أهتمامه بهذا الهدف . وأصبح يتجه نحوه على الدوام ، بكل طاقاته وكل رغباته ، لا يتحول عنه . وكل وسائله توصل إليه . إنه مثل سهم البوصلة يتجه دائماً فى اتجاه واحد مهما حركت وضعه أو موضعه .

إنه إنسان راسخ ثابت لا تغيره تطورات الأ يام والظروف الخارجية .

وقد صدق ذلك الأديب الروحى حينما قال عن الرجل الحق إنه [يتطور دون أن يتغير. و يكبر دون أن يتكبر. ويحتفظ بثباته فى وثباته] . أما الإنسان الضعيف فإنه متزعزع : خبراته فى الحياة ، وصدماته وتجاربه وضيقاته وظروفه ، تجعله يغير خط مسيرته و يتحول عنها . وقد يتحول نتيجة لاغراءات أو لمخاوف ، أو لدنيا قد تفتحت أمامه ...

وهكذا كثيرون بدأوا بالروح ، وكملوا بالجسد . بدأوا بالله وكملوا بالعالم .

كم من أناس عرفناهم ، وكان يبدو أن لهم هدفاً روحياً وحالياً لا وجود له ولا لهم ، دوامة العالم جرفتهم وجرفت روحياتهم ، فساروا مع التيار... وليس فى جيلنا فقط ، بل إن الكتاب المقدس يقدم لنا أمثلة عجيبة من شخصيات بدأت ولم تكمل . أو أن هدفها انحرف فى الطريق ولم تثبت عليه . ولعل من أمثلة هؤلاء ديماس مساعد

بولس الرسول الذى قال عنه :

« ديماس تركنى لأنه أحب العالم الحاضر » (٢تى ٤ : ١٠) .

والذى حدث لديماس ، حدث أيضاً لكثيرين قال عنهم القديس بولس الرسول فى رسالته إلى أهل فيلبى «لأن كثيرين ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح . الذين نهايتهم الهلاك ... ومجدهم فى خزيهم ، الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣ : ١٨ ، ١٩) .
كل هؤلاء كانوا أصدقاء الرسول العظيم ، وكان لهم ماض مجيد فى الخدمة .

كان لهم هدف روحى عاشوا به فترة ، ولم يثبتوا عليه ربما لأن أشياء أخرى دخلت قلوبهم إلى جوار الله . وبمرور الوقت سيطرت عليهم . وربما أرادوا أن يجمعوا بين الله والعالم فى نفس الوقت . و يعيشوا مع سارة وهاجر فى نفس البيت . أو مثل لوط البار الذى أراد أن يجمع بين محبة الله ومحبة الأرض المعشبة فى سادوم .

إن شمشون بدأ حياته كنذير للرب ، وكان روح الرب هو الذى يحركه (قض ١٣ : ٢٥) . ثم ماذا بعد ؟

دخلت رغبات إلى قلب شمشون بجوار الرب ، ففارقه الرب (قض ١٦ : ٢٠) .

لا يكفى إذن أن يكون هدفك هو الرب . إنما يجب أن تظل محتفظاً بهذا الهدف . ولا تسمح لأهداف أخرى أن تدخل إليك ، لأنك لن تستطيع أن تجمع بين نذرك ودليلة فى آن واحد ، مهما ظننت نفسك حكيماً .

هوذا سليمان أحكم أهل الأرض يعطينا نفسه مثالاً : لقد بدأ بهدف روحى ، ما فى ذلك شك . وتراءى له الله مرتين ، ووهبه الحكمة . ومع ذلك أراد أن يجمع بين الله والمتعة ففشل . وفقد هدفه الروحى وسقط (١مل ١١) ...

سليمان الحكيم يسقط ؟ . يا للمأساة ... كل ذلك لأن الهدف تغير ، أو دخلت إلى جواره أهداف أخرى ، فجرفته . أما الذين ثبتوا على هدفهم ، فقد استمروا سائرين فى ثبات نحو الله .

انظر إلى مياه الطوفان ، ماذا فعلت . وتعلم منها درساً ...

مياه الطوفان غطت الأرض كلها . حتى أن القمم العالية أيضاً غطتها المياه . أما الفلك فلم تؤذه المياه فى شىء ، بل سار فوقها ، لأن هدفه هو الله . ولا شك أن الله كان داخله ، يحفظه و يقوده ... حقاً إن الهدف الصالح يعطى حياة وحيوية وقدرة على السير فى اتجاه الله . كما يعطى قدرة على مقاومة كل التيارات المضادة وصاحب الهدف الثابت لا تجذبه التيارات المضادة ، لأن ارادته ثابتة فيه .

إن سمكة صغيرة جداً تستطيع أن تقاوم التيار ، وتستمر فى مسيرتها ، لأن فيها حياة ، وفيها ارادة تحركها بينما كتلة ضخمة من الخشب يجذبها التيار حيثما يشاء . لأنها بلا حياة و بلا هدف ...

لقد خرج بنو اسرائيل من عبودية فرعون ، ونجوا من الملاك المهلك ، وعبروا البحر الأحمر . وكانت بداءة طيبة ولكن لم يكن لهم هدف روحى ثابت ، فهلكوا فى برية سيناء ، على الرغم من أنهم كانوا يقتاتون بالمن والسلوى وسحابة الله كانت تظللهم . ربما هدفهم كان ذاتهم وكيف ينجون ، وليس الله وكيف يعيشون معه . لذلك قادتهم الذات إلى الشهوات فتذمروا على الله ، خرجوا بأجسادهم من عبودية فرعون ، ولكن كانت هناك عبودية أخرى داخلهم لم يخرجوا منها ... فهلكوا .

كان الهدف السليم عند موسى النبى وليس عند بنى اسرائيل .

فلم يستطيعوا أن يستمروا فى مسيرتهم معه ، على الرغم من كل العبادات الطقسية التى كانوا يقدمونها . إن القلب الذى لا يعطى ذاته لله عطية كاملة حقيقية بهدف سليم ، ما أسهل عليه أن يكسر كل عهد يبرمه مع الله فلا يحافظ على عهوده ، ولا على وعوده ، و ينحرف إلى أهداف سطحية تافهة لا تغنيه شيئاً ...

و بنفس الوضع خرجت إمرأة لوط من سادوم . وقلبها لا يزال فيها .

لم يكن خروجها من أرض الخطية خروجاً حقيقياً من القلب ، ولم يكن من أجل الله . كانت يدها فى يد الملاك الذى أقتادها إلى خارج المدينة المحترقة مع أسرتها . أما قلبها فكان يحترق شوقاً إلى ما هو داخل المدينة ... عجيبة هذه المرأة . لم تهلك داخل سدوم ، إنما بعد أن خرجت منها . وهكذا هلكت وتحولت إلى عمود ملح .

صار موتها ملحاً للعالم ، أى درساً روحياً فى خطورة النظرة إلى الوراء ..

الذى له هدف حقيقى ثابت فى الله ، لا ينظر مطلقاً إلى الوراء أثناء سيره مع الله ، وإلا تعرض لتوبيخ إيليا النبى الذى قال «حتى متى تعرجون بين الفرقتين ؟ . إن كان الله هو الله فاتبعوه . وإن كان هو البعل فاتبعوه» (١مل ١٨ : ٢١) .

إن كان هدفك هو الله ، فلا تكن ذا قلبين ، ولا تكن متردداً .

مشكلة يهوذا الأسخريوطى كانت هذه : يجلس مع السيد المسيح على مائدة واحدة ، و يأكل معه من نفس الصحفة . وفى نفس الوقت كان يتفق ضده مع شيوخ اليهود وقادتهم . فكان [تلميذاً] للرب بلا هدف . يقبل السيد و يسلمه إلى أعدائه فى نفس الوقت . عاش المسكين بلا هدف . فكانت حياته ثقلاً عليه وعلى الجميع ، فهلك .

إن نيقوديموس بعد أن عرف الرب معرفة حقة ، لم يستطع أن يستمر صديقاً له وعضواً فى مجمع السنهدريم فى نفس الوقت ...

حنانيا وسفيرة أرادا أن يجمعا الهدفين معاً ، فلم يستطيعا ، وهلكا ...

أرادا الاحتفاظ ببعض المال حراماً . بينما يظهران أمام الجميع كعضوين فى جماعة أولاد الله الذين يضعون كل أموالهم عند أقدام الرسل . فلا كسبا المال ، ولا كسبا عضوية الكنيسة . لم يكن لهما الهدف الروحى النقى الثابت الذى لا يعرج بين الفرقتين ...

صورتهما تشبه صورة بيلاطس ، الذى أراد ارضاء ضميره وارضاء اليهود فى نفس الوقت . ولما فشل غسل يديه بالماء ، دون أن يغسل قلبه من الداخل .

كان الشاب الغنى يريد أن يجمع الهدفين معاً . وإذ كشفه فاحص القلوب . مضى حزيناً .

إنه يسأل عن الحياة الأبدية وكيفية الوصول إليها ، كأنه صاحب هدف صالح يسعى إليه . أما قلبه فكان يحب العالم الحاضر ، على الرغم من أنه حفظ الوصايا منذ حداثته ... (متى ١٩ : ١٦ - ٢٢) . وإذ كشف له الرب الداء الذى فيه ، ودعاه إلى أن يكون صاحب هدف واحد ، و يتخلى عن الآخر ... مضى حزيناً .

وسيمضى حزيناً مثله كل من يحاول أن يضع إلى جوار الله هدفاً آخر.

كثيرون يقولون إن الله هو هدفهم ، وفى نفس الوقت يريدون أن يدخلوا من الباب الواسع . والباب الواسع لا يوصل إلى الله مطلقاً ، لأنه « بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) .

والذين يجعلون الله هدفهم ، ينبغى أن يتألموا من أجله ، و يبذلوا ذواتهم من أجله ، عالمين أن تعبهم ليس باطلاً فى الرب ، وكما قال الكتاب « كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه » (١كو٢ : ٨) .

هؤلاء استقروا على هدفهم الروحى ، بكل ثبات لا يغيرونه .

لقد أختاروا الله هدفاً لهم ، بغير ندم ولا تردد ، و بغير إعادة تفكير ، و بغير النظر إلى الوراء . لم يعودوا يفحصون الأمر من جديد ، أو يتساومون مع الشيطان . إن خط حياتهم واضح أمامهم لا يتغير. استقروا عليه منذ زمان ، ولم يعد موضوع نقاش . وكما قال القديس بولس الرسول :

« إذن يا أخوتى الأحباء . كونوا راسخين غير متزعزعين ، مكثرين فى عمل الرب كل حين . عالمين أن تعبكم ليس باطلاً فى الرب » (١كو١٥ : ٥٨) .

إنهم لا يعيشون حياة صراع بين الخير والشر ، أو بين الله والعالم .

فالصراع يعنى عدم استقرار. أما هؤلاء ، فلهم خط واضح لا تردد فيه ، ولا انحراف عنه يمنة ولا يسرة . يسيرون بقلب ثابت ، و بنظر ثابت موجه إلى الهدف . ولم تعد لهم شهوات أخرى تتعارض مع محبة الله . بل إن الله صار هو شهوتهم الوحيدة التى تملأ قلبهم تماماً ولا يبقى فيه شيء لغيرها .

وسنضرب أمثلة لهؤلاء الثابتين :

إن قصص الثابتين تعطينا فكرة عن الثبات فى الهدف الروحى .

هؤلاء تركوا حياة الخطية إلى الأبد ، وما عادوا يرجعون إليها مرة أخرى . ولم نسمع مطلقاً أن القديس أوغسطينوس عاد إلى حياة الخطية بعد توبته ، ولا عاد

القديس موسى الأسود إلى ما كان عليه أولاً . ولم نسمع أن القديسة مريم القبطية أو القديسة بيلاجية عادتا إلى الخطية بعد توبتهما .

فهؤلاء بعد أن صار الله هدفاً لهم تغيرت حياتهم تماماً بلا أية ردة أو رجعة أو أية نظرة إلى الوراء .

إنما أستأصلوا الخطية تماماً من قلوبهم .

تماماً فى جدية كاملة ، وفى أمانة عجيبة لله الذى اختاروه . مثل الذى يجرى عملية لاستئصال سرطان ، و يتخلص منه كله . لأنه لو استأصل الكل ، وبقى ولو شىء مثل شعرة ، سيعود و يتضخم و يصير أسوأ مما كان ... ولهذا فإن الذى يقول إنه تاب ، وهو لا يزال يقع و يقوم ، و يقع و يقوم ، هذا لم يتب بعد ، وهدفه ليس واضحاً أمام عينيه . وكما يقول الشاعر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

إن التوبة ليست مجرد أجازة [عطلة] من الخطية بحيث يمكن أن يعود الإنسان إليها مرة أخرى . إنما هى قطع كل صلة بها إلى الأبد ، بكل تصميم ، وبكل حب له . وكما قال أحد القديسين فى تعريف التوبة إنها [استبدال شهوة بشهوة] أى أن شهوة الإنسان بالنسبة إلى العالم تنتهى ، لتحل محلها شهوة الحياة مع الله ، وتصبح هدف الإنسان من حياته . وبهذا تحول أولئك الخطاة ليس فقط إلى تائبين وإنما صاروا قديسين .

ساروا فى تصميم شديد لدرجة تنفيذ قول الرب : **إن أعثرتك عينك فاقلعها والقها** عنك ... وإن أعثرتك يدك اليمنى فاقطعها والقها عنك (متى ٥ : ٢٩ : ٣٠) .

مثال آخر فى التصميم على الهدف الروحى : سلوك الشهداء .

كان هدفهم الوحيد هو الله والحياة معه فى الأبدية السعيدة ، لذلك ساروا وراءه بكل قلوبهم حتى إلى الموت ولم يبالوا باغراءات ولا بتعذيب . ولم يستطع شىء من كل هذا يحول قلوبهم الثابتة فى الرب . كما قال بولس الرسول «من سيفصلنا عن

محبة المسيح ؟ ... إنى متيقن أنه لا موت ولا حياة .. ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ، ولا خليقة أخرى ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التى فى المسيح يسوع ربنا » (رو٨ : ٣٥ - ٣٩) .

مثال آخر للتصميم على الهدف الروحى ، هو الدعوة الإلهية .

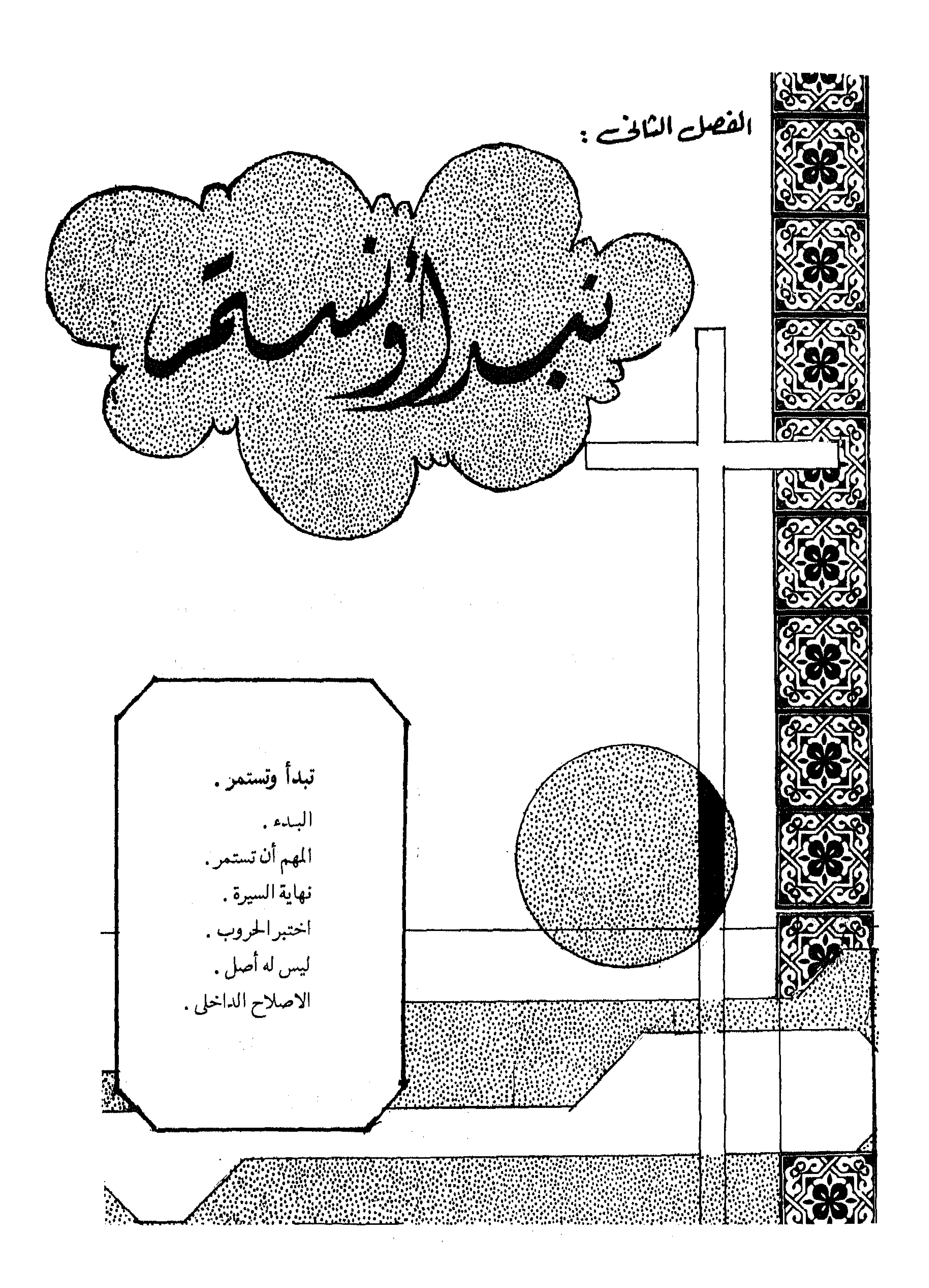
ابراهيم أبو الآباء ، لما دعاه الرب أن يترك وطنه وأهله وعشيرته ، ويمضى إلى الجبل الذى يريه ، لم يتردد بل خرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب (عب ١١ : ٨) لم تكن الأرض ولا العشيرة هى هدفه ، إنما هدفه هو الله الذى من أجله يترك كل شيء ...

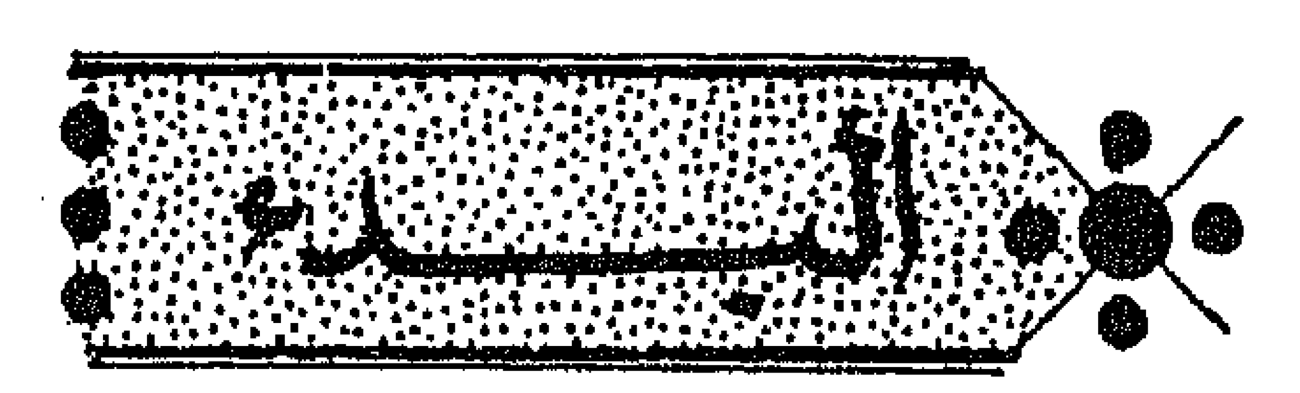
كذلك لما أمره الرب أن يقدم إبنه وحيده ذبيحة ، لم يتردد مطلقاً ، ولم يفكر ، ولم يدخل فى صراع داخلى . إنما بكر صباحاً جداً وأخذ إبنه ، ومعه الحطب والنار والسكين . لم يكن الإبن هو هدفه ، وإنما الله هو الهدف .

وكذلك قال بولس الرسول « لما سر الله الذى افرزنى من بطن أمى ودعانى بنعمته ... للوقت لم استشر لحماً ولا دماً ، ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين كانوا قبلى » (غل ١ : ١٥ - ١٧) . .

إن الهدف الإلهى يحتاج إلى تصميم .

فالشيطان إذا وجد فينا ارادة مترددة غير حازمة فى علاقتنا مع الله ، ارادة زئبقية تتموج ولا تثبت على حال يعرف أن عودنا طرى ، يمكنه أن يحصره و يعصره . فلنكن راسخين فى محبتنا لله . ولا نضع هدفاً إلى جواره ... له المجد من الآن وإلى الأبد آمين .


الفصل الثانى :
تبدأ وتستمر
تبدأ وتستمر .
البدء .
المهم أن تستمر .
نهاية السيرة .
اختبر الحروب .
ليس له أصل .
الاصلاح الداخلى .



البدء

المهم أن يبدأ الإنسان الطريق، يبدأ علاقة مع الله .

كثيرون لم يبدأوا . حياتهم فى غربة عن الله . يعيشون حياة علمانية بحته، وقد شغلتهم أمور العالم المادية، أو شهوات الجسد، أو مسئوليات الحياة المتنوعة . ولم يعرفوا طريقهم بعد إلى الروحيات، ولم يفكروا فى ذلك مجرد تفكير. إنهم فى متاهة، أو فى دوامة، أو فى غفوية، لم يخطر على بالهم الأهتمام بأبديتهم .

فإن بدأوا يهتمون بالأبدية، تكون هذه نقطة تحول أساسية .

تختلف أسباب البدء من شخص لآخر: ربما أحدهم تأثر بعظة، أو قراءة كتاب، أو قدوة صالحة، أو تأثر بشخص روحى، أو قد تكون نقطة البدء هى رد فعل لحادث أو كارثة، أو مرض، أو موت أحد الأحباء... أو أى عمل من أعمال النعمة أيقظ ضميره وحوّل فكره إلى الله .

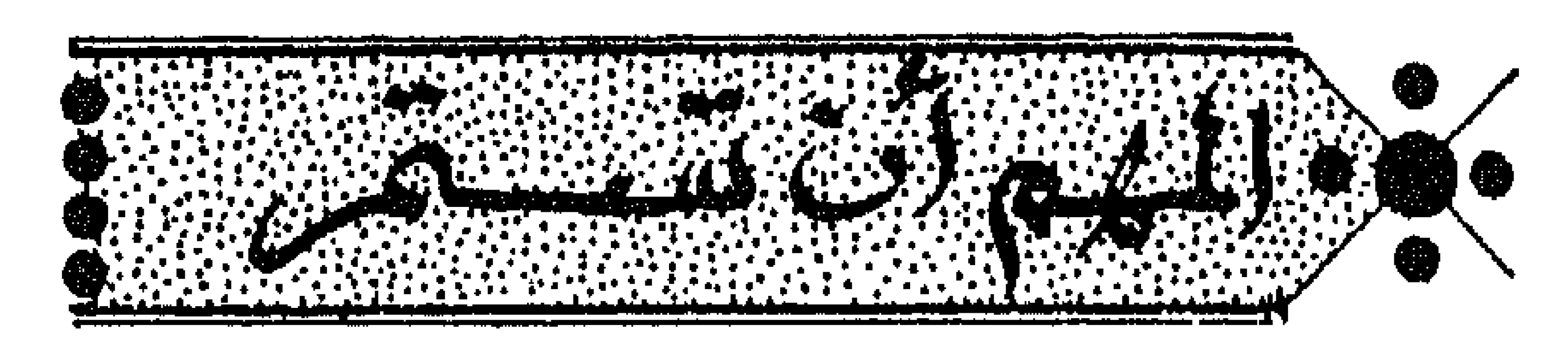
أو ربما شخص روحى، فكّر فى علاقة جادة مع الله، فى مناسبة معينة...

جلس مع نفسه مثلاً فى مناسبة بدء عام جديد، أو فى استقباله سنة جديدة من سنى حياته، أو فى أية مناسبة تاريخية فى حياته... وأراد أن يبدأ خطاً روحياً جديداً، وعلاقة مع الله أكثر جدية وفاعلية...

البدء إذن يمكن أن يحدث، بافتقاد من عمل النعمة .

وقد يكون الإنسان فيه، فى حماس شديد، وفى حرارة روحية، وفى عزم وتصميم . وقد يستمر على هذا أياماً، وقد تطول الفترة، ثم يفتر، أو يرجع إلى الوراء، ولا يكمل ما بدأ به... وتبرد محبته الأولى (رؤ ٢ : ٤) .

إذن ليس المهم فقط أن يبدأ الإنسان، بل بالأكثر أن يستمر .



هناك أشخاص يعترفون و يتناولون . وفى يوم التناول يكونون فى حالة روحية ممتازة . وقد بدأوا من جديد حياة التوبة ، فى قوة وحماس . ولكنهم للأسف لا يستمرون ، بل تمر الأيام ، وإذ بهم قد رجعوا إلى حالتهم القديمة ، فيما قبل التوبة !

المشكلة إذن هى مشكلة الاستمرار فى التوبة .

ما أسهل أن يحيا إنسان فى حياة القداسة لمدة يوم كامل . ولكنه لا يستمر !

وقد يبدأ شخص تدريباً روحياً . يقول مثلاً «سأدرب نفسى على الصمت حتى أتفادى أخطاء اللسان» ... و يصمت يوماً أو يومين ، ولا يخطىء بلسانه . ولكنه لا يمكنه أن يستمر فى التدريب ...

حسن أن تكون هناك بداية طيبة . إنما المهم أن تستمر .

خذوا مثالاً : القديس بطرس الرسول . فى وقت من الأوقات كان يشتعل حماساً لأجل الرب ، وهو يقول «وإن شكّ فيك الجميع ، فأنا لا أشك ... ولو اضطررت أن أموت معك ، لا أنكرك» (متى ٢٦ : ٢٩ ، ٣١) ... كلام جميل . وفعلاً سار مع الرب ، وتحمس وقطع أذن العبد (متى ٢٦ : ٥١) ... ولكن هذا الحماس لم يستمر . فعاد وأنكر ، وسب ولعن ، وقال : لا أعرف الرجل (متى ٢٦ : ٧٤) .

مثال آخر : الإنسان الذى ينذر نذراً .

أثناء النذر ، يفعل ذلك بكل عاطفته ، و يكون مستعداً تماماً للوفاء ... ولكنه لا يلبث فيما بعد أن يراجع فكره ، وإما أن يتأخر فى الوفاء بالنذر ، أو يشعر به ثقيلاً عليه ، أو يتفاوض إن كان يمكن أن يغيره ... !

كذلك كل من يتعهد عهوداً أمام الرب ...

و بخاصة فى بدء الحماس الروحى والحرارة الروحية ، أو فى بدء التوبة ، أو فى بدء

التداريب الروحية. ولكن الحماس لا يستمر. واسأل فى ذلك الذين فى وقت من الأوقات تعهدوا بأمور كانت فوق مستواهم... ومنهم من نذر البتولية، ومن نذر الرهبنة، ومن تعهد إن ماتت زوجته، لا يأخذ غيرها... إنه حماس لا يستمر...

كان الأولى أن يُقدم إلى الله كرغبة أو صلاة، وليس كتعهد أو نذر...!

وكثير ما نخطىء ثم نقول: إن الله قد قبل توبة اوغسطينوس وموسى الأسود ومريم القبطية وبيلاجية...! هذا صحيح. ولكن النصف الثانى من الحقيقة أن كل هؤلاء حينما تابوا، لم يرجعوا إلى الخطية مرة أخرى، بل استمروا فى توبتهم، وظلوا يرتفعون كل يوم درجة جديدة فى سلم الفضيلة فهل أنت كذلك فى توبتك؟

كذلك فى الخدمة. كم من أناس بدأوا ولم يستمروا.

فكم من أناس كانوا أسماء لامعة فى الخدمة، والآن لا وجود لهم إطلاقاً. جرفهم العالم بمشاغله وأصبح لا يشغل ذهنهم حالياً سوى الوظيفة والعائلة والمال وربما الدراسة، وتركوا الخدمة... لذلك يقول القديس بولس الرسول للخدام:

«كونوا راسخين، غير متزعزعين، مكثرين فى عمل الرب كل حين، عالمين أن تعبكم ليس باطلاً فى الرب» (١كو١٥: ٥٨).

وما نقوله عن الخدمة، نقوله أيضاً عن التوبة...

كم من أناس قدموا توبة بحرارة ودموع، وبعهود ونذورات. وكانت بداية طيبة لعلاقة مع الله، ولكنها لم تستمر... وعادوا مرة أخرى إلى خطاياهم، وربما إلى حالة أسوأ، ونسوا كل مشاعرهم الأولى. أما قديسو التوبة الجبابرة، أمثال أوغسطينوس وموسى الأسود وبيلاجية ومريم القبطية، فقد كانت التوبة نقطة حاسمة فى حياتهم. تحولوا بها إلى حياة الطهارة ونموا إلى حياة القداسة فى طريق الكمال.



من أجل هذا يقول لنا الكتاب عن قديسى الله:

« انظروا إلى نهاية سيرتهم ، فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) .

المهم إذن فى نهاية السيرة ، وليس فى بدايتها .

وهكذا نحن فى السنكسار نحتفل بأيام نياحتهم أو أستشهادهم . وفى صلوات المجمع فى القداس الإلهى ، نذكر أولئك « الذين كملوا فى الإيمان » .

إن ديماس كان أحد أعمدة الكنيسة فى بداية خدمته . وكان يذكره القديس بولس الرسول ضمن مساعديه القديسين مرقس ، ولوقا ، واسترخس . ولكنه لم يكمل المسيرة . لم يستمر . بل أنتهت حياته بعبارة مؤسفة جداً ، قال فيها الرسول :

« ديماس تركنى ، لأنه أحب العالم الحاضر » (٢تى ٤ : ١٠) .

ولم يكن ديماس وحده ... بل كثيرون آخرون بدأوا الخدمة مع القديس بولس ، وكان يمتدحهم . ولكنهم لم يستمروا . وقال عنهم الرسول أخيراً « لأن كثيرين ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك ... الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣ : ١٨ ، ١٩) .

إذن لا تفتخر بأنك بدأت ، بل استمر لكى تكمل .

لا تكن مثل ذلك الشخص الذى يبدأ طريقه مع الله فيقول لكل أحد « قد خلصت » و ينسى أنه ينبغى أن يكمل حياته فى الإيمان ، مستمعاً إلى قول الرسول :

« تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) .

إن نوالك نعمة الخلاص بالإيمان والمعمودية ، لا يمنع إطلاقاً أن الطريق لايزال طو يلاً أمامك ، تستمر فيه بالجهاد والتوبة والعمل الصالح وممارسات الأسرار المقدسة وكل وسائط النعمة ، واضعاً أمامك قول القديس بولس الرسول :

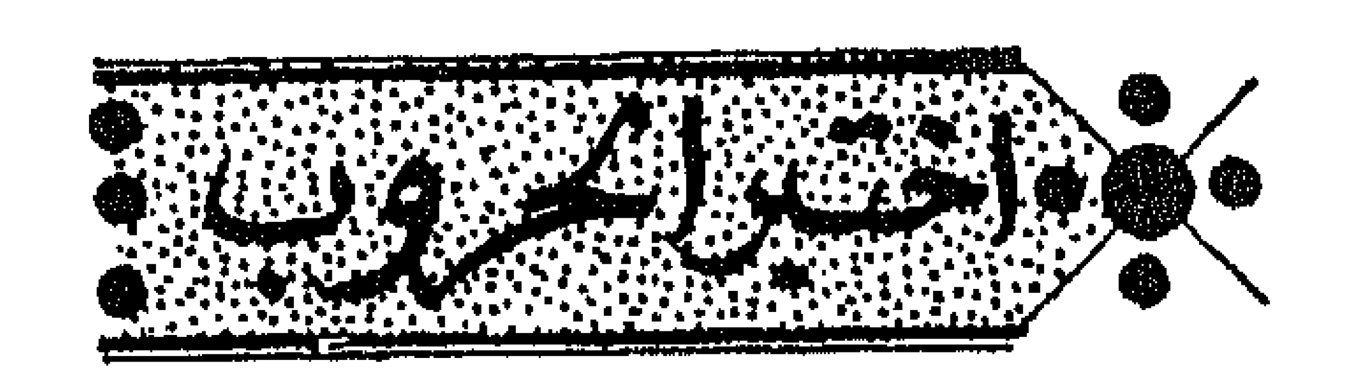
« من يظن أنه قائم ، فلينظر أن لا يسقط » (١كو ١٠ : ١٢) .

وأيضاً قوله « لا تستكبر بل خف » (رو١١ : ٢٠) . لذلك تواضع فقد قال الكتاب عن الخطية إنها « طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقو ياء » (أم٧ : ٢٦) . وقيل أيضاً « اصحوا واسهروا ، لأن ابليس خصمكم كأسد زائر ، يجول ملتمساً

من يبتلعه هو» (١بط ٥ : ٨). حسنٌ أن تسلك كما يليق. ولكن ينبغى أن تستمر لكى تخلص فى يوم الرب. واذكر أن القديس بولس وبخ أهل غلاطية قائلاً :

« أبعد ما ابتدأتم بالروح ، تكملون الآن بالجسد ؟! » (غل ٣ : ٣).

إذن الذين بدأوا بالروح ، يجب أن يستمروا فى طريقهم الروحى، ولا يكملوا بالجسد.



لا يكفى أن تخطو خطوة واحدة فى الطريق الروحى، لأن الخطوة الواحدة لا توصلك إلى الهدف. ومن جهة أخرى لا تأخذ بها الخبرة الروحية. فالمفروض أنك تختبر حروب الشياطين ومعاكساتهم وحيلهم.

من الجائز أن الله لا يسمح للشيطان بأن يحاربك فى أول الطريق، لئلا تيأس ...

وحتى إن سمح له الله بأن يحاربك، لإختبار صدق نيتك، فإنه يجعل الحروب خفيفة، لأن الله يشفق على ضعف المبتدئين... ولكن كلما يسير الإنسان فى طريق الروح ، فإن الحروب تشتد عليه شيئاً فشيئاً بسبب حسد الشياطين وبسماح من الله الذى يجعل نعمته تكثر لتحمى المؤمن من هجماتهم وتعينه فى جهاده...

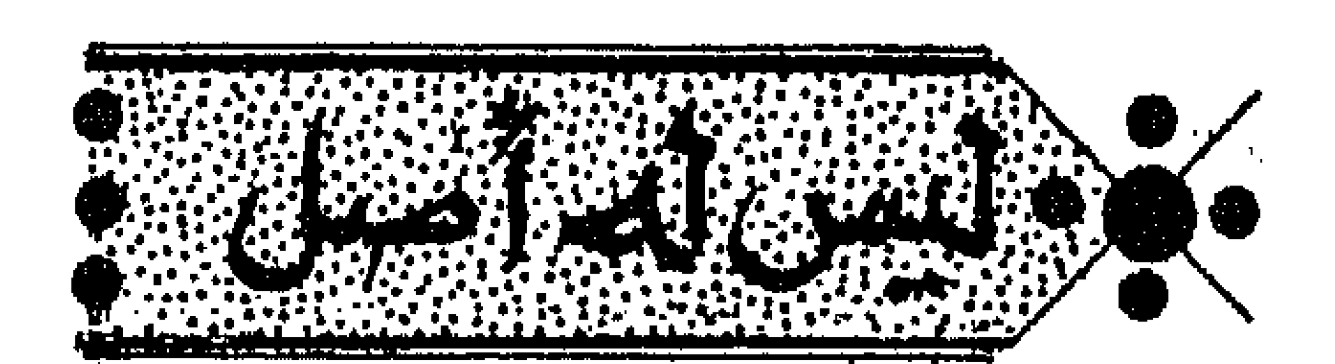
لذلك فالاستمرار فى الطريق يكسب الإنسان الاتضاع بالاضافة إلى الخبرة.

لأنه كلما يختبر حروب الشياطين العنيفة ، يشعر بضعفه أمام الحروب ، فيتضع. وقد يسقط أحياناً ويقوم، فيتدرب على الصلاة التى تقيمه، ويشعر أيضاً بشفقته على الذين يسقطون. كما أنه يتدرب على الصبر والاحتمال، كلما يثبت فى طريقه الروحى ويستمر على الرغم من كل ضغطات العدو. ويتذكر قول السيد المسيح لتلاميذه :

« أنتم الذين ثبتم معى فى تجاربى » (لو ٢٢ : ٢٨).

نعم إنهم ثبتوا ، كالبيت المبنى على الصخر ، هبت عليه الرياح والأمطار والسيول محاولة أن تجرفه ، فلم تستطع ، لأنه كان صامداً مبنياً على الصخر ، مستمراً فى صموده . وبعكس ذلك كان البيت المبنى على الرمل ، إذ لم يكن له اساس ، لم يستمر فى بقائه وسقط ...

ومثال ذلك أيضاً : الزرع الذى لم يكن له أصل ، فجف (متى ١٣ : ٦) .



ليس له أصل

مثل إنسان يبدأ الطريق الروحى ، ويظهر قليلاً ، ثم ينزوى ويبعد ، كالنبات الذى ظهر على وجه الأرض ، وإذا لم يكن له أصل جف ...

فما معنى عبارة « وإذ لم يكن له أصل » ؟

مثالها إنسان أقدم إلى الحياة الروحية نتيجة هزة معينة ، أو تأثر مؤقت بحادث أو بعظة ، أو بقراءة معينة ، أو نتيجة لمشكلة حاقت ، فقال يارب «إن أنقذتنى سأتبعك كل حياتى » . وأنقذه الله ، فتبعه ، ولكن إلى حين ... وإذ لم يكن له أصل جف . فما هو الأصل ؟

الأصل هو حياة الإيمان العميقة ، وحياة الحب الحقيقية .

هو العلاقة الشخصية مع الله ، والعشرة ، والمعرفة . وليست مجرد الممارسات الخارجية التى لا تنبع من القلب . فالإنسان الذى حياته مجرد ممارسات بدون حب ، لا يمكن أن يستمر ...

فتاة مثلاً ، سمعت عظة عن الحشمة والأزياء والزينة ، فتأثرت وبدأت تغير مظهرها الخارجى . ولكنها من الداخل لم تتغير . لم تدخل إلى قلبها محبة الله فتغيره . لم تتأسس فى داخلها العفة الحقيقية ، والزهد فى العالميات ، والسعى إلى الأبدية . وهكذا قد تستمر مدة فى مظهر الحشمة ، ولكنها لا تستمر ... وإذ ليس لها أصل تجف ...

أو شاب يقص شعره الطويل ، متأثراً بما يسمعه من تدريبات روحية فى بداية عام

جديد. وليس عن اقتناع داخلى بتفاهة هذا المظهر، وببناء الرجولة على أسس سليمة... هذا الشاب قد يبقى هكذا فترة. ثم يطول شعره، فلا يجد دافعاً لتقصيره... و ينتظر إلى بداية عام جديد آخر، أو مناسبة روحية أخرى.

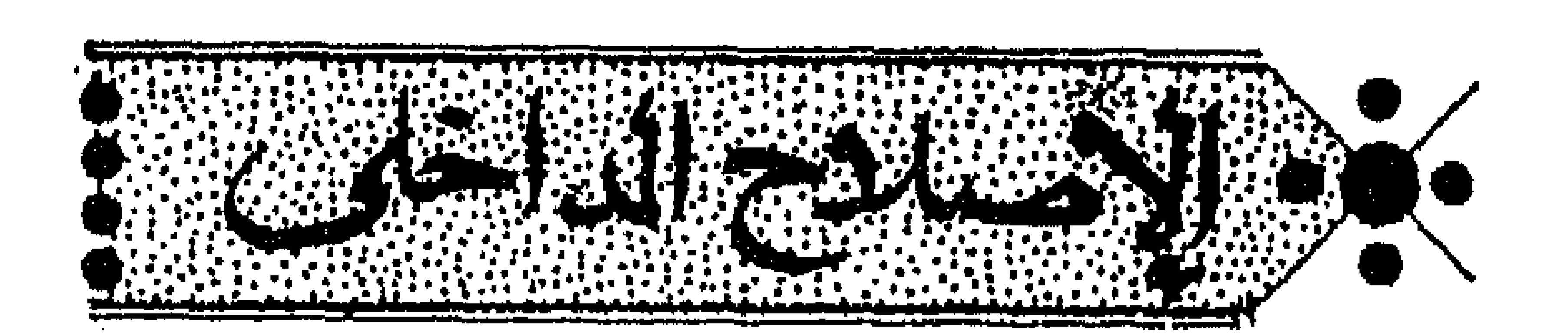
وهكذا يصبح التدين عند أمثال هؤلاء، تدين مناسبات.

ليس له أصل قوى، وليس نابعاً من القلب عن إيمان وحب، وإنما هو مجرد تأثرات وقتية، وانفعالات تزول بعد حين... فهى مثل بيت مبنى على الرمل، بدون أساس.

إذن لكى يثبت الإنسان، لابد من أسس روحية توضع داخل القلب وترسخ فيه.

ولهذا فإن الروحيات لا تأتى ولا تستمر، نتيجة لأوامر واجبة الطاعة من أب أو أم أو مرشد أو رئيس. إنها تحتاج إلى تكوين علاقة روحية مع الله، علاقة تبدأ داخل القلب، أساسها الإيمان بحياة الروح، وبأهمية الأبدية، وبوجوب تكوين علاقة حب مع الله، حب ثابت وليس مجرد مظاهر أو ممارسات.

إنها تبدأ بإصلاح الذات من الداخل.



إنسان مثلاً دائماً يغضب، و يثور، و يعلو صوته، و يسىء إلى غيره، و يفقد أعصابه. يقول لنفسه وهو نادم «لابد أن أدرب نفسى على ترك الغضب». و يبدأ التدريب بالفعل، ولكنه لا يستمر «إذ ليس له أصل». فكيف إذن يتخلص من الغضب، بطريقة يبحث فيها عن الأصل، و يصلحه؟

عليه أن يبحث عن أصول هذه الخطية فى داخله، ويعالجها.

ربما يكون سبب الغضب كبرياء داخلية لا تحتمل كلمة معارضة أو كلمة توجيه أو نقد. ربما يكون السبب حبه للكرامة والمديح، أو رغبته فى تنفيذ رأيه أياً كان أو تنفيذ

رغباته . أو قد يكون سبب غضبه كراهية لإنسان ما أصبح لا يحتمل منه كلمة ... أياً كان السبب ، عليه أن يعالجه فى داخله أولاً ، وحينئذ يمكنه أن ينجح فى تداريبه ...

إذن علينا باصلاح الأسباب ، وليس مجرد الأعراض .

مريض ارتفعت درجة حرارته ، أيمكنك معالجته بكمادات ثلج ، أو باسبرين ؟! أم يجب البحث عن السبب الذى أدّى إلى ارتفاع درجة الحرارة ومعالجته ... ؟ ربما كان السبب إلتهاباً فى اللوز، أو بؤرة صديدية فى أحد أعضائه ، أو حمى . ويحتاج الأمر إلى علاج داخلى ، لا تصلح معه المحاولات الخارجية للتخلص من الأعراض ...

لا يكن اصلاحكم لأنفسكم مجرد اصلاح خارجى ، للمظاهر ...

إنما اصلحوا القلب من الداخل . اصلحوا الأسباب الحقيقية التى تنبع منها الخطية . وحينئذ يمكن لتوبتكم أن تستمر، ويمكن لممارساتكم الروحية أن تستمر، لأن لها أصلاً ثابتاً داخل القلب ... وهكذا قال الرب لملاك كنيسة أفسس «اذكر من أين سقطت ، وتب» (رؤ٢ : ٥) .

ولذلك فإن الأبرار إن سقطوا ، يقومون بسرعة .

داود سقط ، ولكنه قام بسرعة ، وبقوة ، لأن الأصل من الداخل سليم . وبطرس انكر المسيح ، ولكنه بكى بكاءاً مراً وتاب ، وذلك لأن الأصل سليم ، القلب من الداخل فيه محبة للرب (يو٢١ : ١٦) . الأخطاء بالنسبة إلى هؤلاء القديسين كانت أخطاء عارضة . أما القلب فهو طاهر من الداخل . ولذلك يمكننا أن نقول عن اخطائهم إنها :

كانت خطايا ضعف ، وليست أخطاء خيانة للرب .

وكان هذا هو الفارق الأساسى بين خطية بطرس وخطية يهوذا . بطرس أخطأ عن ضعف . و يهوذا أخطأ عن خيانة . والذى يخطىء عن ضعف ، يقوم بسرعة ، كما قيل «الصديق يسقط سبع مرات فى اليوم و يقوم» (أم٢٤ : ١٦) .

إن محبتك لله ، هى التى تجعلك تتوب وتستمر فى التوبة .

أما محبتك للخطية ، فإنها تجعلك - مهما تبت - ترجع إلى الخطية مرة أخرى وتستمر فيها . إذن سبب الاستمرار هنا أو هناك ، إنما راجع إلى قلبك وإلى أين يتجه ...

فالذى يجعل الصديقين يقومون ، هو القلب المحب لله . وبسبب هذا القلب ، مهما سقطوا ، فإنهم « يجددون قوة . يرفعون اجنحة كالنسور ... يمشون ولا يعيون » (اش ٤٠ : ٣١) .

عمقوا جذوركم فى الحياة مع الله ، مدّوها إلى أسفل ، قبل أن ترفعوا الجزوع والفروع إلى أعلى .

لأن العمق الداخلى هو الذى يسند الارتفاع إلى فوق . مثل راهب يدخل الرهبنة حديثاً . يلح على أب اعترافه لكى يسمح له بأصوام طويلة ، بمئات المطانيات ، بطقس شديد فى الوحدة والصمت ... فيقول له أبوه الروحى : انتظر يا أبنى حتى نهتم بالداخل أولاً . نضع أساساً من التواضع والوداعة واللطف فى معاملة الناس ، والمحبة الحقيقية من نحو الله . وعلى هذا الأساس نبنى ...

اهتم إذن بحياتك كيف تبنيها من الداخل ، قبل أن تبنيها من الخارج .

تبنيها بالعمق ، قبل أن تبنيها بالارتفاع .

تبنيها بتصحيح الدوافع ، قبل أن تبنيها بتغيير المظاهر .

لا يكفى فقط أن تترك الخطية ، إنما بالأكثر ابحث عن اسبابها وتخلص من هذه الأسباب ، حتى لا تقع فيها مرة أخرى . فبهذا يمكنك - إن تبت - أن تستمر فى التوبة . فهكذا قال السيد المسيح « اذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٥) . انزع الأشواك التى تحيط بك ، حتى إذا نما زرعك يستمر نموه ، ولا تخنقه الأشواك .

ادخل إلى أعماقك ، ونظّف وصحح كل ما فيها ...

كثيرون يبدأون حياتهم الروحية بالتغصب ، وبالضغط على ارادتهم ، واجبار النفس أن تسلك فى الطريق الروحى . ونحن لا ننتقد هذا ، فهو لون من الجهاد الروحى اللازم .

ولكن لماذا التغصب ؟ لأن المحبة غير موجودة ...

أنت تغصب نفسك على عمل الفضيلة ، لأن محبة الفضيلة ليست موجودة فى قلبك . فإن وصلت إلى هذه المحبة ، لا يبقى بعد تغصب ، بل تمارس الفضيلة بطريقة تلقائية بدون جهاد . ويمكنك أن تستمر فيها بدون خوف من السقوط .

وأساس هذه المحبة ، هو الذى نريد أن نضعه فى القلب ، لأنه صمام الأمن ...

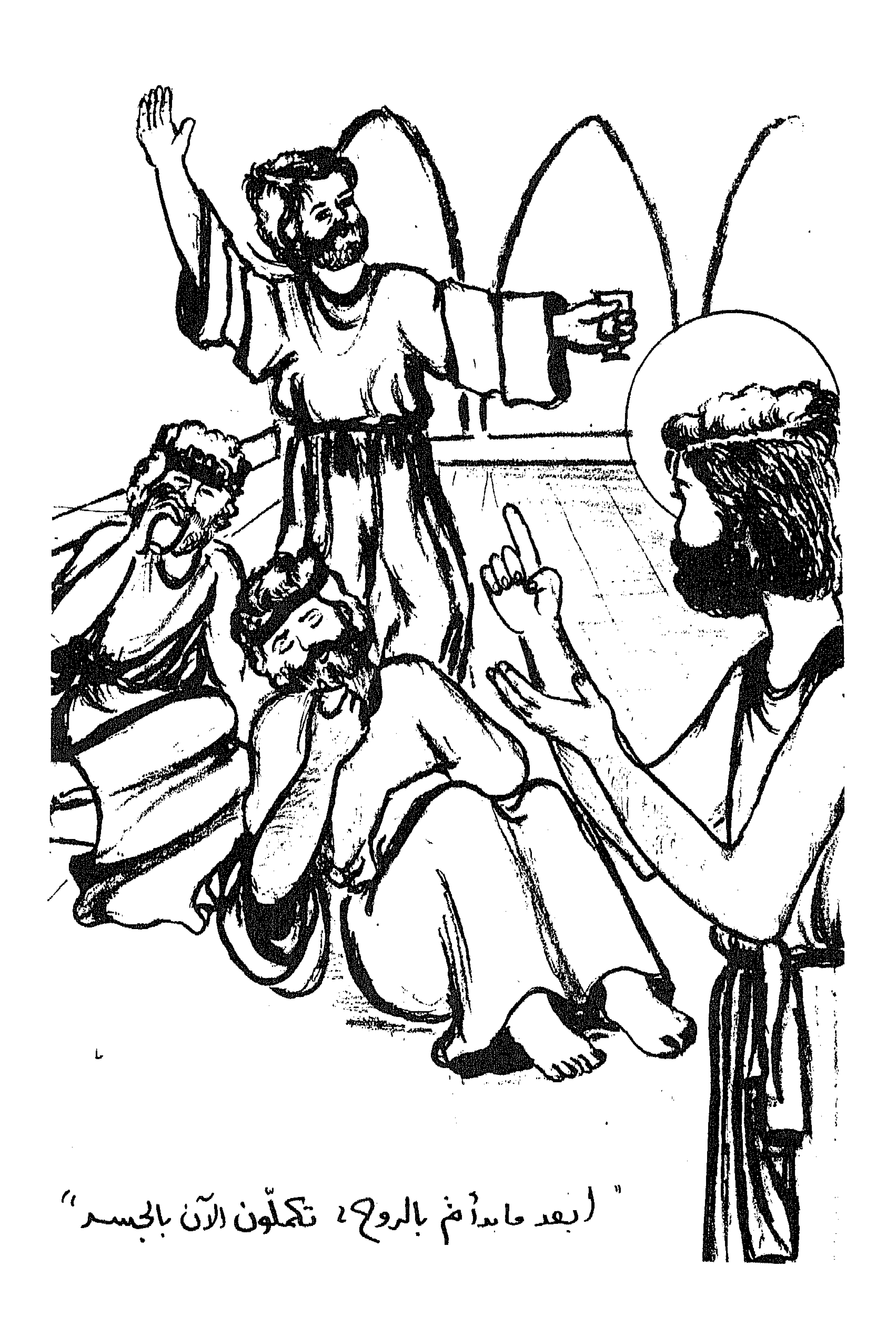
إن العربة التى يكون محركها سليماً ، تسير من تلقاء ذاتها ، لا تحتاج إلى أناس يدفعونها بأيديهم إلى الأمام . إنما داخلها (موتورها) يحركها ...

نصيحتى أن تهتم بداخلك ، لكى تحيا حياة روحية مستمرة . وإن لم تستطع أن تصل إلى المحبة ، اجعل مخافة الله أمام عينيك ، وقل مثلما كان يقول إيليا النبى «حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه» (١مل١٨ : ١٥) . وكلما تحارب بخطية ، قل لنفسك كما قال يوسف الصديق «كيف أعمل هذا الشر العظيم واخطىء إلى الله ؟ » (تك٣٩ : ٩) .

ولا تكن حياتك الروحية هى مجرد حياة مناسبات .

إن كان أسبوع نهضة روحية فى الكنيسة ، تنهض روحك خلاله ، ثم تخبو بعد ذلك . إن كانت هناك مناسبة روحية مثل عيد رأس سنة ، أو يوم تناول ، أو قداس عيد سيدى ، ترتفع روحياتك فى ذلك اليوم ، ثم تعود وتهبط ... دون هدف ثابت ، وخطة روحية ثابتة ... ! لا يليق أن تكون الأمور هكذا . إنما اجعل إيمانك الداخلى بالحياة مع الله ، هو الذى يدفعك باستمرار ، فى كل يوم ، وكل ساعة...

وكلما تبدأ صفحة بيضاء ، احرص أن تحتفظ ببياضها .



"أبعد ما بدأتم بالروح، تكمّلون الآن بالجسد"

الفصل الثالث

مخافة الله والتغصب

محبة الله ومخافته .

فوائد المخافة .

أسباب عدم المخافة .

تداريب .

كيف نبدأ .

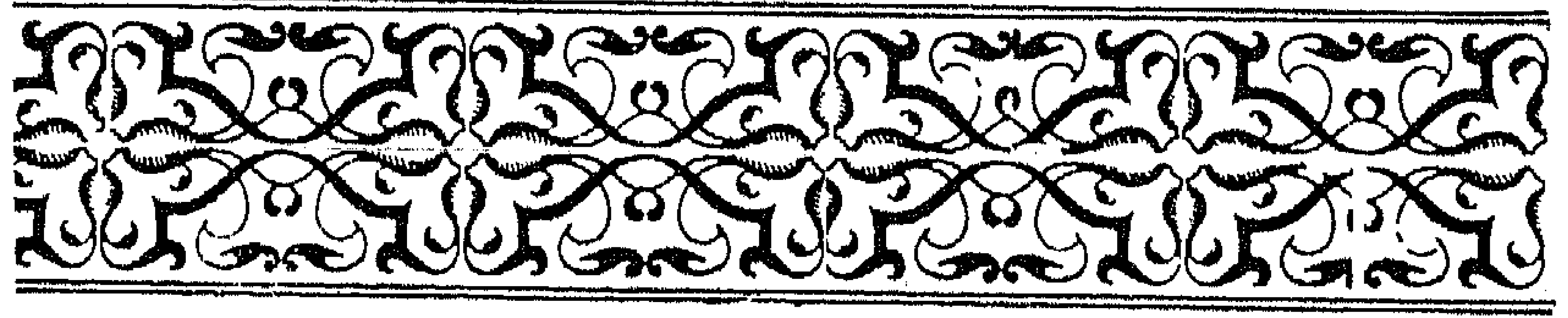
التغصب ولزومه .

التغصب والنمو .

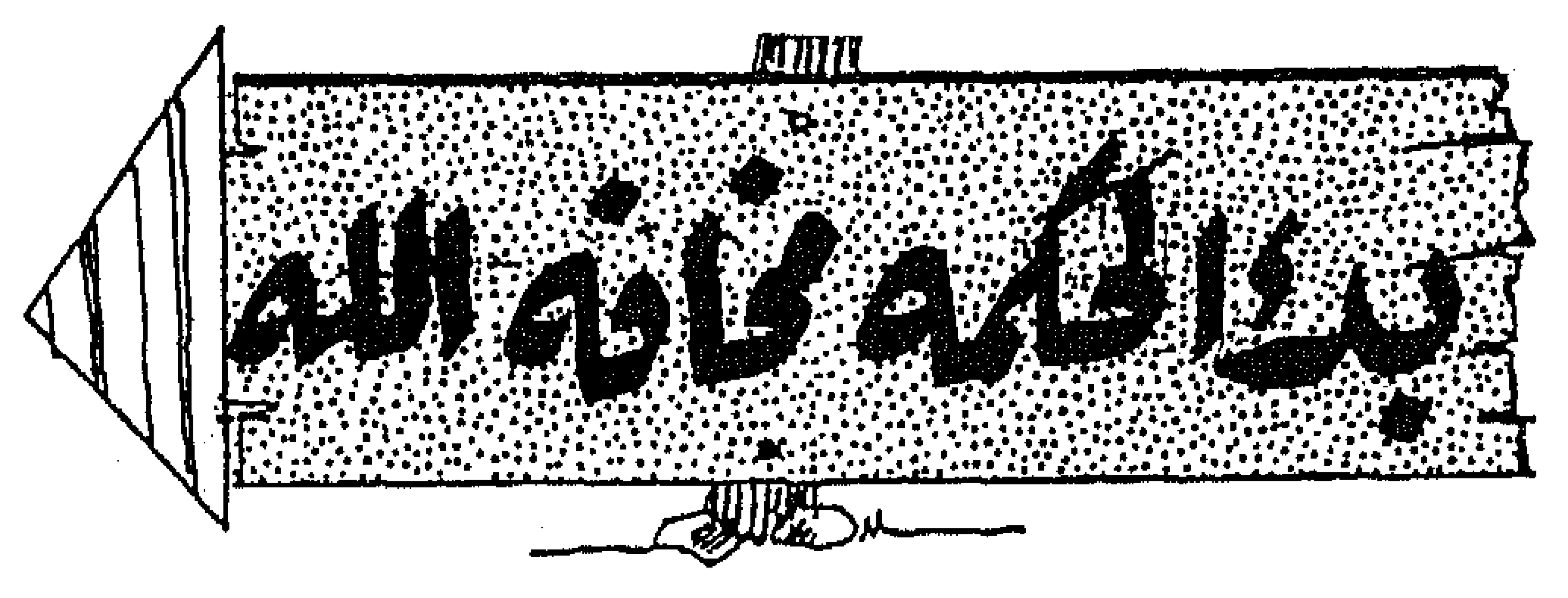
التغصب فضيلة مرحلية .

فوائد التغصب .

نصائح وتداريب .







نشكر الله الذى منحنا أن نعرف الطريق الروحى الذى يوصلنا إليه. كما وضع لنا علامات الطريق نستدل بها حتى لا نضل.

وقد جعل للطريق الروحى خطوات منتظمة. كل واحدة منها توصل إلى الأخرى. والكل يقود خطانا إلى الهدف الوحيد الذى هو الله.

فما هى نقطة البدء فى الطريق الروحى إنها مخافة الله حسب قول الوحى الإلهى مرتين: بدء الحكمة مخافة الله (أم ٩ : ١).
رأس الحكمة مخافة الله (مز ١١١ : ١٠).



ولكن البعض قد لا يروقهم الحديث عن مخافة الله. وقد اعتادوا أن نكلمهم باستمرار عن محبته. وفى الواقع أن محبة الله لا تتعارض مطلقاً مع مخافته. إنما هى درجة أعلى منها تجتازها ولكن تظل محتفظة بها.

تماماً مثل تلميذ وصل إلى المرحلة الجامعية. واجتاز مرحلة القراءة والكتابة والحساب. ولكنه لا يزال محتفظاً بهذه المعلومات لا يستغنى عنها.

ولكن الذين يهربون من مخافة الله يحتجون بقول القديس يوحنا الرسول.

«لا خوف فى المحبة. بل المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» (١يو٤ : ١٨).

وللرد على هذا نقول: من منا قد وصل إلى هذه المحبة الكاملة؟! المحبة التى تحب بها الرب من كل قلبك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك «تث ٦ : ٥) (متى ٢٢ :

٣٧) المحبة التى تملك كل مشاعرك حتى ما تعود تحب شيئاً فى العالم موقناً أن «محبة العالم عداوة لله» (يع ٤ : ٤) وأنه «إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب» (١يو٢ : ١٥).

هل وصلت إلى هذه الدرجة؟ وهل وصلت إلى الحب الإلهى... الذى يجعلك تصلى كل حين ولا تمل (لو١٨ : ١)، بل تصلى بكل عواطفك وأنت فى عمق الحب وعمق التأمل؟

إن وصلت إلى هذه الدرجة فلن تخاف، لأن حبك الكامل لله يطرح الخوف إلى خارج.

أما إن كنت لم تصل إلى المحبة الكاملة. فلا تدعيها لنفسك. ولا تنسب نتائجها الروحية إلى مستواك.

إن كنت لا تزال تخطىء وتسقط وتبتعد أحياناً عن الله. فلا تنسب إلى ذاتك المحبة الكاملة. وإن كنت تفتر أحياناً فى روحياتك. ولست عميقاً فى صلواتك وتأملاتك. فلاشك أنك لم تصل بعد إلى المحبة الكاملة ويفيدك جداً أن تعيش فى المخافة.

وثق أن مخافة الله هى الطريق الذى يوصلك إلى المحبة.

إن كنت تخاف الله، فسوف تخاف أن تخطىء لكى لا تتعرض لعقوبة الله ولغضبه... وسوف تخاف من السقوط، لأن الخطية تفصلك عن الله وملائكته، وتفصلك عن الملكوت ومجمع القديسين.

لذلك فإن مخافة الله تدفعك إلى حفظ الوصايا... وكلما سلكت فى طريق الله، ستشعر يقيناً بلذة فى الحياة الروحية، وتفرح بوصايا الله كمن وجد غنائم كثيرة (مز١١٩). وتفرح بالقائلين لك إلى بيت الرب نذهب وسوف تفرح بهذه الحياة الروحية. وتقول للرب «محبوب هو إسمك يارب فهو طول النهار تلاوتى» (مز١١٩ : ٩٧).

وهكذا تنتقل تدريجياً من المخافة إلى المحبة، ثم تنمو فى المحبة حتى تصل إلى المحبة الكاملة، فيزول الخوف.

إن الله الذى خلق طبيعتنا ، والذى يعرف ضعفنا وميلنا للسقوط ، كما يعرف قدرة عدونا الشيطان الذى يجول كأسد يزأر ملتمساً من يبتلعه هو (١بط ٥ : ٨) ... إلهنا هذا يعرف تماماً مقدار الفوائد الروحية التى تكمن فى المخافة . لذلك قدم لنا هذه الفضيلة حتى ننتفع بها . وحتى نتدرج منها إلى المحبة تدرجاً طبيعياً سهلاً ، ثم ننمو فى المحبة .

فما هى الفوائد الروحية لمخافة الله ؟

أولاً : هى حصن من السقوط .

إنها رادع لنا يمنعنا من ارتكاب الخطية . فإن سقطنا ، تكون مخافة الله حافزاً لنا على التوبة .. نقول هذا لأن كثيرين من الذين قفزوا إلى محبة الله ـ دون أن يعبروا على مخافته ...

وأصبح كلامهم كله عن الله المحب العطوف المتأنى ، الذى لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا (مز١٠٣ : ١٠)... هؤلاء لم يفهموا المحبة فهماً سليماً . ولأنهم لم يتعودوا المخافة ، قادهم هذا إلى الاستهانة والاستهتار وعدم الإهتمام بالوصية ، وبالتالى إلى السقوط .

فما هى المحبة إذن ؟ إنها ليست مجرد مشاعر . فالرب يقول : من يحبنى يحفظ وصاياى (يو١٤ : ٣) .

والقديس يوحنا الرسول الذى قال إن المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج ، هو نفسه الذى قال فى نفس رسالته « لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق » (١يو٣ : ١٨) .. فما هى هذه المحبة العملية ؟ إنه يقول « إن هذه هى محبة الله أن نحفظ وصاياه » (١يو٥ : ٣) .. طبعاً نحفظها عن حب .. ولكن هذه درجة عالية ، يسبقها أن نحفظ الوصايا عن طريق المخافة ..

وطبيعة الناس هكذا : لم يولدوا قديسين ، بل جاهدوا بمخافة الله ، وبالتغصب وقهر النفس ، حتى وصلوا إلى المحبة . وهكذا يقول القديس بولس الرسول :

« **مكملين القداسة فى خوف الله** » (٢كو٧ : ١) . وكيف نكمل القداسة فى خوف الله ؟ وكيف نطيع أيضاً القديس بطرس الرسول فى قوله « سيروا زمان غربتكم بخوف » (١بط ١ : ١٧) .

يبدأ الإنسان حياته الروحية بالحرص الشديد من السقوط فى الخطية ... يخاف من العثرات ومن الاغراءات ومن حروب الشياطين، وغير مغتر بقوته ومقاومته، واضعاً أمامه قول الرسول :

« لا تستكبر بل خف » (رو ١١ : ٢٠) .

وهو أيضاً يخاف أن يغضب الله، و يضع أمامه قول السيد المسيح له المجد « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد .. بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (متى ١٠ : ٢٨) . « نعم من هذا خافوا » (لو ١٢ : ٥) .

هذا هو الخوف من عقوبة الله، يبدأ به الإنسان، وقد يستمر معه طول الحياة .. وقد قال أحد الآباء : أخاف من ثلاثة أوقات :

وقت خروج روحى من جسدى، ووقت وقوفى أمام منبر الله العادل، ووقت صدور الحكم علىّ ...

ولاشك أن هذه الأوقات الثلاثة مخيفة لكل إنسان، إلا للذين عاشوا فى محبة الله الكاملة، وتمتعوا بعشرته المقدسة فى أعماقها، ولم يعد ضميرهم يبكتهم على شيء .

أما الذى يخشى أن ينكشف فى حياته شيء يوم تفتح الأسفار، فهذا لابد أن يخاف .

والخير أن يخاف الإنسان ههنا، من أن يخاف فى يوم الدين ...

لأن خوفه ههنا، إنما يقوده إلى التوبة وإلى الصلح مع الله إن اراد .

أما ذلك الخوف فى يوم الدين، فإنه خوف خرج عن حدود الإرادة البشرية .

الخوف ههنا يعطينا حياة الخشوع، وحياة الدموع، و يعطينا الإرادة فى الرجوع . و يكون سياجاً لنا فى الطريق حتى لا ننحرف ... ونحن نقول فى صلاة الشكر « امنحنا أن نكمل هذا اليوم المقدس وكل أيام حياتنا، بكل سلام مع مخافتك » .

عجيب أن أشخاصاً يخافون من الناس، ولا يخافون الله ..

يخافون أن يخطئوا أمام الناس لئلا يصغر قدرهم فى أعينهم . ويخافون أن تنكشف

خطاياهم أمام الناس. خوفاً من الفضيحة. ولكنهم مع ذلك يرتكبون أية خطية أمام الله بلا خوف مادام الأمر فى خفية عن الناس.

إنهم يستغلون طيبة الله ومحبته!

و يستغلون إيمانهم برحمة الله وحنوه وتسامحه ومغفرته وقلبه الواسع الذى غفر للزانية وللناكر... و يقودهم هذا للأسف الشديد إلى التساهل فى كل حقوق الله عليهم! و يعيشون فى حياتهم الروحية بلا جدية و بلا التزام!

وكأن الله إن كان لا يعاتبنا، ولا يعاقبنا، فلا اهتمام من جانبنا.. ونصل بهذا إلى اللامبالاة...

إن المحبة الكاملة التى تطرح الخوف هى للقديسين الكبار، وليس للمبتدئين فى التوبة أو المقصرين فى روحياتهم.

لذلك عش فى مخافة الله، ولا تقفز قفزاً إلى المحبة، بطريقة نظرية تدعى فيها ما ليس لك.. ولا تحتقر مخافة الله كدرجة بسيطة لا تصلح لك!

إنما ثق تماماً أنك إذا كنت أميناً فى القليل الذى هو المخافة. فسيقيمك الله على الكثير الذى هو المحبة. إذن سر فى حياتك الروحية بنظام يوصلك إلى الله. و بخطوة سليمة تقودك إلى خطوة أخرى بطريقة عملية. دون اشتهاء لمظهرية لها صورة الروحانية ولا توصلك!

إن قمة الحياة الروحية هى حقاً المحبة الكاملة. ولكنك لا تبدأ بالقمة. إبدأ بالمخافة. حينئذ تصل إلى القمة دون أن تعثر. و بخاصة فى هذا الجيل المستهتر الذى كثرت فيه الخطية والذى كثرت فيه الشكوك والعثرات. والذى يوجد فيه من ينكرون وجود الله ومن يجدفون عليه.. ومن ينتقدون وصاياه و يسخرون ببعضها. و يتذمرون على الله أحياناً ويخاصمونه!!

الذى فيه مخافة الله يتقدم كل يوم لأنه يخاف عدم الوصول إلى هدفه.

أما الذى ليست فيه مخافة الله فإنه ينحدر كل يوم إلى اسفل...

الذى يخاف الله يرى طريق الكمال طويلاً جداً أمامه: فيحاول بكل جهد أن

يصل. مثل تلميذ يجد أمامه مقرراً طويلاً لم يحصل منه عشره، فيخاف أن يدركه الامتحان دون أن ينتهى منه.. و يدفعه الخوف إلى مزيد من الجهد.

ونحن أمامنا منهج روحى طويل - يتلخص فى كلمتين القداسة والكمال - قال لنا الرب « كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) وقال أيضاً « كونوا قديسين ».. فمن منا وصل إلى هذا المستوى. لذلك نخاف أن يدركنا الموت ولم نصل. و يدفعنا الخوف إلى الجهاد...

لماذا إذن لا نسلك فى مخافة الله؟ هناك أسباب نذكر منها:

لا يخاف الإنسان الذى لم يفحص ذاته بعد، ولم يعرف حقيقته وماضيه، وخطاياه وضعفاته. ولم يعرف المستوى الروحى المطلوب منه، وما يلزمه من سعى ومن جهد.

كذلك لا يخاف الذى لا يضع الدينونة أمام عينيه. لذلك تذكرنا الكنيسة بهذه الحقيقة كل يوم فى قطع صلاة النوم، وفى قطع صلاة نصف الليل، حتى نستيقظ من غفلتنا فى الحياة.

كذلك لا يخاف الإنسان الذى تجرفه - دوامة العالم - فلا يعلم أين هو؟!

يلفه العالم فى طياته، و يغرقه فى لججه، ويجره فى مشغوليات لا تحصى بحيث لا يُبقى له وقتاً يفكر فيه فى مصيره، أو وقتاً يفكر فيه فى روحياته.

وقد يقع فى عدم المخافة، لأن الأوساط الخارجية التى تؤثر عليه ليست فيها مخافة الله فتساعده على السير بنفس الأسلوب.

والذى لم يصل إلى المخافة بعد، كيف يمكنه أن يصل إلى المحبة؟!

بل وكيف يمكنه أن يصل إلى المحبة الكاملة التى تطرح الخوف إلى خارج؟!

إننا لا نخاف لأننا لا نضع الله أمام أعيننا، فننساه وننسى وصاياه كما قال المزمور عن الخطاة « لم يسبقوا أن يجعلوا الله أمامهم ».

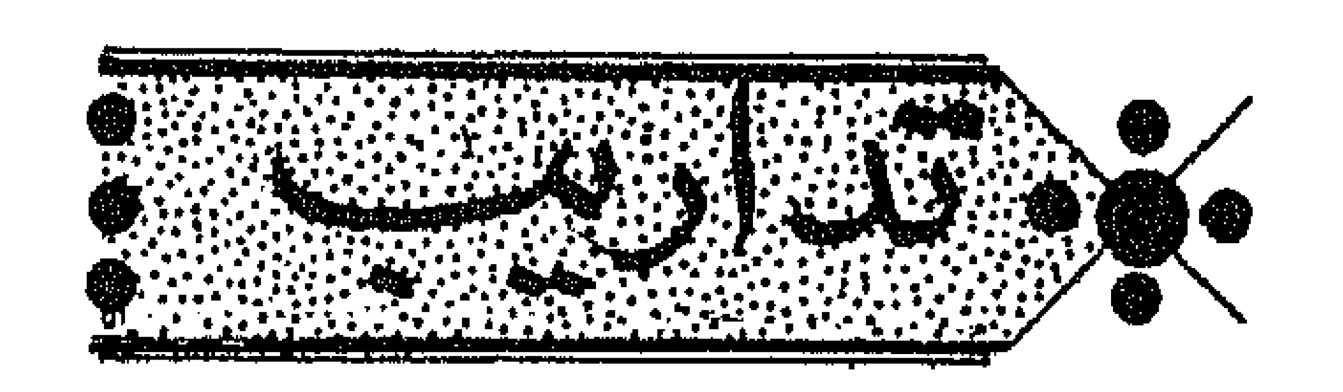
وكذلك لأننا نفكر فى هذا العالم الحاضر... ولا نفكر مطلقاً فى العالم الآخر وفى الدينونة. لذلك حسناً قال الكتاب إن القديس بولس الرسول لما تكلم عن البر

والدينونة والتعفف، ارتعب فيلكس الوالى (أع ٢٤ : ٢٥).

كذلك نصل إلى مخافة الله إن تذكرنا قول الرب لكل واحد من رعاة كنائس آسيا «أنا عارف أعمالك» (رؤ ٢، ٣».

هذه كلها أسباب تمنع المخافة.

ولكن هناك تداريب تساعدنا على أقتناء مخافة الله :



١ - حاول أن تخاف الله . على الأقل كما تخاف الناس .

الشيء الذى تخاف أن تعمله أمام الناس، لا تعمله أمام الله .

والفكر الذى تخاف أن يعرفه الناس أو تخاف أن ينكشف عندما تفيق من التخدير، هذا لا تفكر فيه أمام الله الذى يقرأ كل أفكارك و يفحصها .

وأعلم أن كل أفكارك ستنكشف أمام الخليقة كلها فى اليوم الأخير، إلا التى تبت عنها ومحيت .

والخطايا الخفية التى تخجل من ارتكابها أمام الناس، فتعملها فى الظلام، حاول أن تخجل منها أمام الله الذى يراها .

لتكن لله هيبة تجعلك تستحى منه ومن ارتكاب الخطية أمامه .

اتخاف الناس، ولا تخاف الله الذى خلق هؤلاء الناس من تراب . لهذا اسلك أمام الله فى استحياء . واعرف أنه ينظرك و يسمعك فى كل ما تفعله .

كذلك احتفظ بهيبة كل ما يتعلق بالله وكل ما يخصه .

قف فى صلاتك بكل توقير وخشوع لكى تدخل مخافة الله فى قلبك... وتذكر أنك تقف باحترام أمام رؤسائك .

فكيف لا تكون كذلك أمام الله أيضاً أعط هيبة لكتاب الله : فلا تضع شيئاً فوقه ، ولا تطالعه بغير احترام . وتذكر أن الشماس يصيح فى الكنيسة قائلاً « قفوا بخوف من الله وانصتوا لسماع الانجيل المقدس » .

وإن كنت تهاب كلام الله ، فسوف تهاب الله نفسه .

استح من ملائكة الله القديسين الذين حولك ، يرونك و يسمعونك .

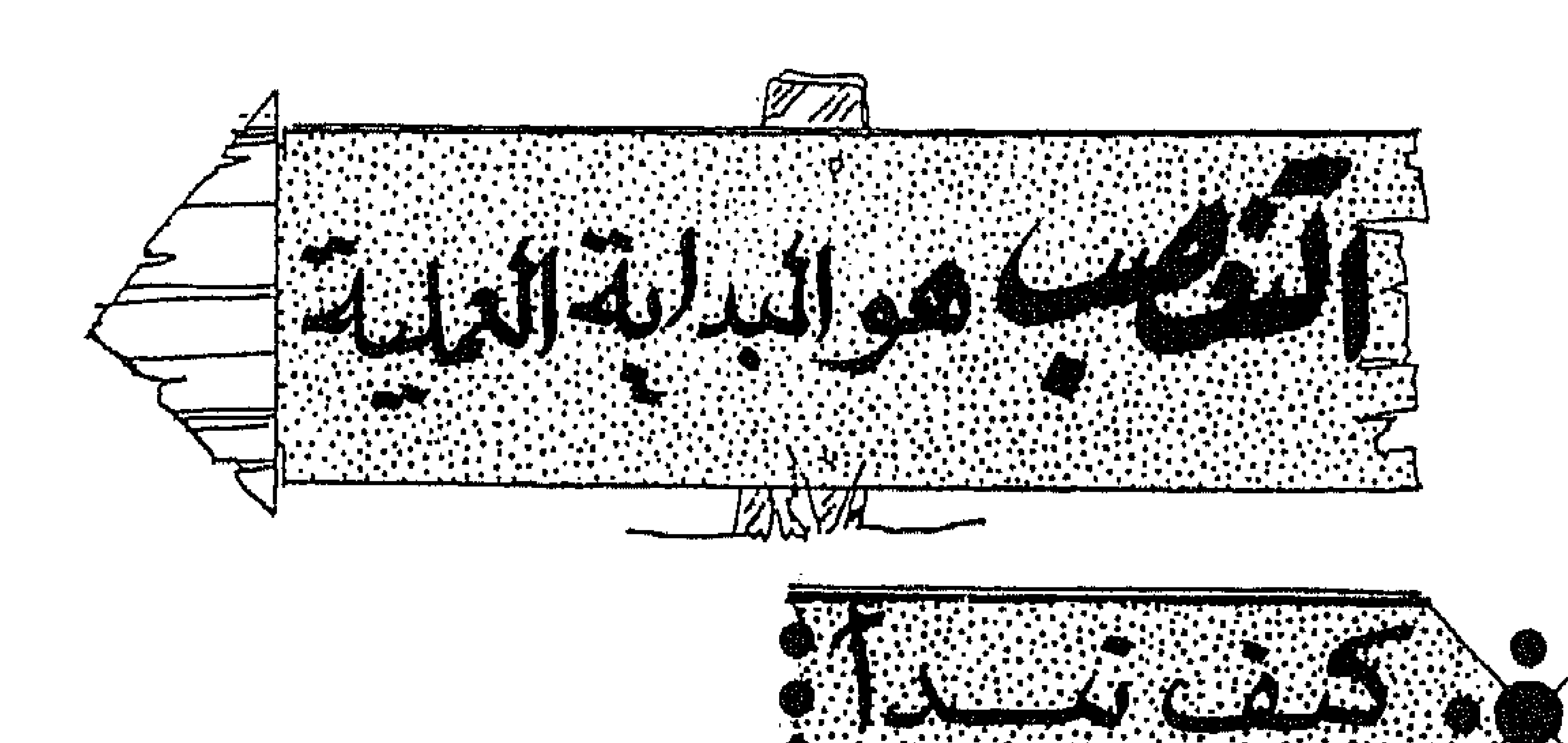
واعرف أن أخطاءك البشعة تفصلك عن عشرة الملائكة فينصرفون عنك ، و يتركونك إلى اعدائك المحاربين لك . وعليك أن تخاف من هذا جداً . كذلك استح من ارواح القديسين الذين يرونك فى الخطية ، هم وأرواح معارفك ، واصدقائك بل واعدائك الذين انتقلوا .

اسلك فى مخافة الله لتصل إلى محبته .

وتذكر قول الرسول « احبوا الأخوة ... خافوا الله » (١بط ٢ : ١٧) . وقول الملاك فى سفر الرؤيا « خافوا الله ، واعطوه مجداً » (رؤ١٤ : ٧) .

واعلم أن مخافة الله موجودة فى العهد الجديد ... كما فى العهد القديم ومحبة الله موجودة فى العهد القديم كما فى العهد الجديد .

ها قد حدثتك باختصار عن مخافة الله ... ولكنها موضوع طو يل ارجو أن اضع لك فيه كتاباً إن شاء الله ...



يختلف كثير من المرشدين الروحيين فى تعريف ما هى الفضيلة التى تعتبر بداية للطريق الروحى.

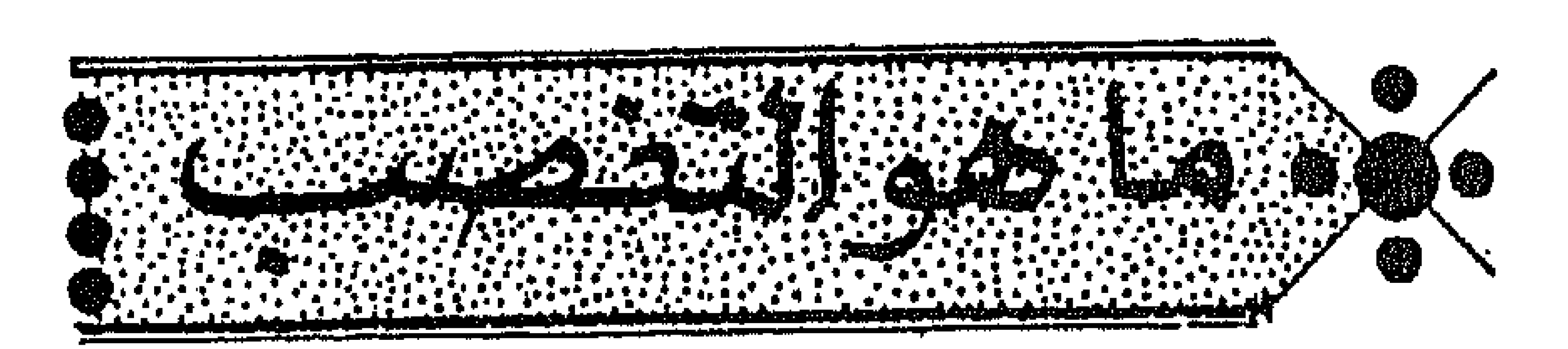
فالبعض يقول إنها التوبة. لأن التوبة هى نقطة التحول فى حياة الإنسان. يترك بها الماضى بكل أخطائه و يبدأ علاقة مع الله.

والبعض يقول إن نقطة البداية التى تسبق التوبة هى جلسة مع النفس ومحاسبتها. و بهذا بدأ القديس أوغسطينوس والإبن الضال.

والبعض يقول إن بداية الطريق وأساس الفضائل كلها. هو التواضع وانسحاق القلب. وهو الذى يقود إلى التوبة ويحفظها مستمرة.

والبعض يقول إن بداية الطريق الروحى هى المعرفة. وتأتى بخدمة الكلمة. و بها تنكشف للإنسان مبادىء وقيم. هى التى تؤثر على مفاهيمه وعلى مشاعره، فيبدأ طريقاً جديداً يوصله إلى محاسبة النفس وإلى التوبة وإلى انسحاق القلب والتواضع.

ولكن بعض القديسين يقولون إن المعرفة والجلوس مع النفس والتأثرات، كلها أمور نظرية، وقد تكون خارجية. ولكن الطريق العملى، حتى داخل حياة التوبة، هو التغصب أو الجهاد الروحى.



ما هو التغصب

التغصب، هو أن يغصب الإنسان نفسه على السير فى الطريق الروحى .

حقاً إن الحياة الروحية بمعناها السليم ، هى أن الإنسان يحب الله ويحب الخير ويحب الملكوت السماوى ، و يسلك فى حياة البر والنقاوة بكل رضى القلب ، و يشعر بأن عشرته مع الله هى ملء السعادة وشهوة قلبه ..

ولكن هل كل الناس يبدأون بهذا المستوى ؟ كلا ، بلا شك .

محبة الله قد تكون نهاية الطريق . أو قمة العلاقة مع الله . وليست هى نقطة البدء . إنما قد يبدأ بالمخافة .. وكما قال الكتاب « بدء الحكمة مخافة الله » (أم ٩ : ١٠) .

يستيقظ الإنسان إلى نفسه ، فتبدأ مخافة الله تدخل إلى قلبه ، فيخاف من دينونة خطاياه ومن غضب الله ، ويخاف أن يأتيه الموت وهو غير مستعد له .

وهذا الخوف يدعوه إلى أن يغير طريقه .

ولكن كيف يغير طريقه ؟

يغيره بالتغصب . لأن محبة الله لا تكون قد ملكت على قلبه منذ البداية . وهكذا يكون التغصب هو نقطة البداية العملية فى الحياة الروحية .

إنسان دخل جديداً فى الطريق الروحى . لم يتدرب بعد على الصلاة ولم يتعود المكوث فيها طويلاً ، وليست له المشاعر الروحية التى تساعده على صلاة الحب، والعاطفة والخشوع والتأمل .

ولكنه يغصب، نفسه على الصلاة وإن حورب بانهائها يغصب نفسه على الإستمرار فيها .

يشعر بالليل أنه مثقل بالنوم : وأنه متعب جسدياً ، وليست لدية قوة على الوقوف للصلاة ، وليست له رغبة فى ذلك . ولكنه يغصب نفسه على ذلك واضعاً أمامه قول ماراسحق :

اغصب نفسك على صلاة الليل . وزدها مزامير.

يغصب نفسه على الصلاة ، وعلى الوقوف أو الركوع أو السجود . و يغصب نفسه على رفع يديه إلى فوق ، وعلى تركيز حواسه فى الصلاة وتركيز فكره أيضاً ، مانعاً إياه من الشرود والسرحان .



قال أحد الآباء : لو انتظرت إلى أن تصل إلى الصلاة الطاهرة . ثم بعد ذلك تصلى . فإلى الأبد ما تصلى .

وذلك لأن الصلاة الطاهرة ليست هى نقطة البدء ، إنما هى قمة العمل الروحى .

أما أنت ، فاغصب نفسك على عمل الصلاة ، حتى لو كانت صلاة مثقلة بالنوم ، أو شاردة فى الفكر ، أو بدون تأمل ...

ربما ينظر الله إلى تعبك وجهادك وصبرك واصرارك . و يشرق عليك بنعمته . أو يرفعك درجة إليها ...

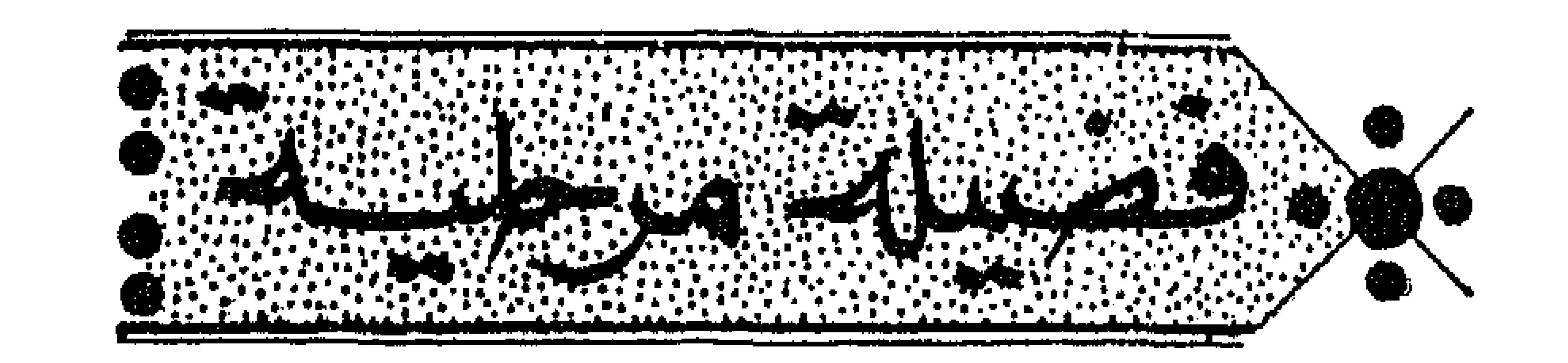
ونفس الوضع نقوله بالنسبة إلى كل فضيلة من الفضائل ...

قد لا تبدأ ممارسة الصوم بمحبة للصوم و واشتياق إلى الجوع ، ولكنك تبدأ بأن تغصب نفسك على ذلك .

وقد لا يكون لك اشتياق إلى قراءة الكتاب المقدس والتأمل فى كلماته ، ولكنك تغصب نفسك على القراءة .

و بالمثل تغصب نفسك على التوبة . وعلى الاعتراف . وعلى حضور الاجتماعات الروحية . كما تغصب نفسك على التسامح وعلى دفع العشور. وعلى تقديس يوم الرب . وضبط اللسان ، وضبط الحواس .

وهكذا أيضاً فى الصمت ، وضبط الفكر. بل إنك إن لم تستطع أن تغصب نفسك على مقاومة أخطاء اللسان ، فإنك تصلى قائلاً «ضع يارب حافظاً لفمى ، و باباً حصيناً لشفتىَّ» (مز ١٤١ : ٣) .



فضيلة مرطية

ولكن، لعل سائلاً يسأل .

وهل يقبل الله الفضيلة التي بتغصب وهى خالية من الحب ؟!

أقول أولاً : إنها ليست خالية من الحب . فلولا الحب ما كنت تفعلها . ولكنه حب مبتدىء، تقاومه عادات النفس القديمة، وتقاومه ارتباطات بالمادة والجسد، وتقاومه محاربات الشياطين ومعطلات عديدة ...

والله يقبل هذا التغصب باعتباره لوناً من الجهاد الروحى . ومحاولة لقهر النفس ...

وقد قال سليمان الحكيم « من يملك نفسه، خير ممن يملك مدينة » (أم١٦ : ٣٢) .

والله يعرف تماماً أن العمل الروحى ليس سهلاً على المبتدئين، كما يعرف أيضاً ما يقابله من حسد الشياطين، ومن مقاومتهم . ولعله من أجل غصب النفس على السير فى الطريق الروحى، قال الرب :

« ادخلوا من الباب الضيق ... ما أضيق الباب وأكرب الطريق . الذى يؤدى إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه » (متى٧ : ١٣، ١٤) .

ولكن الباب لا يستمر ضيقاً على طول الخط . إنما يكون فى أوله . وكلما يمارس الإنسان العمل الروحى يجد فيه لذة، ويجد فيه حياة جديدة تجذبه إليها . فيكمله فى حب، و يسعى إليه فى اشتياق قلب ...

وهكذا قد يبدأ الصلاة بتغصب وإذ يجد لذة روحية فى الصلاة . يمارسها بعد ذلك بشوق وحب .

ولكن الشيطان يهزأ بالتغصب، ويحاول أن يتخذه وسيلة لابطال العمل الروحى .. !

يقول لك : هل من الأدب الحديث مع الله ، أن تصلى هكذا بتغصب ؟! أين الحب الذى قال عنه داود النبى « باسمك أرفع يدى ، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم » (مز٦٣) .

وحينئذ يدعوك أن توقف هذه الصلاة احتراماً لمثاليات الصلاة النقية المملوءة حباً وخشوعاً !! ومن المحال أن تبدأ بالكمال ...

المهم عند الشيطان أن يوقف صلاتك وبالمثل يوقف كل عمل روحى تعمله . وهو خلال ذلك يتهكم على هذا التغصب الذى ربما يكون هو السبب فيه ...

أما الله فإنه يرى الحروف التى يتلفظها الطفل بلا معنى ، هى أولى درجات الكلام فى طريقه إلى الكمال .. ويرى تحركات الطفل المتعثرة هى أول الخطوات فى السير المنتظم والسريع .

إن ابطال العالم فى القفز وفى الجرى وفى السباحة بدأوا طفولتهم بحركات متعثرة . ثم تدرجوا نحو الكمال .

لهذا نحن لا نحتقر التغصب ولا يحقره الله ، بل يشجعه ، لكى ينمو ، ويسعى نحو الحب الإلهى ... المهم أن التغصب لا يبقى تغصباً ، إنما يكون مجرد خطوة تتحرك إلى أفضل ..

لنأخذ مثالاً فى التغصب الذى يتدرج إلى الحب .. العطاء .. يقول الكتاب المعطى المسرور يحبه الله (٢كو٩ : ٧) .

فهل تمتنع عن العطاء . حتى تصل إلى درجة المعطى بسرور . أو المعطى بسخاء (رو١٢) وما ذنب الفقير أو المحتاج لعطائك . وأنت لم تصل بعد إلى هذه الدرجة ؟!

الوضع السليم أنك تعطى ، ولو تغصباً . اغصب نفسك على دفع العشور من أجل الفقراء إليها . ثم تطور إلى أن تغصب نفسك أيضاً على دفع البكور ، والنذور ، وكل حقوق الله فى مالك .. ومن هنا تتطور إلى أن تبذل كل مالك لأجل غيرك ، ولا تعود تتغصب فى عطائك ... ولعلك تسأل كيف ؟

إنك كلما تلمس سعادة الناس وحل مشاكلهم بما تعطيه . حينئذ تنتقل هذه

السعادة منهم إليك . وتشعر بفرح فى العطاء فتعطى بسرور. وتعطى بسخاء ...
وتجد التغصب قد فارقك . فهو ليس فضيلة دائمة . إنما فضيلة مرحلية .

وإن كان الله يعطى أجراً على المحبة التى فى داخل كل فضيلة ، فهو أيضاً يعطى أجراً على التغصب ، غير ناسٍ تعبك فى الانتصار على المعوقات التى تأتيك من الخارج ، أو تأتيك من داخل نفسك...

إنك بالتغصب تروض نفسك وتروض جسدك . وتروض أرادتك .

فالحيوان الذى يضعون النير على عنقه ، لكى يجر عربة أو محراثاً أو قصابية أو نورج ، قد يرفض أولاً ويمتنع و يهرب . ولكنه بالترو يض ، يحنى عنقه بكل راحة تحت النير لكى يؤدى عمله بهدوء ورضى. إن الرفض كان فى مرحلة الابتداء، والتذمر والهروب والرفض ، كان مرحلة وانتهت إلى الرضى... فكم بالأولى الذى يرضى ينفذ ولو متغصباً ... إنها مسألة مرحلية .

وربما يدخل فى التمرن على التغصب ، ما نسميه بالتداريب الروحية .

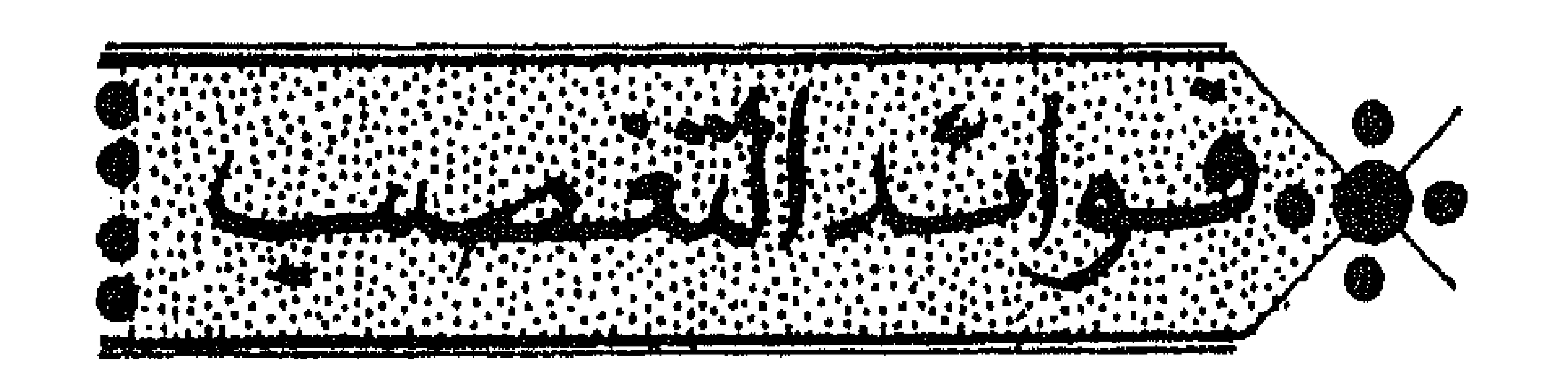
الإنسان فى نضوجه الروحى يعمل الخير تلقائياً . أما المبتدىء فيحتاج إلى التداريب .

وقد يفشل فى تداريبه بعض الشىء فى بادىء الأمر ولكنه بالتغصب والاصرار و بالجهاد الروحي يحول ما يدرب نفسه عليه إلى صفة ثابتة فيه .

يقول القديس بولس الرسول فى جميع الأشياء قد تدربت أن اشبع وأن أجوع . أن استفضل وأن انقص (فى ٤ : ١٢) .

وكلما كان التدريب صعباً ، يكون الانتصار فيه ذا أجر أكبر .

ففى التغصب تقو ية لارادة الإنسان وتوجيه لهذه الارادة نحو الخير.



فوائد التغصب

يصلح التغصب كثيراً فى الانتصار على العادات الخاطئة التى عاشت فى الإنسان مدة ، واخضعته وأذلته واستعبدته . وليس من السهل أن يتركها عن رضى ، وإنما هو محتاج أن يغصب نفسه على ذلك ، ويجبر نفسه أن تطوعه وهو يقودها فى اتجاه عكس اتجاهه السابق .

إن التغصب هو بلاشك ثورة على تدليل النفس ، أو هو حرب ضد الذات .

كلنا نعرف أن الإنسان ـ لو ترك نفسه إلى رغباته وشهواتها ، وإلى محبة الراحة والاسترخاء ، فإنه لاشك يضيعها . أما بالتغصب فإنه لا يترك نفسه إلى أهوائها ، بل يأمرها فتطيع ، و يقودها فتخضع ، ولو يرغمها على غير ما تود ، إلى حين أن تصل إلى محبة الخير ومحبة الله ... إننا نستعمل التغصب أحياناً فى تربية أطفالنا وأولادنا . لأننا لو دللناهم وتركناهم حسب هواهم لكانت النتيجة الحتمية هى ضياعهم وهلاكهم .

ونستعمل هذا التغصب لخيرهم ، إن فشلت طرق الحب والطيبة والحيلة والاقناع ...

يونان النبى لما لم يغصب نفسه إلى الطاعة غصب الله عليه . وبعد أن هرب من الله ، أمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه وارجعه إلى طاعة الله .

وكثير من الناس لم يستفيقوا بسرعة ولم يرجعوا إلى الله حباً ، فرجعوا إليه غصباً ، بتجارب وآلام منوعة .

وخير للإنسان أن يغصب نفسه بارادته ، من أن تغصبه التجارب والاحداث .

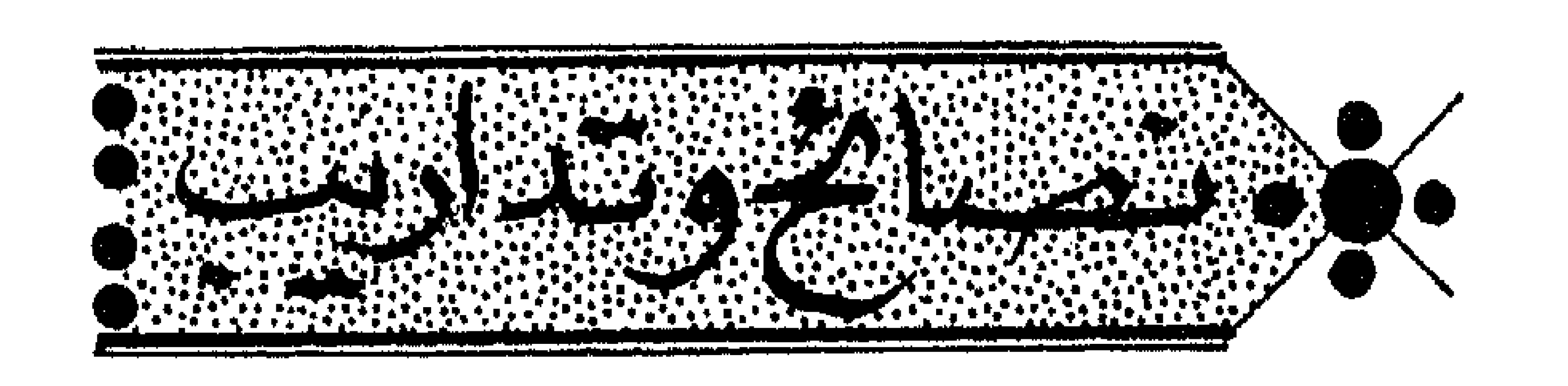
الفرق بين القديسين والاشخاص العاديين ، أن القديسين غصبوا أنفسهم على الفضيلة فى بادىء الأمر حتى تعودوها وأحبوها ..

كانت لهم أجساد مثل أجسادنا تجوع وتعطش ، وغصبوها على الصوم .

وكانت لهم أجساد تتعب، ولكنهم غصبوها على السهر، كما حدث مع القديس الأنبا بيشوى الذى كان يربط شعره بحبل يشده إذا انحنت رأسه للنعاس...

ومثل داود النبى الذى قطع على نفسه عهداً حينما قال:

لا ادخل إلى مسكن بيتى، ولا أصعد على سرير فراشى، ولا أعطى لعينىّ نوماً، ولا لأجفانى نعاساً، ولا راحة لصدغى، إلى أن أجد موضعاً للرب (مز ١٣١).



نصائح وتداريب

لذلك لا تستجيبوا لمحبة الراحة، ولا لنداء الرغبات، ولا تدللوا انفسكم واعرفوا أن التغصب سوف يستمر معكم، فما أن تجدوا لذة فى حياة الفضيلة حتى يزول التغصب تلقائياً وتبدأ حياة الحب...

وفى كل ذلك ضعوا أمامكم قاعدة روحية هامة وهى:

إن أكبر حرب نجتازها فى حياتنا الروحية، هى الحرب ضد أنفسنا وإذا انتصرنا فى الداخل ـ بالتغصب ـ سننتصر على كل حرب خارجية..

لا تنفذوا كل فكر يأتى إليكم، ولا أية رغبة تطرق قلوبكم. وإن لم تستطيعوا أن تمتنعوا، أجلوا الأمر فترة من الوقت، ثم اغصبوا أنفسكم على مداومة التأجيل...

ربما خلال التأجيل تفتقدكم النعمة وتريحكم...

واعلموا أن التغصب يدخل فى وصية حمل الصليب التى أمر بها الرب (متى ١٦: ٢٤) فهؤلاء هم الذين «صلبوا الجسد مع الأهواء» (غل ٥: ٢٤).

حاول أن تعلن الثورة على ذاتك وعلى رغباتك. وأن تضع لنفسك نظاماً روحياً ثابتاً، تغصب نفسك على تنفيذه. ولا تتسامح مع نفسك بالتنفيذ، بكثير من الاستثناءات التى توحى بعدم الجدية فى العمل الروحى، وبروح التراخى واللامبالاة.

إن مبدأ التغصب يظهر فى قول الرب «إن أعثرتك عينك فاقلعها .. وإن أعثرتك يدك اليمنى، فاقطعها والقها عنك» (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) .

وهكذا تغصب ذاتك ، فلا تستسلم عينك للنظر بل تمنعها . وكذلك يدك .

وهكذا فى منع اللسان عن الكلام نرى القديس يعقوب الرسول يستخدم عبارات : يلجم ، يذلل ، يضبط .. وكلها عبارات تدل على التغصب .

من أجل التغصب ، وضعت الدول القوانين والعقوبات ووضع الله وصايا وأيضاً عقوبات .

والمطلوب روحياً أن يغصب الإنسان نفسه على ترك الشر، وعلى عمل الخير، قبل أن يغصبه القانون والوصية والعقوبة .

المطلوب أن ينبع الخير من داخل قلبه ، بارادته ، باكراهه لنفسه على ترك الخطأ ، دون أن يضطر إلى ذلك اضطراراً ، وبلا أجر...

اجعل ضميرك هو الذى يغصبك وليس القانون . وارتفع فوق مستوى القانون... لتصل إلى محبة الخير اغصب نفسك على عمل الخير قبل أن تغصب غيرك عليه . وإن اخطأت عاقب نفسك ، بدلاً من أن تأتيك العقوبة من الخارج .



الفصل الرابع :

السلوك الروحي والاستقامة

السلوك بالروح .

هل الجسد خطية ؟

خضوع الجسد للروح .

الجسد والخطية .

الأهتمام بالروح .

علاقة روحك بروح الله .

معنى الاستقامة .

الاستقامة ضد التطرف .

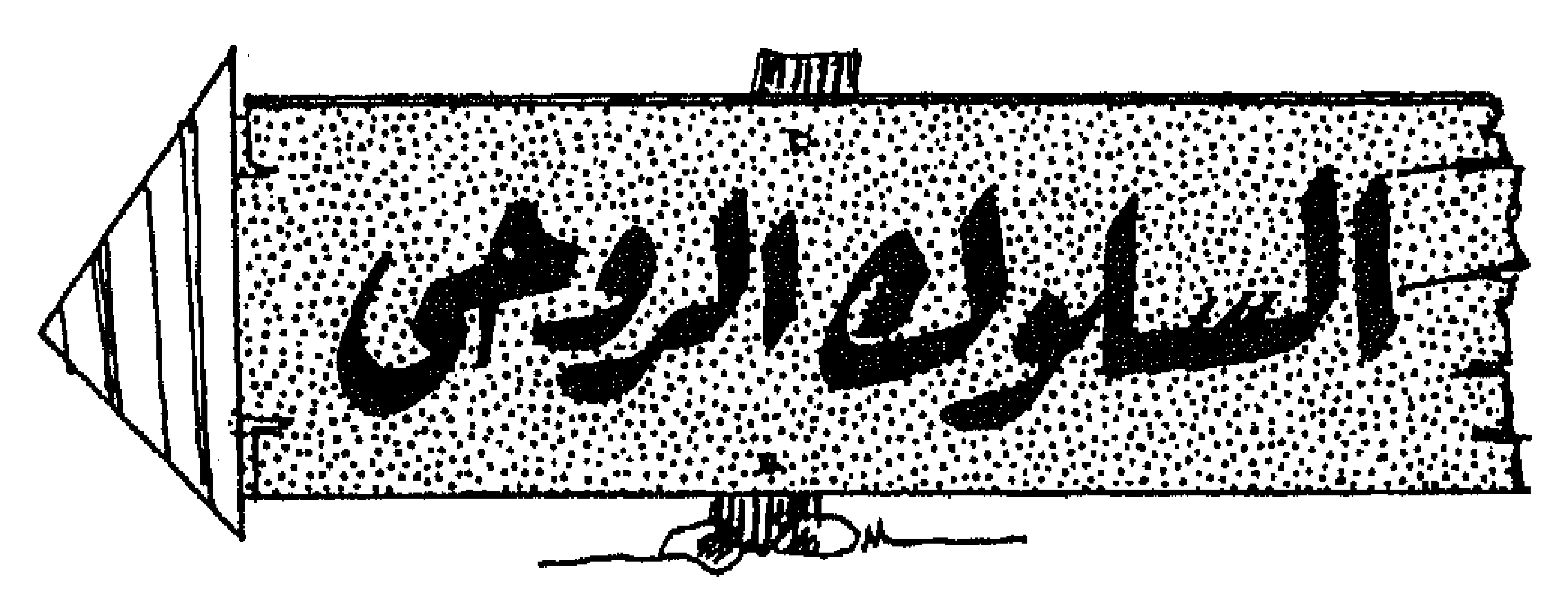
الاستقامة ضد الباطل .

الاستقامة ضد الرياء .

الخداع ضد الاستقامة .

التحايل ضد الاستقامة .

الاستقامة والثقة .



الإنسان االروحى يسلك حسب الروح : حسبما الروح يقوده و يرشده وليس حسب الجسد ، أى ليس حسب مشيئة الجسد ورغباته وMادياته ...

والذى يسلك حسب الروح ، يكون مقبولاً أمام الله ، بينما الذى يسلك حسب الجسد يقع تحت الدينونة .

ولذلك قال القديس بولس الرسول : «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع ، السالكين ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح» (رو٨ : ١) .

المفروض فى الإنسان الروحى أن يهتم بروحه : فى غذائها وصحتها ونموها ...

يعطى روحه ما تحتاج إليه من غذاء يحفظها فى قوة وفى نمو، مثل كل وسائط النعمة من صلاة وصوم ، وقراءات روحية ، وتأمل ، ومطانيات واجتماعات روحية ، وخلوة روحية ، وارشاد روحى .

كما يحتاج أن ينمى روحه بحياة الفضيلة التى يسلك فيها و بالمحبة التى تربطه بالله و بحياة التوبة التى تحفظ روحه نقية .

غير أن غالبية الناس يهتمون باجسادهم إهتماماً كبيراً يفوق اهتمامهم بأرواحهم .

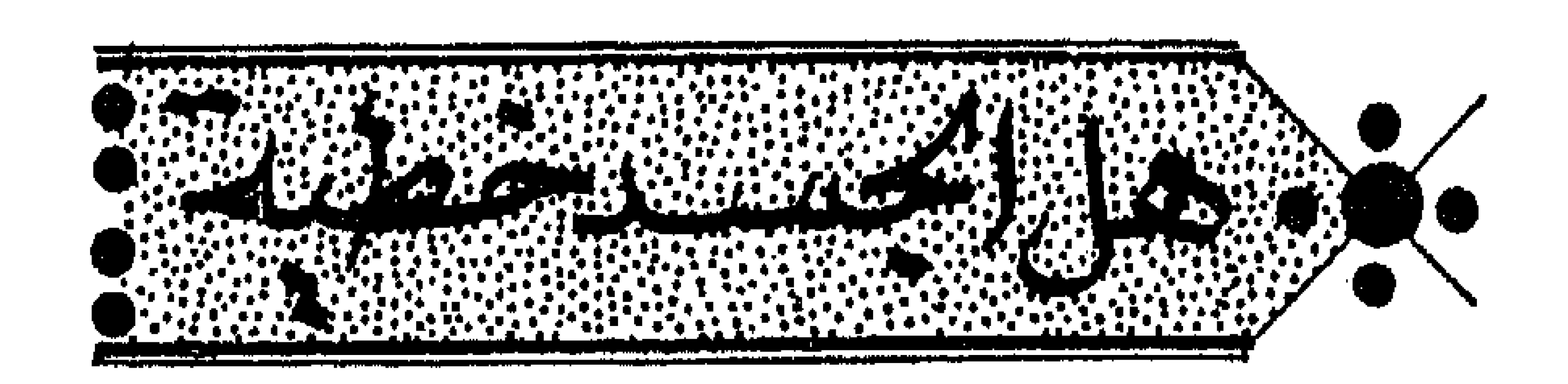
يضعون كل الإهتمام فى الجسد وكل ما يختص به من مأكل وملبس ومسكن وترفيه وزينة ، بل يهتمون برغبات هذا الجسد ، وتحقيق شهواته وملاذه ، بشكل يشمل كل الفكر وكل العاطفة ، حتى لو تعارض هذا كله مع نقاوة أرواحهم .

و ينسى كل هؤلاء قول الرسول : **اهتمام الجسد هو موت ، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام ، أهتمام الجسد هو عداوة لله .. فالذين هم فى الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله** ... (رو٨ : ٦ - ٨) .

لذلك يسمون هؤلاء جسدانيين.. ولا يستطيع الجسدانيون أن يرثوا ملكوت الله، لأنه ملكوت روحى، يعيش فيه فقط، الروحانيون السالكون حسب الروح.

ولذلك فعندما تكلم الرسول عن محبة العالم التى هى عداوة لله، قال «لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة» (١يو٢: ١٦). وهكذا وضع شهوة الجسد فى مقدمة العالميات.

هنا ونسأل سؤالاً يفرض نفسه: هل الجسد إذن خطية؟



كلا، إن الجسد ليس خطية ولا شراً، وإلا ما كان الله يخلقه.

يكفى أن السيد المسيح أخذ جسداً وكذلك قال لنا الرسول: «ألستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل الروح القدس الذى فيكم» «ألستم تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء المسيح» (١كو٦: ١٩، ١٥). فإن كان جسدنا كذلك فهو ليس شراً اطلاقاً.

وهذا الجسد سيقيمه الله فى اليوم الأخير. جسداً روحانياً نوارانياً (١كو١٥).

ونحن نكرم أجساد القديسين. ولو كان الجسد خطية، ما كنا نكرم هذه الأجساد.

إن الجسد شىء مقدس، نزل إلى ماء المعمودية وتدشن وصار طبيعة جديدة، ومسح بزيت المسحة المقدسة فى سر الميرون. وصار هيكلاً للرب (١كو٢: ١٦، ١٧).

هذه هى النظرة السليمة التى نحترم بها الجسد، وننظر إليه فى وقار، سواء كان جسدنا الخاص أو جسد آخرين.. متذكرين فى ذلك قول الرسول «من يفسد هيكل الله فسيفسده الله» (١كو٢: ١٧). وقوله أيضاً «فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هأى لله» (١كو٦: ٢٠).

إذن يمكن أن نمجد الله فى اجسادنا ونمجده بأجسادنا ...

أليس الجسد يشترك مع الروح فى عبادة الله . الروح تصلى . والجسد يقف أو يركع أو يسجد أو يرفع أيادي طاهرة ونظراً طاهراً إلى فوق .

والجسد يصوم ، والجسد يبارك الله فى المطانيات . والجسد يتعب فى الخدمة ومعونة الآخرين ..

إن احترمنا الجسد هكذا ، لا يمكننا أن نمتهنه أو ندنسه فى أنفسنا أو فى الآخرين ...

ننظر إلى الجسد ككنيسة صغيرة مقدسة مدشنة بالميرون ، يسكنها روح الله .

والمفروض أن هذه الكنيسة تخرج منها تسابيح وصلوات وتراتيل ومزامير وأغانى روحية (أف ٥ : ١٩) ترتفع إلى الله كرائحة بخور. كما قال المرتل فى المزمور: « فلتستقم صلاتى كالبخور قدامك ،وليكن رفع يدى ذبيحة مسائية » (مز ١٤١ : ٢) .

هذه هى النظرة الروحية إلى الجسد .

إذن الجسد ليس خطية ، إن استعملناه بطريقة روحية ، وفهمناه بطريقة روحية . كشىء مقدس مثل جسد آدم وحواء قبل الخطية . ومثل أجساد الأبرار فى القيامة العامة ومثل كل جسد مقدس من أجساد الأحياء يبارك الله .

كيف إذن نحتفظ بقداسة الجسد ؟



خضوع الجسد للروح

يكون الجسد مقدساً إن خضع لقيادة الروح ، ولم يدعها هى تخضع له .

إن حدث ذلك يسلك بطريقة روحية بل ينطبق عليه قول الرسول « اطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة .. ولا تشاكلوا هذا الدهر» (رو١٢ : ١ ، ٢) . إذن يمكن أن يكون الجسد ذبيحة حية مقدسة ...

أما إن قاوم الروح ، ولم يخضع لها ، فحينئذ ينطبق عليه قول الكتاب : **« الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح يشتهى ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر»** (غل ٥ : ١٧) .

يقول الرسول هذا، ليس عن كل جسد، وإنما عن الأجساد الخاطئة المقاومة لعمل الروح، والتى تشتهى ضد الروح، والتى توقع الإنسان فى صراع داخلى بين جسده وروحه، ولكن القديسين ليسوا هكذا، وإنما أجسادهم تشترك مع أرواحهم فى العمل الروحى، وتبذل ذاتها.

لذلك يكافىء الله الجسد بأن يتنعم مع الروح فى ملكوته فى الأبدية.

إذن فى مقدمة السلوك الروحي أن تقوم الروح باخضاع الجسد، فلا يسلك فى طريق مادى بل فى طريق روحى.

وهكذا قال القديس بولس الرسول «بل أقمع جسدى واستعبده، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسى مرفوضاً» (٢كو٩: ٢٧).

وهكذا فعل كل الآباء فى البرارى والقفار، حتى خضع جسدهم تماماً للروح وشارك فى عملها، باصوام وأسهار وسجود، وعدم اعطاء الجسد ما يشتهيه.

إذن ليس الجسد ذاته خطية، إنما شهوات الجسد هى خطية.

وقد سقط أبوانا الأولان فى شهوة الجسد، حينما نظراً إلى شجرة معرفة الخير والشر، فإذا الشجرة جيدة للأكل وبهجة للعيون وشهية للنظر (تك٢: ٦).

وبدأ الانحراف إلى اشتهاء كل ما هو مادى، وما هو جسدانى. وهنا يأتى تحذير الكتاب لنا، بقول الرسول:

«لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون، ولكن إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ١٣).

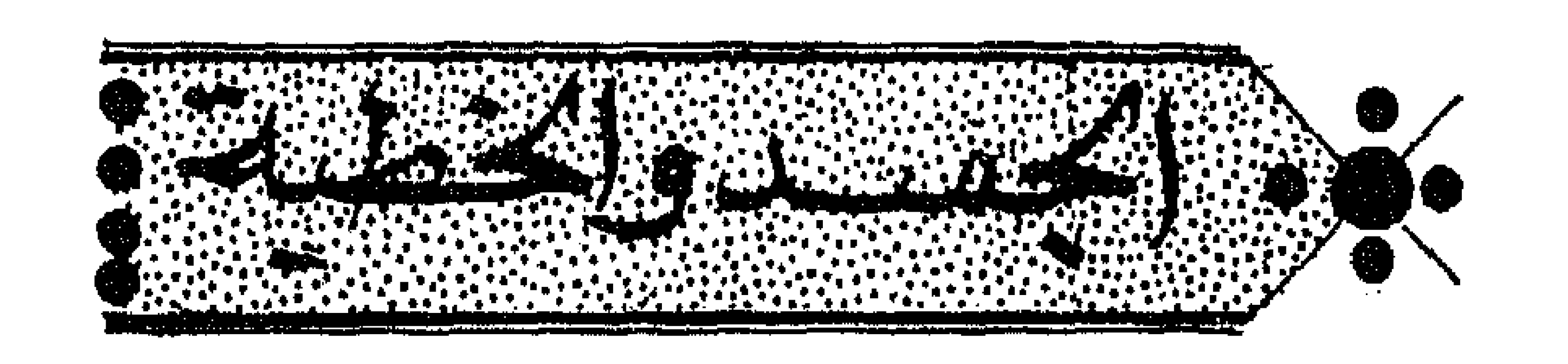
ولهذا يدخل القديسون فى أعمال الإماتة هذه، لإماتة شهوات الجسد وهكذا نطلب إلى الرب يسوع فى صلاة الساعة التاسعة قائلين [أمت حواسنا الجسدانية] وإن ماتت الحواس الجسدانية، أى لم تعد تتحرك لتدخل إلى القلب شهوات ورغبات، حينئذ تحيا الحواس الروحية وتتحرك بمحبة الله، ولذلك يقول الكتاب:

«وأما أنتم فلستم فى الجسد، بل فى الروح، إن كان روح الله ساكناً فيكم» (رو٨: ٩).

وإن عاش الإنسان بالروح ، وفى الروح ، وصار الجسد خاضعاً ، فحينئذ يتمتع بحياة الانتصار على المادة وعلى العالم .

ويصبح الإنسان كائناً واحداً ، وليس كيانين متصارعين ، بل على العكس لا يوجد فيه صراع داخلى بين الجسد والروح ، لأن جسده أصبح يشتهى ما تشتهيه روحه ، ويتعاون معها فى كل أعمال البر.

وحينئذ لا يخطىء الجسد ...



فالجسد الذى يخطىء ، هو الجسد المتمرد على الروح ، أو هو الجسد الذى يسيطر على الروح ويخضعها لرغباته ، فتتدنس معه وتفقد صورتها الإلهية ، وتقع معه تحت الدينونة فى ذلك اليوم الرهيب .

والجسد الذى يخطىء ، إنما يدنس هيكلاً من هياكل الله .

لأن الجسد هو هيكل الله ، فإن أخطأ ، فيكون كمن يحطم كنيسة مقدسة كان روح الله يحل فيها .

وهو يتمرد ليس فقط على روحه ، إنما أيضاً على روح الله الساكن فيه .

وإن كان الإنسان الذى تنتصر فيه روحه ، وتقود الجسد معها إلى حياة القداسة ، يصير كملائكة الله فى السماء . فإن الإنسان الذى يتمرد فيه الجسد على الروح ويقودها ، يصبح فى مستوى الحيوانات .

والجسد الذى يعيش فى شهواته ، إنما يعتبر ميتاً ، مهما كان ينبض بالحياة .

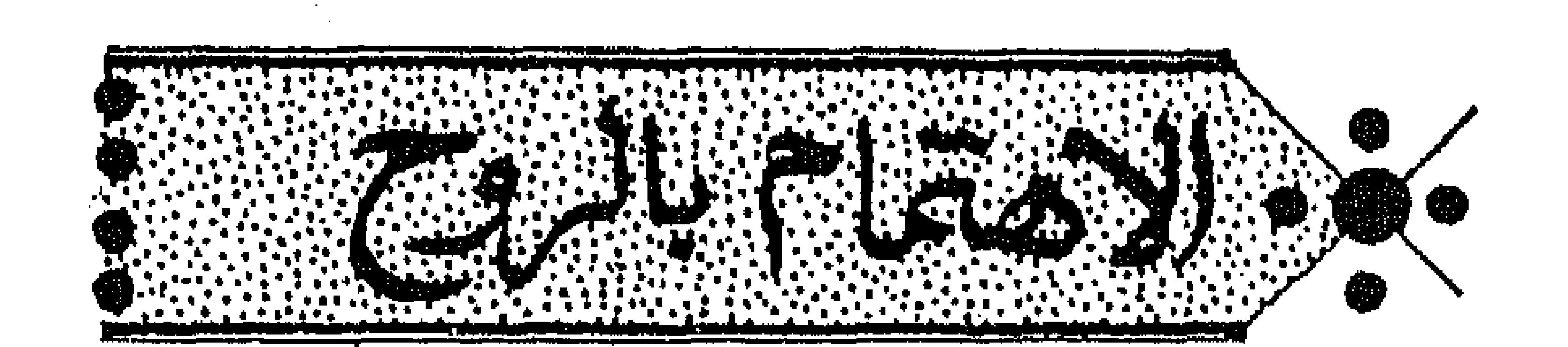
وكما قال الرسول « فالجسد ميت بسبب الخطية » (رو٨ : ١٠) .

ولذلك قال الرب لراعى كنيسة ساردس « إن لك إسماً أنك حى وأنت ميت » (رؤ٣ : ١) . وقال الرسول عن الأرملة المتنعمة « وأما المتنعمة فقد ماتت وهى حية » (١تى ٥ : ٦) .

لأن الحياة الحقيقية هى فى الله ومن ينفصل عن الله بالخطية، يعتبر ميت، وهو حى. وبهذا قال الآب عن الإبن الضال «إبنى هذا كان ميتاً» (لو١٥: ٢٤).

والذى يتوب، إنما يعود إلى الحياة مرة أخرى. ولذلك قيل عن الإبن الضال فى توبته «كان ميتاً فعاش».

لهذا ينبغى أن يهتم الإنسان بروحه و يهتم فى ذلك بأبديته.



يقول الرسول «اهتمام الروح هو حياة وسلام» (رو٨: ٦).

يضع أمامه أن له روحاً واحدة إن قادها فى طريق الخلاص، ربح كل شىء. وإن خسر هذه الروح، خسر كل شىء. وكما قال السيد المسيح «ماذا ينتفع لو ربح العالم كله وخسر نفسه».

الذى يسلك فى الطريق الروحى، يضع كل إهتمامه فى نقاوة روحه، واتصال روحه بالله و والسعى لأن ترث هذه الروح ملكوت الله فى الأبدية السعيدة.

يسلك بالروح، وينمو فى الروح، ويصبح إنساناً روحانياً.

يعود صورة الله ومثاله. ويحتفظ بنفسه باستمرار صورة لله.

فالروح هى النفخة التى نفخها الله فى الإنسان، فصار نفساً حية أما الجسد فهو العنصر الترابى، لأنه جبل من تراب الأرض.

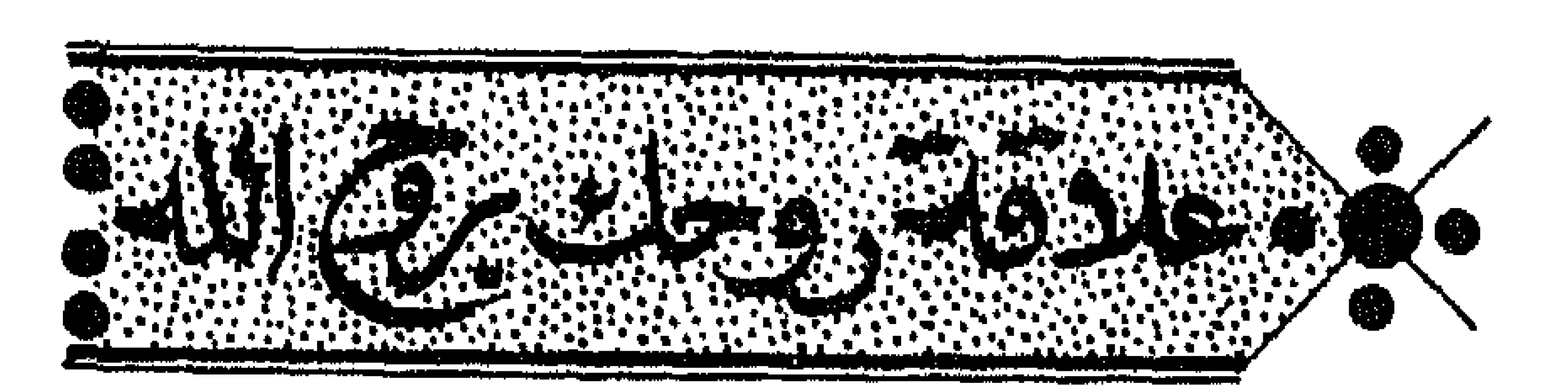
بالسلوك بالروح يصير الإنسان شبه الملائكة، ويكون له صداقة وعشرة مع الله وملائكته ومع العالم الروحى كله، بل يصير هو ملاكاً عند الله.

تصبح تصرفاته تصرفات روحية، وكلماته كلمات روحية، وكل علاقاته علاقات روحية، وتسيطر الروح على كل حياته.

لذلك تأمل يا أخى نفسك كيف تسلك: هل بالروح أم بالجسد؟

فالكتاب يقول « أسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد » (غل ٥ : ١٦). بل يقول بالأكثر « امتلئوا بالروح » (أف ٥ : ١٨).

وهنا يبدو النمو فى الحياة الروحية : من سلوك بالروح إلى امتلاء بالروح.



الإنسان الروحى يخضع جسده لروحه ، وتخضع روحه لروح الله.

و يصبح هذا دليلاً على بنوته لله. وفى هذا يقول الكتاب « لأن كل الذين ينقادون بروح الله ، فأولئك هم أبناء الله » (رو٨ : ١٤).

وإن كان روح الله هو الذى يقوده فلن يخطىء ، والشرير لا يستطيع أن يمسه (١يو٣ : ٩) (١يو٥ : ١٨). حقاً بهذا « أولاد الله ظاهرون ».

ولا يقتصر الأمر على الناحية السلبية من جهة البعد عن الخطية ، وإنما إيجابياً تظهر فيه ثمار الروح.

وهذه قال عنها الرسول « وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف » (غل ٥ : ٢٢). قال القديس بولس هذا عن السالكين بالروح « الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات » (غل ٥ : ٢٤). وقال بعدها مباشرة « إن كنا نعيش بالروح ، فلنسلك أيضاً بحسب الروح ».

لأنه كيف نقول إننا أولاد الله ، إن كنا لا ننقاد بروح الله ؟ وكيف نقول إننا نعيش بالروح ، إن كانت لا تظهر فى حياتنا ثمار الروح ؟

والذى ينقاد لروح الله ، لا يطفىء الروح ، ولا يحزن روح الله فى داخله ولا يقاوم روح الله ، وإنما يستسلم تماماً لعمل الروح فيه. و يكون أداة طيعة للروح القدس ، يصنع الله به مشيئته المقدسة. لا يخون الله و يفتح أبواب قلبه أو فكره للخطيئة التى تقاوم عمل الروح. بل على العكس :

يشترك مع روح الله فى العمل .

وبهذا يدخل فى شركة الروح القدس (٢كو١٣ : ١٤) ويكون شريكاً للطبيعة الإلهية (٢بط ١ : ٤) فى العمل لأجل خلاصه وخلاص الآخرين .

إذن فالسلوك بالروح ، هو سلوك بروحك وبروح الله .

وعندئذ تتجمل روحك بالفضائل ، وتستعد لمقابلة الله «كعروس مزينة لعريسها» . تتزين بالفضائل ، بالمحبة بالاتضاع بالإيمان بالتعب من أجل الله . تتزين بما قال عنه القديس بطرس الرسول «زينة الروح الوديع الهادىء الذى هو قدام الله كثير الثمن» (١بط ٣ : ٤) .

اهتم إذن بجمال روحك ، حتى عندما تخلع جسدك ، تكون روحك مقبولة فى السماء . لها رائحة المسيح الذكية .

وتأخذ روحك حتى فى هذا العالم هيبة أمام الشياطين .

«يسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات ، وأما أنت فلا يقتربون إليك» (مز ٩١ : ٧) . أتريد إذن أن تختبر روحك وسلوكك بالروح ؟ إليك هذا السؤال

هل أنت تخاف الشياطين ، أم أن الشياطين تخافك ، لسكنى روح الله فيك ؟

اسلك يا أخى بالروح ، وأنت تصل إلى هذا المستوى . وكل عمل تعمله ، تأكد من أن الله يشترك معك فيه بروحه القدوس .

واحتفظ بسكنى الروح داخلك .



معنى الاستقامة

الإنسان الروحى هو إنسان مستقيم ، مستقيم فى فكره ، وفى ضميره ، وفى سلوكه ، أمام الله والناس .

فما معنى هذه الاستقامة ؟ وما علاماتها ؟ وكيف تكون ؟ وما محارباتها ؟ وكيف نميزها ؟

إن الإنسان المستقيم ، هو إنسان حقانى ، لا يسلك فى الباطل ، سواء إن كان يدرى أو لا يدرى . ولا يجمع بين الحق والباطل .. !

يسير فى طريق مستقيم لا ينحرف عنه .

وكما قال الوحى الإلهى «لا تمل يمنه ولا يسره» (أم ٤ : ٢٧) . أى لا تنحرف ، سواء نحو اليمين أو نحو اليسار . لا يكن لك تطرف هنا أو تطرف هناك .

الاستقامة ضد التطرف

المبالغة فى الطريق الروحى ، غير مقبولة : سواء كانت مبالغة فى الكلام أو فى الوصف ، أو فى السلوك .

فالمبالغة فى الكلام نوع من الكذب ، وكذلك المبالغة فى الوصف ، ولا تعطى هذه ولا تلك صورة حقيقية عن الواقع .

والمبالغة فى السلوك ليست مستقيمة لأنها لون من التطرف ، وقد تتحول إلى فريسية .

وفى ذلك قال القديس بولس الرسول عن حياته السابقة للإيمان « حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً » (أع ٢٦ : ٥) ..

والذين يضيقون على نفوسهم ، يتعودون هذا التضييق ، فيضيقون على الآخرين !

وتكون أحكامهم ظالمة وقاسية وغير مستقيمة وقد وبخ السيد المسيح الكتبة والفريسيين على ذلك لأنهم يحملون الناس أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل (متى ٢٣ : ٤) .

و بهذا يقعون فى خطية القسوة ، وأيضاً فى خطية الإدانة ، بسبب التطرف غير المستقيم .

وربما بهذا الأسلوب ، يصورون ملكوت الله صعباً أمام الآخرين ، و يوقعونهم فى اليأس إذا لم يستطيعوا وهكذا يغلقون ملكوت السموات أمام الناس . فما يدخلون هم ، ولا يجعلون الداخلين يدخلون (متى ٢٣ : ١٣) .

والتطرف ليس له ثبات ...

ربما يتطرف إنسان فى طريقة صومه و يستمر على هذا فترة . وقد يظن أنه ارتفع إلى درجة روحية عالية ولكنه فجأة لا يستطيع أن يستمر . وقد يرجع إلى الوراء ، إلى مستوى أقل بكثير من الذين ساروا فى الطريق بتؤدة وتدرج وهدوء .

و بالمثل التطرف فى المطانيات ، وفى كل أعمال التقشف والنسك . وفى الصمت أيضاً ...

ففى البعد عن خطايا اللسان ، قد يتطرف الإنسان فيفرض على نفسه تدريب صمت عنيف ، لا يستطيع أن يستمر فيه ! كما أن هذا الصمت فى تطرفه ، قد يوقعه فى أخطاء عديدة جداً ، و يسىء معاملاته مع الناس . ، ولا يكون تصرفاً مستقيماً ...

إن الخط الذى يعلو و يهبط فى غير استقرار ، ليس هو خطاً مستقيماً . ولا يتفق مع نصائح الآباء ...

فقد كان الآباء الروحيون ينصحون أبناءهم بعدم التطرف . لأن التطرف لا يتفق

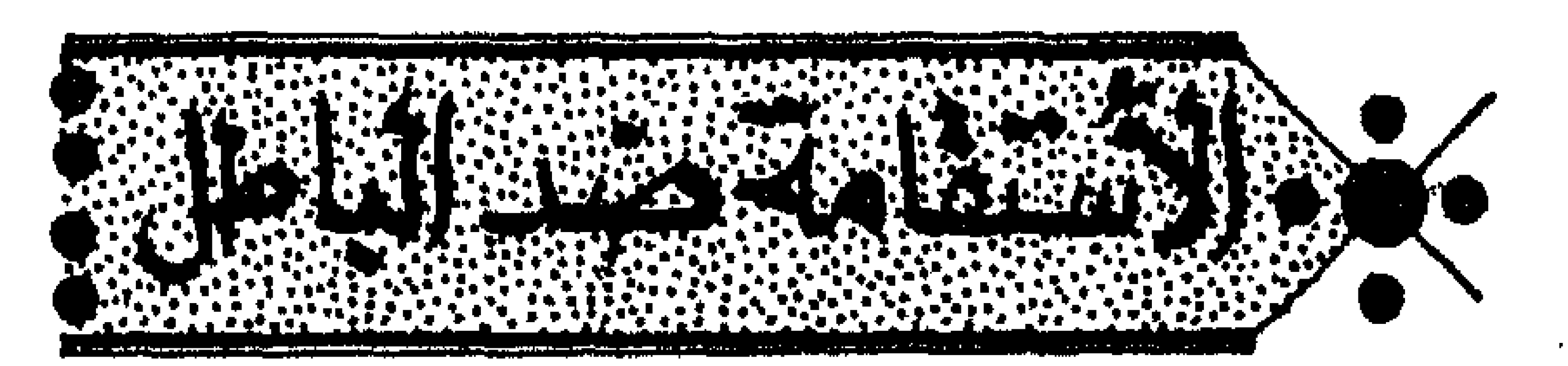
مع الحق من جهة، كما أنه من جهة أخرى لا يتصف بالدوام. وقد يتحول فيه الشخص من الضد إلى الضد.

وهذه الذبذبة فى الحياة الروحية لا تتفق مع الاستقامة فى المسيرة الروحية السليمة. لهذا كان الآباء ينصحون بالتدرج من بداءة سهلة ممكنة بعيدة عن العلو والافتخار، تنمو قليلاً قليلاً حتى تصل. وكانوا يقولون:

قليل دائم، خير من كثير متقطع: أى عمل روحى بسيط يبدأ الإنسان به، ويستمر فترة طويلة حتى يثبت ويستقر، ثم ينمو بطريقة هادئة تدريجية، ولكنها راسخة... فهذا أفضل بكثير من قفزة روحية عالية، لا تستمر طويلاً، ثم تعقبها رجعة إلى الوراء...!

إن القفزات فى الحياة الروحية خطيرة وغير ثابتة. وغالباً ما يحصدها شيطان المجد الباطل...

الاستقامة إذن هى ضد التطرف، كما أنها أيضاً ضد الباطل...



إن كان من الخطأ التطرف حتى فيما يظنه الإنسان خيراً، فماذا نقول إذن عن الباطل والتطرف فيه؟!

قد يسلك الإنسان فى الباطل عن طريق الجهل ومع ذلك يحكم عليه بأنه غير مستقيم فى سلوكه.

إن طريقه غير مستقيم، لأنه ضد الحق والبر، سواء كان يعرف ذلك أو لا يعرف... وما أعمق قول الكتاب «توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت» (أم ١٦: ٢٥؛ ١٤: ١٢).

إنها طريق غير مستقيمة، وعاقبتها الموت، مهما بدت لصاحبها غير ذلك.

إن الكبرياء قد تصور للإنسان أن كل تصرفاته مستقيمة، وربما تكون الحقيقة

عكس ذلك تماماً. وفى ذلك يقول الكتاب «طريق الجاهل مستقيم فى عينيه» (أم ١٢: ١٥).

الاستقامة يلزمها قلب متضع، يدرك خطأه، و يصحح طريقه لكى يصير مستقيماً ...

أما المتكبر فيستمر فى عدم استقامة لأنه يرفض الاعتراف بخطأ طريقه. وهكذا نرى الصلة القوية بين الاستقامة والاتضاع. ذلك لأن المتكبر لا يعرف حقيقته جيداً، ولا يعرف سقطته أو لا يعترف بها. لذلك وصفه الكتاب بأنه جاهل، وقال: طريق الجاهل مستقيم فى عينيه!

وقد يسلك الإنسان فى الباطل نتيجة مرضه، فيفقد استقامة طريقه!

مثل إنسان تمرض نفسيته، فيظن أن كثيرين ضده يضطهدونه، فيكره البعض منهم، و يقاوم البعض، و يشتم هذا وذاك، و يشكو من جميعهم، وتتعقد نفسيته، و يظن أن هناك أخطاراً تترصده، حيث لا يوجد خطر على الاطلاق. و يفقد هذا الشخص استقامة سلوكه نتيجة لمرضه النفسى.

حتى لو كان هذا الشخص فى حالة من المرض لا توقعه فى مسئولية. ولكن ذلك لا يمنع من أن السلوك غير مستقيم.

الباطل هو الباطل، سواء ادين عليه صاحبه، أم لم يدن. وربما الإنسان المريض نفسياً أو المريض عقلياً، لا نقول عنه أنه غير مستقيم. ولكن نقول عن تصرفاته إنها غير مستقيمة.

وقد يوجد إنسان يحاول أن يجمع بين الحق والباطل. وهذا أيضاً غير مستقيم.

فالباطل الذى يقع فيه أحياناً، يشوه استقامة طريقة. ولا يمكن أن يتفق مع علامات الطريق الروحى. ولكنه إذا اعترف بأنه أخطأ وقوّم طريقه، فإننا نعتبرها خطية وقد تاب عنها.

ولكن الخطر هو أن إنساناً يعتبر الباطل الذى فيه لوناً من الاستقامة!!

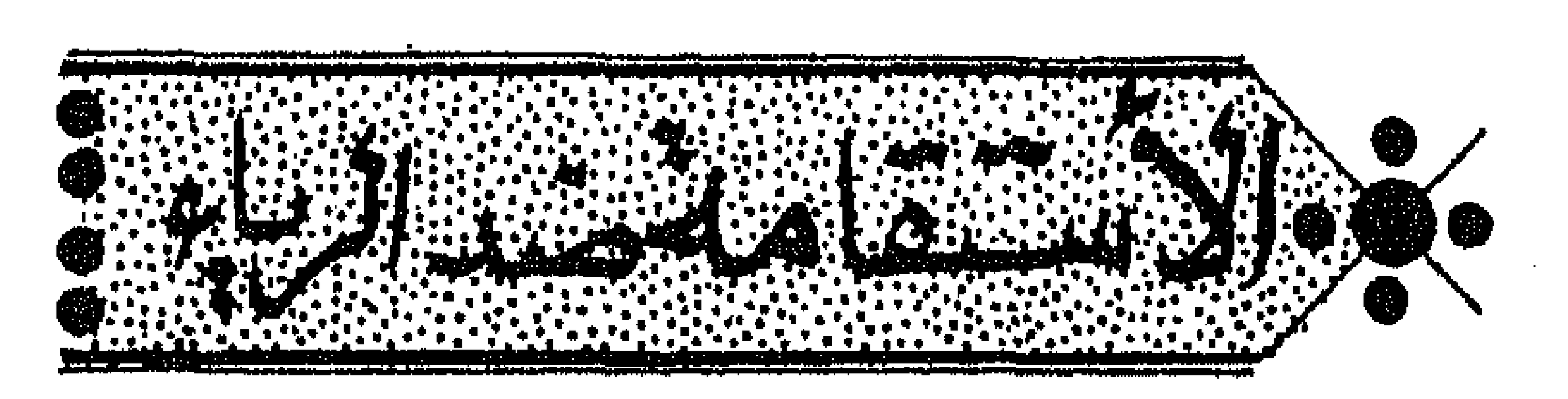
وذلك بأن يلبس الخطية ثوب الفضيلة و يعتبر أنه على حق فى كل اخطائه ، بل لا يسميها أخطاء . و بالتالى تستمر معه . لا يتوب عنها ، ولا يغير مبادئه ولا أسلوب تقييمه للأمور!

ومثل هذا الشخص ، تصبح عدم الاستقامة الفكرية والضميرية عنده ، سبباً فى استمرار عدم الاستقامة فى سلوكه ، كطبع من طباعه ..!

ما أخطر عدم الاستقامة فى الضمير حيث تختل كل موازين الإنسان وقيمه و يصبح حكمه على الأمور غير مستقيم و يفعل الخطية بضمير مستريح ، ولكنه ضمير مريض ، أو ضمير واسع ، أو ضمير غير مستقيم ... !

أمثال هؤلاء يحتاجون إلى توعية ... يحتاجون إلى تعليم روحى ، لاصلاح موازينهم الروحية . فالذين يقبلون التعليم منهم ، يكون هناك رجاء فى عودتهم إلى الاستقامة ، فكرياً وضميرياً وسلوكاً .

والبعض قد يحاول الجمع بين الحق والباطل عن طريق الرياء !



هؤلاء يكون ظاهرهم من الخارج مستقيماً ، بينما هم فى الداخل عكس ذلك . فيظهرون للناس أبراراً وهم خطاة . هم كالقبور المبيضة من الخارج وفى الداخل عظام نتنة ..

وبالرياء يجمعون بين نوعين من عدم الاستقامة : داخلهم الخاطىء غير مستقيم وتظاهرهم أيضاً بالاستقامة هو أيضاً عمل غير مستقيم .

و يقعون بهذا فى خطية مزدوجة . لأنه إن كان من يفعل خيراً لكى يظهر للناس بره ، يكون قد وقع فى خطيئة الرياء ، فكم بالأكثر الذى يكون غير مستقيم ، و يظهر أمام الناس وكأنه مستقيم و بار... ! أى رياء مزدوج يكون هذا ؟!

من هذا النوع يهوذا ، الذى كان يقبل السيد المسيح كصاحب له بينما كان بالقبلة يسلمه لأعدائه .

أو كان يجلس قريباً منه ، يأكل معه و يغمس لقمته فى نفس صحفته ، بينما هو قد قبض ثمن تآمره عليه ! إن خيانة يهوذا شيء . أما استمراره فى صحبة المسيح ، مع تلاميذه ، يأكل معه و يأتى يقبله ، فهذا لون آخر من الطريق غير المستقيم الذى يظهر فى الرياء والتظاهر بالحب ...

ومن هذا النوع كانت دليلة مع شمشون ، نفس المزيج من الخيانة والرياء !

تتظاهر بالحب والدالة فيما تسلمه لأعدائه ! و بنفس الرياء وأكثر منه ، يسلك الشيطان ، حينما يتظاهر أنه يقدم لآدم وحواء طريق المجد بينما هو يعمل على هلاكهما . ومعنا يسلك أيضاً بنفس الأسلوب ...

الإنسان المرائى يكون أحياناً ذا وجهين ولسانين ! و يلعب على حبال كثيرة ...

ولا يكون مستقيماً بذلك فى تصرفه ولعل من هذا المثال بلعام ، الذى كان يريد أن يجمع بين مال بالاق بن صفور و بناء سبعة مذابح للرب (تك ٢٢ ، ٢٣) فهو يقول « كيف ألعن من لم يلعنه الله ؟! ... الذى يضعه الرب فى فمى أحرص أن أتكلم به » (تك ٢٣ : ٨ ، ١٢) وهو فى نفس الوقت يقدم لبالاق النصيحة التى يهلك بها الشعب (رؤ ٢ : ١٤) .

وظن بلعام أنه يكفى أن لسانه لم تخرج منه لعنة للشعب ، بينما قلبه كان يسعى هلاكهم ! أما الإنسان المستقيم ، فإن قلبه ولسانه يكونان معاً فى خط واحد طاهر.

ولقد رفض السيد المسيح أن يكون القلب واللسان فى طريقين متضادين . وردد العبارة التى قيلت عن الشعب فى العهد القديم « هذا الشعب يكرمنى بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عنى بعيداً » (متى ١٥ : ٨ ؛ أش ٢٩ : ١٣) .

الإنسان المستقيم : إن قال كلمة حب أو مديح بشفتيه ، يكون قلبه أيضاً بنفس المشاعر ...

لا تناقض إطلاقاً بين القلب واللسان فهذا التناقض دليل على عدم الاستقامة .

وفى هذا التناقض يقع الذين يستخدمون كلمات التملق ، والمديح الكاذب ، وكلمات النفاق ...

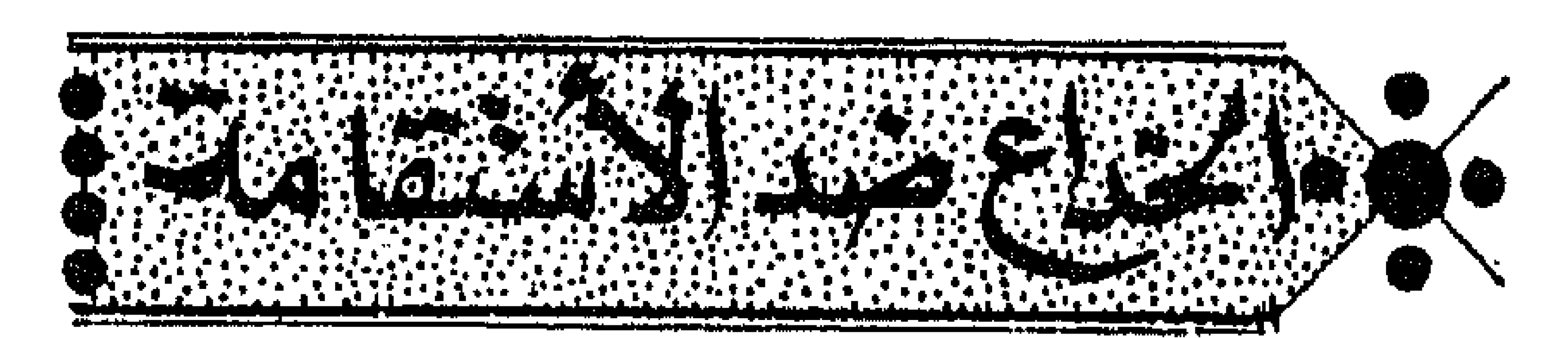
ووقع فى هذا الخطأ الأنبياء الكذبة الذين كانوا يقولون لأخاب الملك أنه سينتصر» (١مل ٢٢ : ١٣ ، ٢٢) .

الإنسان المستقيم لا تقوده سياسات وأغراض ، ولا تغير ضميره ولا لسانه .

فلا يسلك فى الرياء من أجل غرض يحققه أو شهرة يحصل عليها ، أو انضماماً لتيار معين . إنما هو هو: من الداخل كما من الخارج .

ليس هو شخصين ، بل شخص واحد لا يخالف ضميره ، ليتكلم بما يرضى الناس ، ولا يقول إلا ما يؤمن فى قلبه إنه حق .

الرياء ضد الاستقامة لأنه محاولة للجمع بين طريقين متضادين ، باسلوب الخداع ...



الخداع ضد الاستقامة

لم يكن يعقوب مستقيماً ، حينما خدع أباه اسحق ، وقال له أنا بكرك عيسو» (تك ٢٦ : ١٨) . ولم يكن مستقيماً حينما لبس جلد جدى ماعز ولم تكن أمه رفقة مستقيمة حينما نصحته بكل هذا وقالت له لعنتك علىّ (تك ٢٦ : ١٣) .

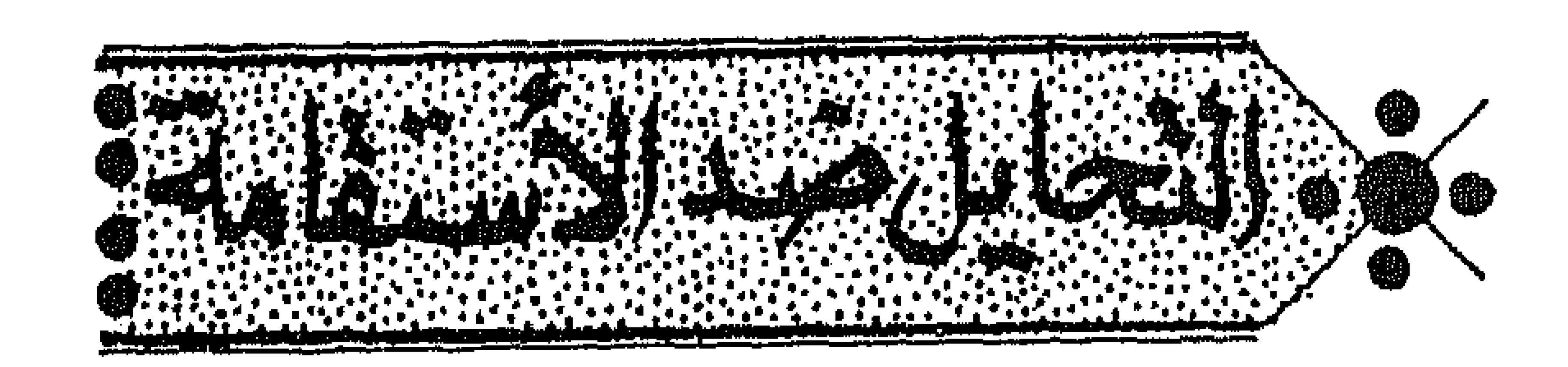
ولم يكن أخوة يوسف مستقيمين حينما خدعوا أباهم يعقوب ، حينما غمسوا قميص يوسف الملون فى دم ماعز ليظن أبوه أن وحشاً قد افترسه (تك ٣٧ : ٣١- ٣٣) .

الإنسان المستقيم إنسان صريح وواضح لا يكذب ولا يخادع ولا يصل إلى أغراضه عن طريق الخداع ، ولا يحل مشاكله بالخداع . و يرى أن الخداع طريق غير مستقيم ، يحتقر ذاته إن أوصله إلى غرض .

الخداع ضد الحق . والإنسان المستقيم هو إنسان حقانى ، لا يقبل على نفسه أن يظلم أحداً .

وإن كان له غرض يحب أن يصل إليه ، فليكن ذلك عن طريق مستقيم .

لأنه يؤمن ، ليس فقط باستقامة الغرض والهدف ، إنما أيضاً باستقامة الوسيلة ولذلك فهو يرفض التحايل .



التحايل ضد الاستقامة

الإنسان غير المستقيم ، إذا لم توصله استقامة الوسيلة ، يلجأ إلى الحيلة . فإن لم يجد حيلة سليمة ، فإنه يلجأ إلى التحايل ...

ومن ضمن ذلك : اللف والدوران : إن الخط المنحنى ليس خطاً مستقيماً والخط الدائرى ليس كذلك خطأً مستقيماً والإنسان المستقيم يرفض كل طرق اللف والدوران ، التى يحاول أن يخفى بها غرضه ليصل باسلوب غير ملحوظ ...

لذلك فهو يرفض أيضاً سياسة السبب الثانى أو الثالث ...

هذه التى يستخدمها البعض ، مخفين السبب الأول أو السبب الحقيقى ، ومقدمين أسباباً أخرى ثانوية أقل أهمية ، ربما السبب الثانى أو الثالث أو الرابع ، من أمور قد يهتم بها السامع ، ولا علاقة لها بالموضوع ، وذلك لكى ينالوا موافقته بأية الطرق !

إن السبب الثانى ، حتى لو كان حقاً ، ليس هو صدق خالص وذلك باعطائه أهمية له تخدع السامع .. ! واستخدامه نوع من التحايل .

وكذلك أيضاً المبالغة سواء فى تقييم الأشياء ونوعياتها ، أو المبالغة فى وصف منافعها أو مضارها ، لكى توصل السامع إلى اقتناع معين ما يلبث أن يكتشف زيفه بعد حين ... !

كلها أساليب لا تتفق مع الاستقامة ولا تتفق مع احترام المتكلم لضميره ولا مع احترامه لضمائر الناس ...



الإنسان المستقيم هو موضع ثقة كل من يعاشره ، أو يتحدث إليه ...

واستقامتة تعطى فكرة عن روحياته وتدينه . فالاستقامة ليست مجرد فضيلة اجتماعية ...

إنما هى إحدى معالم الطريق الروحى وتكون عند الروحيين بمستوى أعلى وأعمق .

نقول ذلك لأنه قد يحدث أن البعض يعيشون فى جو الخدمة داخل الكنيسة و يكونون قد استبقوا معهم بعض أساليب العالم الخاطئة يحققون بها أهدافهم الكنسية .

فيخدمون ، و يستخدمون فى داخل الخدمة أساليب غير مستقيمة تكون عثرة لغيرهم !

على أن الإنسان الروحى يحتاج باستمرار أن يعود نفسه على الاستقامة مهما كلف ذلك من ثمن ، ومهما بذل فى سبيله ... بل حتى لو ظن أنه يخسر أحياناً بسبب استقامة أسلوبه فى التعامل وفى الخدمة ... إنها قد تكون خسارة مادية ، ولكنها مكسب روحى .

وعليه أن يرفض كل مكسب أو نفع يأتى عن طريق غير مستقيم ، شاعراً أنه ليس من الله ...

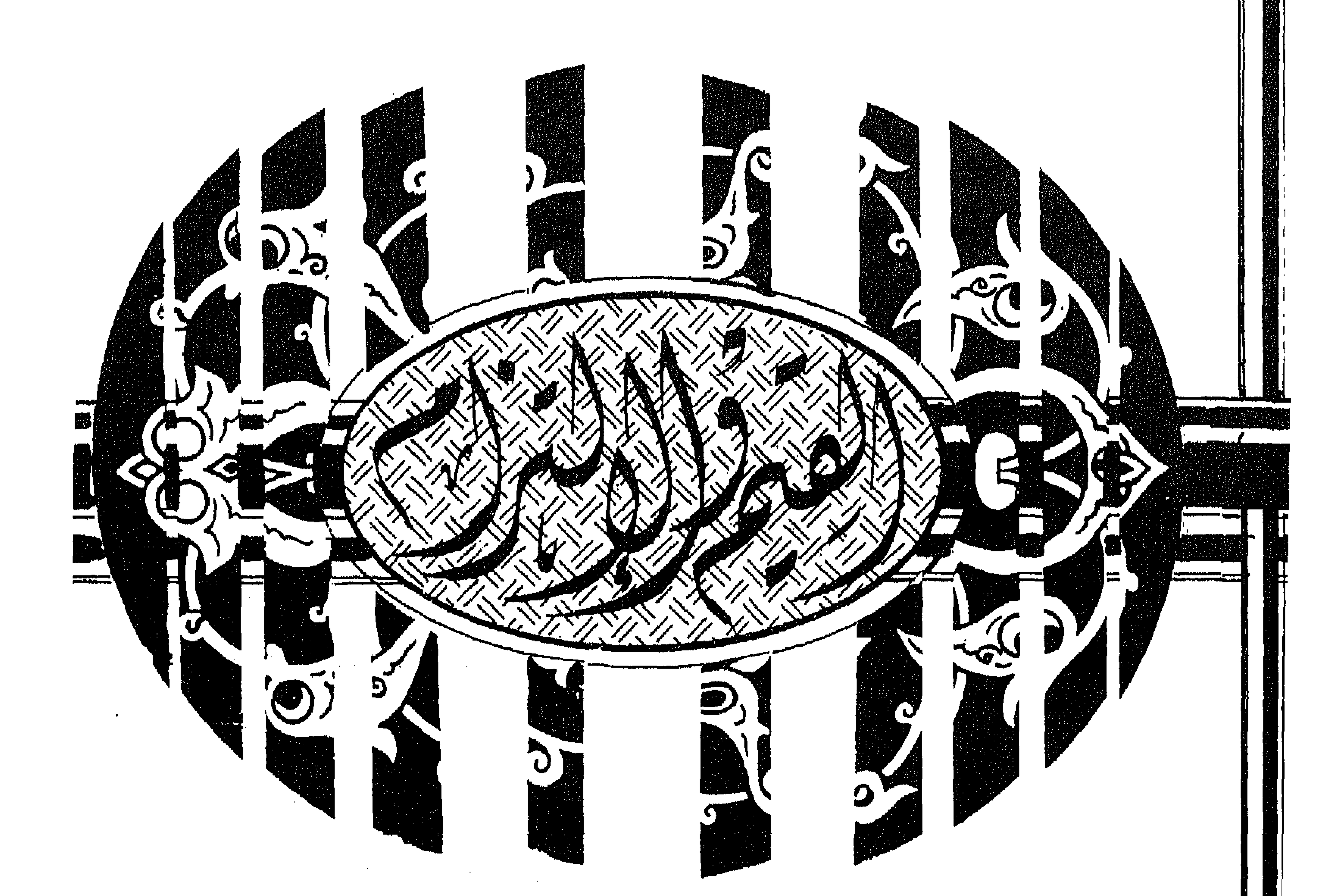
ولا يتساهل مطلقاً فى هذا الأمر ولا يشترك مع الذين يتساهلون .

إن أبدية الإنسان أهم من أية منفعة عالمية كذلك قدوته كإبن لله ، وعضو فى جسد المسيح ، يجب أن تكون بلا لوم أمام الكل .

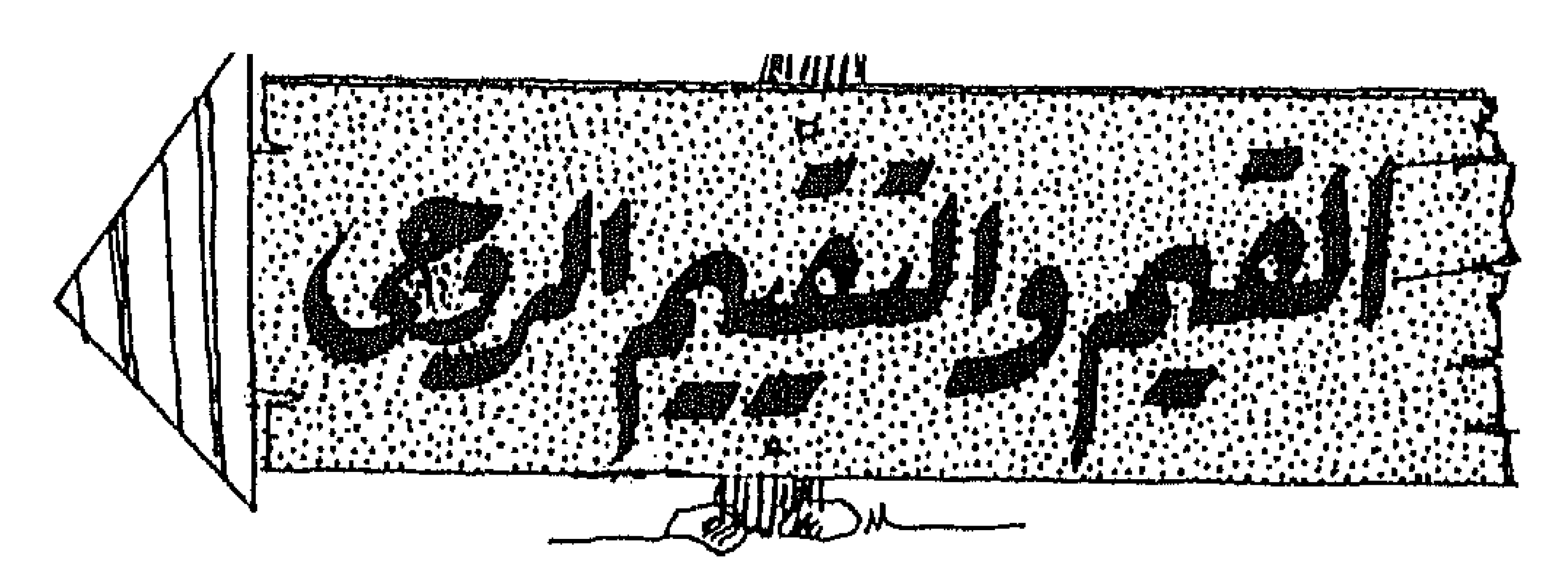
بهذا يعيش ضميره سعيداً ، و يعيش الناس مطمئنين له .

وعلينا أن نضع أمامنا قدوات الآباء القديسين ، ونسلك فى خطاهم ...

الفصل الثامن



الغرض والوسيلة .
معنى النجاح .
الاهتمام بالأبدية .
الروح والجسد .
الصلاة .
أنت والغير .
الراحة والتعب .
الالتزام .
الالتزام بالعهود .
عدم الالتزام .
صفات الملتزم .



لفظة « قيم » من الناحية اللغوية ، هى كلمة جمع مفردها قيمة ، وتعنى الأشياء ذات القيمة التى تقود الإنسان فى حياته . واصطلاحاً المقصود بها الأمور السامية ذات القيمة التى يهتم بها كل من يتبع طريقاً فاضلاً ، و يتمسك بها كمبادىء يبدأ بها كل عمل يعمله .

فما هى الأشياء التى لها قيمة فى تقديرك ، والتى تقودك فى حياتك ؟

إن الناس يختلفون من جهة القيم . فالإنسان الروحى له قيم عالية يضعها أمامه باستمرار . بينما هناك أشخاص فى العالم يعيشون بلا قيم ، أو لهم قيم أخرى غير روحية ، أو لهم تقييمهم الخاص للأمور . و بناء عليه يتبعون منهجاً آخر فى الحياة وسبلاً أخرى .

فى قلب كل إنسان يوجد اهتمام بشىء معين له القيمة الأولى فى تقديره الخاص . ومن أجل هذا الشىء يبذل كل جهده ، وفيه يركز كل عاطفته .

فهناك من يركز جهده فى المال و يعطيه كل القيمة ، وهناك من يركز القيمة كلها فى الشهرة أو العظمة .. وهناك من يجعل القيمة كلها فى النجاح أو التفوق ..

و بحسب هذا التركيز قد تختفى القيم السامية التى ربما لا يفكر فيها اطلاقاً .

وهنا يقف أمامنا موضوع هام هو:



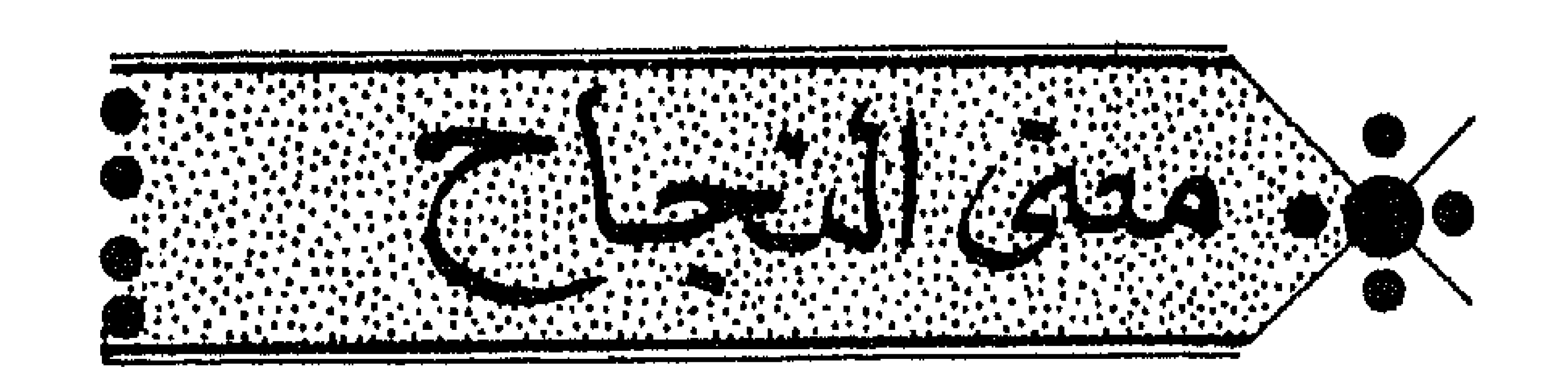
إنسان قد يضع أمامه غرضاً معيناً يعطيه كل القيمة ، وربما فى سبيل ذلك لا يهتم مطلقاً بنوعية الوسيلة الموصلة إليه .

فلا مانع مثلاً من الكذب والخداع والغش والحيلة لكى يصل إلى غرضه ، أياً كان هذا الغرض . فإن وصل يشعر بفرحة النجاح .. حتى إن كان قد ارتفع على جثث غيره ، أو كانت راحتة قائمة على تعب الآخرين ... .

لا شك أن هذا إنسان وصولى يعيش بلا قيم ، قد فقد الغرض والوسيلة كليهما .

والإنسان الروحى لابد أن يضع أمامه غرضاً صالحاً. ولابد أن تكون وسائله إلى هذا الغرض الصالح ، هى وسائل صالحة أيضاً.

فهكذا يكون اصحاب القيم والمبادىء وهنا نتعرض لمعنى آخر هو:



كل إنسان يشتاق إلى النجاح . ويمثل النجاح إحدى القيم التى يضعها أمامه .

ولكن ما هو النجاح ؟

ونقصد النجاح بمعناه الحقيقى ...

ذلك لأن الأشرار يفرحون أيضاً إذا ما نجحوا فى تحقيق الشر الذى يريدونه . وكل صاحب غرض يفرح بنجاحه فى الوصول إلى غرضه مهما كان خاطئاً . ونحن لا نقصد النجاح بهذا المعنى .

النجاح هو أن تنتصر على نفسك ، لا أن تنتصر على غيرك .

والنجاح هو أن تصل إلى نقاوة القلب وليس فقط إلى تحقيق أغراضك أياً كانت .

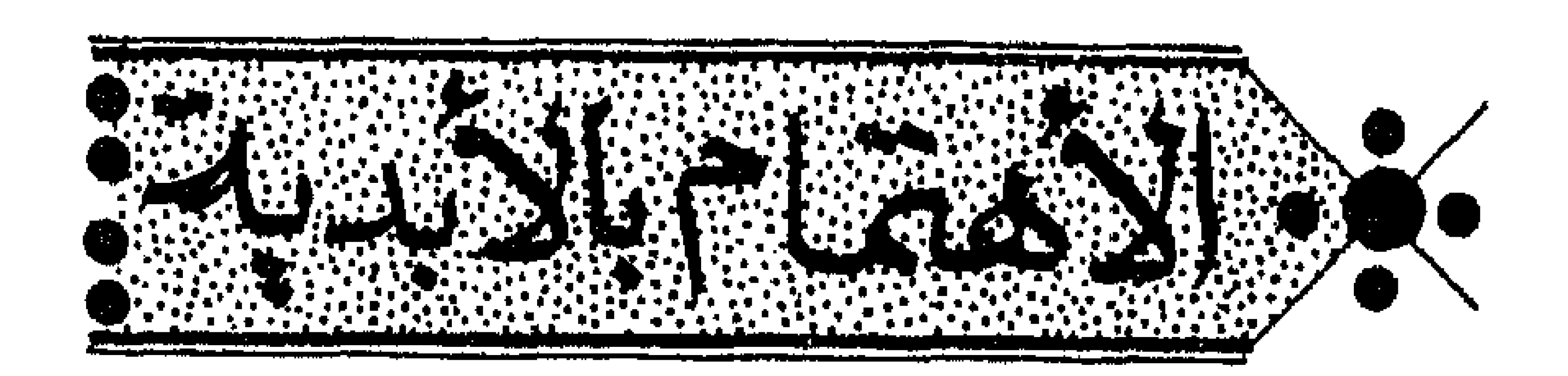
والنجاح هو أن تصل إلى ملكوت الله فى قلبك. وكل غرض آخر لك يكون داخل هذا الملكوت.

فإن خرج نجاحك عن هذه القيم ، يكون فشلاً لا نجاح .

لذلك كثيراً ما يفرح إنسان بأنه قد نجح ، بينما السماء قد ترثى لحاله .

وقد يظن أنه نجح فى أمر من أمور هذا العالم الحاضر، بينما يكون قد خسر أبديته .

وهنا لابد أن نعرض لإحدى القيم الهامة ، ولعلها أهمها ، وهى :



الإنسان الروحى يكون اهتمامه الأول هو بأبديته . و ينمو فى هذا الشعور، حتى نشغل الأبدية كل إهتمامه و يصبح تفكيره مركزاً فى مصيره الأبدى .

تصير الأبدية صاحبة القيمة الأولى فى حياته . وكل عمل أو غرض يتعارض مع أبديته ، يرفضه رفضاً كاملاً ، ولا يقبل فى ذلك نقاشاً . و يعتبر حياته الحاضرة مجرد تمهيد يوصل إلى الأبدية .

وهذا الاهتمام بالأبدية يجعل لحياته اتجاهاً روحياً طاهراً، ثابتاً فى الله، حريصاً على محبته وحفظ وصاياه.

هذا الاتجاه الروحى يفقده الذين جعلوا القيمة الأولى لحياتهم فى العالم ، من حيث المركز والمتعة . فانشغلوا بالعالميات انشغالاً ملك كل تفكيرهم ، وأنساهم تلك الحياة الأبدية . ولقد قدم لنا السيد المسيح مبدأ روحانياً نضعه نصب أعيننا فى طريقنا الروحى وهو:

« ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! أو ماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه؟ » (متى ١٦ : ٢٦) .

ليتك تسأل نفسك أيها القارىء العزيز: ما هى قيمة الأبدية فى حياتك؟ هل هى إحدى القيم الأساسية التى تحرص عليها ، ولا تبرح ذاكرتك فى أى وقت؟ أم أنت لا تفكر فيها على الاطلاق؟ تشغلك عنها أهتمامات كثيرة ، ناسياً قول الرب لمرثا :

« أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة . ولكن الحاجة إلى واحد » (لو١٠ : ٤٢) .

ما هى هذه الأمور الكثيرة من أمور العالم التى تنال منك اهتماماً وتقييماً أكثر من أبديتك ؟! أما آن الأوان أن تصلح موازينك الروحية ، وتعيد تقييمك للأمور، حتى تنال الأبدية ما يليق بها من اهتمام وتركيز، فى قلبك وفى فكرك وفى توزيع وقتك ؟

وحينما نتكلم عن الأبدية ، إنما نقصد الأبدية بالنسبة إليك، وأيضاً بالنسبة إلى غيرك ...

أى نقصد تقييمك لأهمية ملكوت الله فيك ، وفى سائر الناس ...

نقصد مدى حرصك أن تكون داخل هذا الملكوت ، وأن يكون كل من تعرفه داخل دائرة الملكوت أيضاً .

وهنا تبرز الغيرة المقدسة والخدمة كعلامة هامة من معالم الطريق الروحى ، وكإحدى القيم التى تقود حياتك .

وكلما ترتفع قيمة الأبدية فى فكرك وفى قلبك، على هذا الحد تصغر وتتضاءل قيمة العالم فى نظرك .

وهذه أيضاً واحدة من معالم الطريق الروحى : أن لا تعطى تقييماً لشيء من أمور هذا العالم ، واضعاً أمامك قول الرسول « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١يو٢ : ١٥) .

ليتك تسأل نفسك فى صراحة : ما هو تقييم العالم فى نظرك ؟

هل هو حياتك ومتعتك وشهواتك ؟ هل هو جميل بدرجة أنك لا تستغنى عما فيه من متع وملاذ ، وتحزن أن فارقته ؟!

أم العالم وكل الأشياء التى فيه ، هى مجرد « نفاية » كما رآها القديس بولس الرسول ؟ (فى٣ : ٨) .

لقد جرب سليمان الحكيم الأمرين كليهما : جرب النظر إلى العالم كمتعة ، فقال « مهما اشتهته عيناى ، لم أمنعه عنهما » (جا ٢ : ١٠) . ولما فقد هذا العالم قيمته

فى نظره، قال عنه إنه كله «باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس» (جا ٢ : ١١).

فما هى قيمة العالم فى نظرك؟ حسب تقييمك له، سيكون تعاملك معه.

هل هو تافه وباطل وقبض الريح؟ أم هو شهوة تجتذبك بعنف؟ شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة (١يو٢ : ١٦).

ليتك فى تقييمك للعالم، تؤمن ببطلانه، وتثق بأنه يبيد وشهوته معه (١يو٢ : ١٧).

هذه هى بعض القيم التى ينبغى أن تؤمن بها. وقد كان النسك والزهد نابعين من الإيمان بهذه القيم.

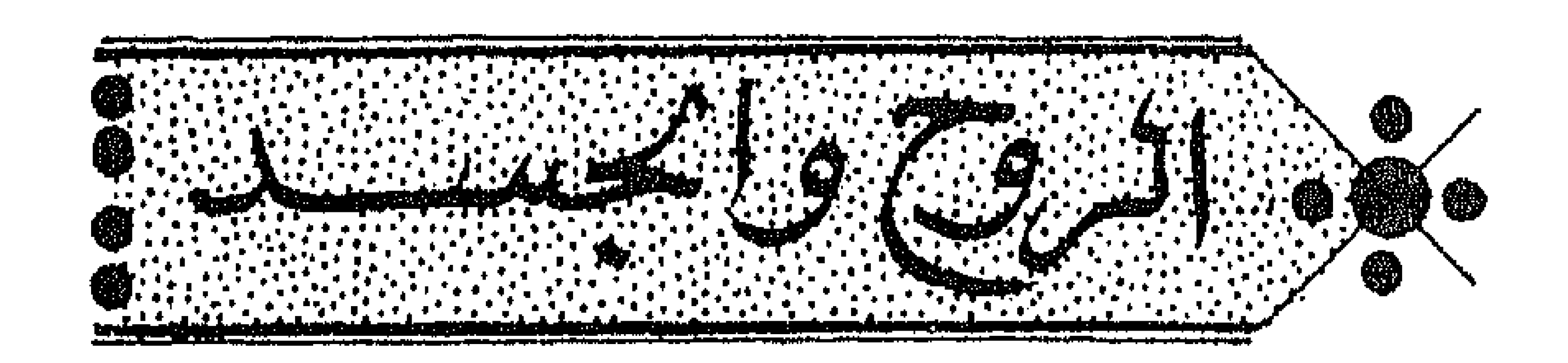
والرهبنة أيضاً نبعت من هذه القيم، وكذلك البتولية. بل أن الاستشهاد نفسه كان ثمرة للإيمان بقيم معينة، من جهة الأبدية والإيمان بتفاهة العالم.

ولقد جرب القديس أوغسطينوس شهوات العالم الكثيرة. ولكن لما زالت قيمته فى نظره استطاع أن يقول: جلست على قمة العالم، أحسست فى نفسى أنى لا أشتهى شيئاً ولا أخاف شيئاً.

إذن لكى تقتاد إنساناً إلى محبة الله، عليك أن تصلح موازينه، وتصحح قيمه ونظرته إلى الأمور.

لذلك حسناً قال الرسول «تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رو١٢ : ٢). وماذا يكون تغيير الذهن سوى تغيير مفاهيمه وتصحيح قيمه؟ لكى تستقيم نظرته إلى الأمور، وتأخذ اتجاهاً روحياً..

وهنا نسأل عن تقييمك لكل من احتياجات الروح والجسد.



لا شك أن غالبية الناس يقدمون كل الأهتمام أو غالبيته لأجسادهم . فيهتمون بطعام الجسد ، وبصحته ، وقوته وجماله . ويعطونه ما يحتاج إليه من غذاء ومن دواء ومن علاج ، ومن راحة ونشاط واستجمام .. ويهتمون نفس الأهتمام بأجساد أبنائهم وأقاربهم وصحتهم .

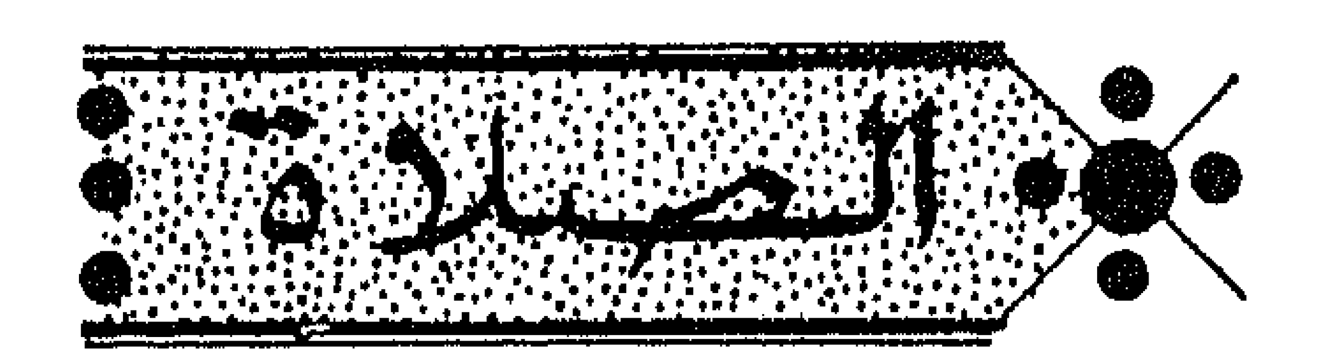
أما الروح فلا تأخذ نفس الأهتمام ، لأن تقييم احتياجات الروح ليس وارداً على الذهن ، وربما يكون مهملاً .

لذلك تضعف أرواح الناس ، إذ لا تجد غذاءها الروحى الكافى ، ولا الأهتمام بكل ما تحتاج إليه من تقوية ، ومن رياضة روحية ، ومن سائر المنشطات الروحية كالقراءة والتأمل والتراتيل والاجتماعات والصلاة والتداريب الروحية .

... إن التقيم الذى نعطيه للروح هو الذى يحدد مسلكنا فى الحياة ...

وهو الذى يجعلنا نهتم بالقيم الروحية وبالوسائل الروحية التى تنمينا روحياً وتدفعنا إلى التقدم باستمرار فى الطريق الروحى ...

وسنضرب مثالاً لإحدى القيم الروحية وهو :



ما هو تقييمك للصلاة ؟ ...

هل هى مجرد معونة لك فى وقت الضيق ؟ تلجأ إليها « حينما تحتاج » إلى الله !!

أم هى فرض عليك ، إذا لم تؤده تشعر بتأنيب ضمير ، لمجرد التقصير ؟

أم هى غذاء روحى لازم لك ، إن لم تتناوله تفتر فى حياتك الروحية ؟

أم هى متعة ، تشعر بحلاوة مذاقها ، فتنسى الدنيا وكل ما فيها ، وتود لو طال بك الوقت فى الحديث مع الله ؟

حسب تقييمك للصلاة، تكون درجة روحانيتك فيها، وتكون أيضاً قدرتك على الأستمرار فى عمل الصلاة.

اختبر إذن نفسك فى الصلاة، واختر التقييم السليم لها.

وإن استطعت أن تعرف قيمة الصلاة الحقيقية، ستصير لك - كما قال القديسون - كالنفس الصاعد والهابط، ترافقك حيثما كنت، ولا تستطيع مطلقاً أن تستغنى عنها.

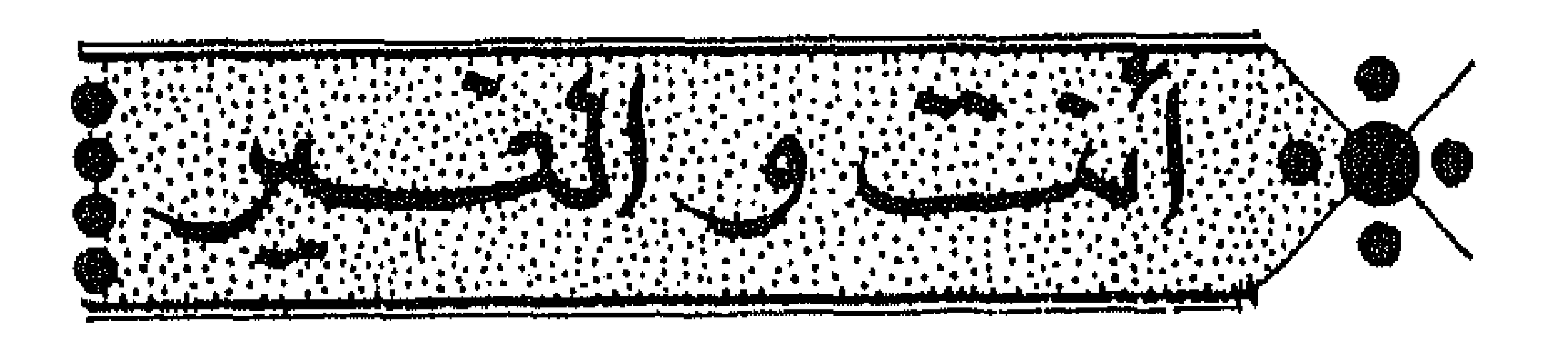
عيبنا أحياناً أننا نضع للذراع البشرى تقييماً أهم من الصلاة ... !

لذلك نفضل أن نعتمد على جهادنا وعلى ذكائنا وخبرتنا، أكثر مما نعتمد على الصلاة. ولهذا السبب، وأمثاله، كثيراً ما نضع الصلاة فى آخر اهتماماتنا ... ! فنصلى إن وجدنا وقتاً للصلاة، أو إن تذكرنا الصلاة أو ذكرنا بها أحد !!

وكل ذلك لأن الصلاة لم تأخذ منا التقييم الذى تستحقه. وهكذا الحال مع كل الوسائط الروحية الأخرى !

بل إن حياتك مع الله ربما تحتاج كلها إلى إعادة تقييم.

لكى تشعر بأهمية الله بالنسبة إليك، وأهمية حياتك معه فتعيد تدبير حياتك بناء على تقييم أمثل.. وإن كانت حياتك مع الله يلزمها هذا الأمر، فلا شك أن علاقتك مع غيرك من الناس أيضاً تحتاج إلى تقييم.



ما هى قيمة الإنسان فى نظرك ؟

هل تنظر إلى كل إنسان باعتباره أخاً لك فى البشرية، تحبه، و يهمك أمره، هل تهتم بكل أحد، كما يهتم الله بالكل، طبعاً حسب حدود قدراتك ؟.

هل تحرص على مشاعر الناس، كل الناس ؟ وهل تقدر قيمة النفس، أى نفس ؟

هل كل إنسان نفسه ثمينة عندك ؟ وهل كل إنسان نفسه تماماً كنفسك ، تحب له ما تحبه لنفسك ، وتحرص عليه وعلى مصالحه كما تحرص على أعز أحبائك . ما يصيبه يصيبك ، وما يفرحه يفرحك ، وما يسيئه يسيئك ؟

هذه هى إحدى القيم التى يحافظ عليها الإنسان الروحى ، أعنى تقديره لقيمة النفس البشرية ، وحرصه الشديد فى المحافظة على حقوق وعلى مشاعر كل أحد .

إنك يا أخى ، لو ارتفعت قيمة الإنسان فى نظرك ، لوجدت نفسك بالضرورة تحترم كل إنسان ، وتحب كل إنسان ، ولا تجرؤ أن تجرح شعور إنسان ما . ولا تجرؤ أن تخطىء إلى أحد ، ولا أن تخطىء مع أحد وتعثره .. تخاف أن يطالبك الله بدمه فى اليوم الأخير .

أنا أعرف أنك تهتم بمشاعر الكبار ، ولكنك قد تتجاهل الصغار وتنساهم .

أما الله ، هو إله الكل ، يهتم بالسيد كما يهتم بالخادم ، ويهتم بالكبير وبالصغير ، بالعاقل وبالجاهل . يشرق شمسه على الأبرار والأشرار ويمطر على الصالحين والطالحين .

ليس أحد منسياً عند الله .. كل نفس هى عزيزة عنده ، يرعاها كراع صالح يبذل نفسه عن الخراف (يو١٠) . فكن أنت هكذا ، لأن الله ترك لك مثالاً ...

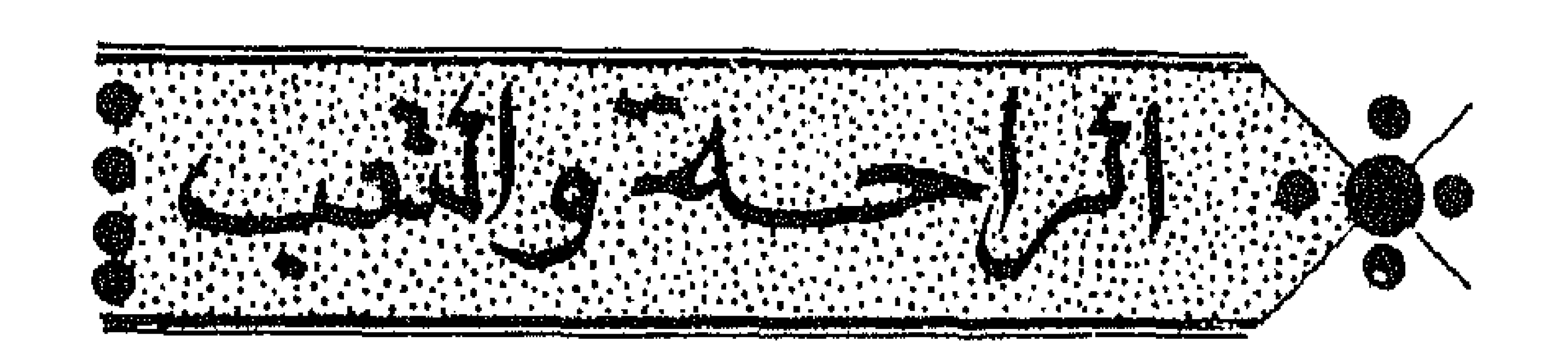
لو صار للإنسان هذه القيمة فى نظرك ، ستحترم حرية الناس ، وستحترم حقوقهم . لا تغضب أحداً ، ولا تغصب أحداً ، ولا تظلم أحداً ، ولا تضر أحداً ، ولا تشهر بسمعة أحد . بل تشمل بمحبتك الكل ...

وقيمة النفس البشرية تدعوك إلى الخدمة ، وإلى بذل نفسك من أجل خلاص الآخرين ...

فالذى يؤمن بقيمة النفس الواحدة ، يقول مع بولس الرسول « من يضعف وأنا لا أضعف ؟ من يعثر وأنا لا ألتهب » (٢كو١١ : ٢٩) . ويتذكر كيف أن السيد الرب ذهب يبحث عن النفس الواحدة ، التى لم تضع فى زحمة المجموع ، ولم تفقد قيمتها فى وجود التسعة والتسعين (لو١٥ : ٤ - ٧) .

إنه يتعب من أجل كل نفس .

هنا ونعرض لنقطة أخيرة هى :



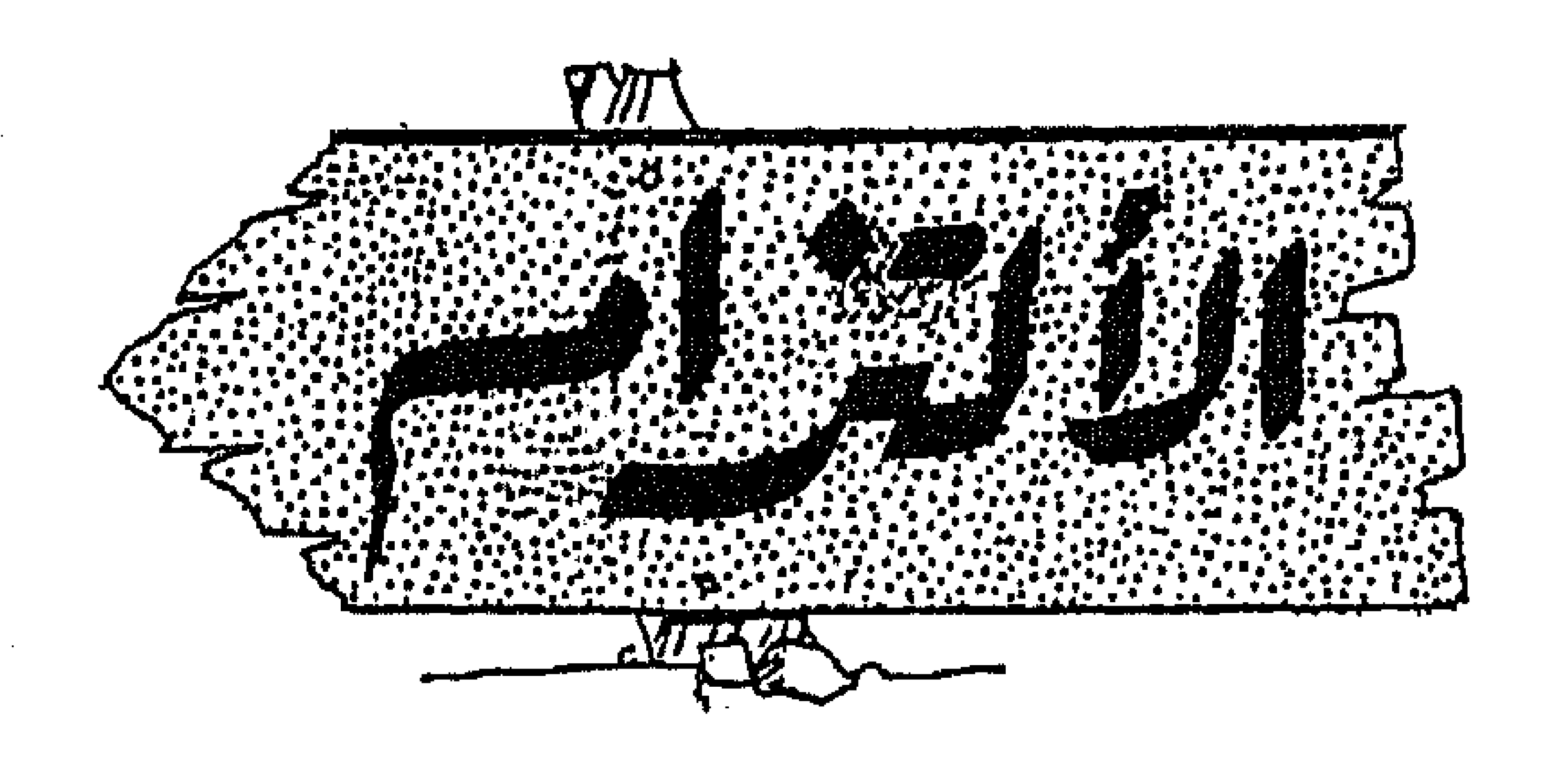
الإنسان العادى يهمه أن يستريح ، ولو تعب الناس ... أما صاحب القيم فيجد راحته الحقيقية فى أن يتعب هو ليستريح الناس .

الراحة عنده هى أن يريح غيره لا نفسه . والراحة فى مفهومه هى راحة ضميره وليس راحة جسده . وهو يدرك تماماً أن الراحة الحقيقية هى الراحة الأبدية ، وليست الراحة على هذه الأرض .

وكل إنسان فى الأبدية « سيأخذ أجرته بحسب تعبه » ههنا (١كو٣ : ٨).

لذلك فإن التعب من أجل الخير هو إحدى القيم التى يهتم بها الإنسان الروحى ، وهو أحد معالم الطريق .

اكتفى بهذا الآن لأن الموضوع طويل ...



من أهم معالم الطريق الروحى : الالتزام والإنسان غير الملتزم ليس هو إنساناً روحياً على الإطلاق.

الإنسان الروحى يلتزم بكل كلمة يقولها ،وبكل وعد يعد به ، وبكل اتفاق يبرمه مع آخرين ، وبكل نظام يخضع له ، وبكل عهد بينه وبين الله .

كما أنه يلتزم بمبادىء معينة وقيم واخلاقيات . وقواعد روحية يتبعها ...
إنه يحيا حياة على مستوى المسئولية ولذلك فهو محترم من الكل إن قال كلمة تكون عند الناس لها أهميتها ووزنها ، بل تكون أفضل من أى اتفاق مكتوب وموثق . بل حتى إن لم يقل كلمة ، وهز رأسه بعلامة الموافقة ، يدركون تماماً أنه سيلتزم بهذه الموافقة ، دون شهود ، ودون امضاء ...

إلتزامه دليل على الرجولة ، واحترام الكلمة ، واحترام الوعد والاتفاق . إنه سلوك شريف ...

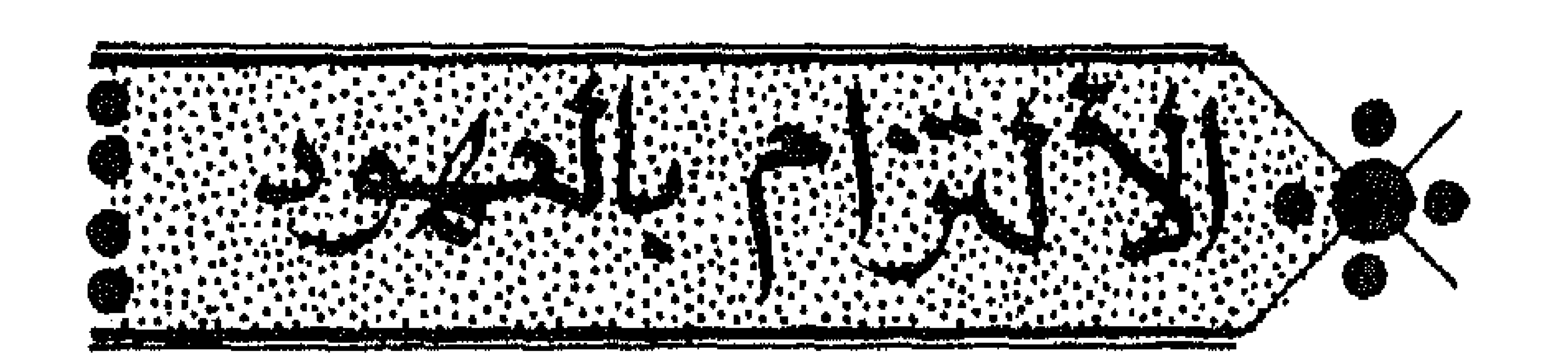
إنه يلتزم بما يقرره وما يفرضه على نفسه . كما يلتزم بما يفرض عليه من جهة النظام العام ، ومن جهة المبادىء الروحية . وكذلك يشعر بأن هناك التزاماً بينه وبين الله فى طاعته وحفظ وصاياه .

والكتاب المقدس يضرب لنا أمثلة رائعة فى فضيلة الالتزام .
إبراهيم أبو الآباء التزم بحياة الطاعة ، فنفذها بكل ما فيها من صعوبة .
اطاع الله حينما دعى أن يترك أهله وعشيرته ، ويسير وراء الله دون أن يعلم إلى

أين يذهب (عب ١١ : ٨) . ووصل التزامه بالطاعة إلى أعلى مستوياته حينما قدم إبنه الوحيد محرقة ، وهو الذى قبل المواعيد من اجله ...

ويفتاح الجلعادى كان مثلاً فى الالتزام لقد نذر نذراً للرب . وكان تنفيذه فوق طاقة القلب البشرى . ولكنه نفذه فى احترام لعهده مع الرب (قض ١١ : ٣٤ ، ٣٥)

وعكس ابراهيم ويفتاح ، كان شمشون الذى لم يلتزم بنذره ، فضيع نفسه وفقد قوته وسباه اعداؤه ، وصار مثلاً (قض ١٦ : ١٧) .



الإنسان الروحى يلتزم بعهوده للرب فهل أنت قد وفيت بكل عهودك ؟

أول عهد كان بينك وبين الله ، هو تعهدك فى يوم معموديتك أن تجحد الشيطان وكل حيله وشروره وكل جنوده وكل أعماله الرديئة . فهل أنت مازلت ملتزماً بهذا العهد عملياً ؟ .

وأنت فى كل اعتراف وتوبة تتعهد أمام الله أن تترك الخطية ولا تعود إليها . فهل التزمت بهذا ؟

وأنت فى كل يوم للتناول ، تتعهد تعهدات كثيرة . أتراك تذكرها ؟ وهل نفذتها ، أم لم تكن ملتزماً .

وكم من مرة وقعت فى ضيقة شديدة ، وتعهدت أمام الله إن هو أنقذك أن تفعل كذا وكذا... هل أنت ملتزم بكل ما تعهدت به أمام الله فى ضيقتك .

هوذا داود النبى يقول « أوفى للرب نذورى قدام كل شعبه » (مز ١١٥) فهل أنت كذلك ، التزمت بكل نذورك ؟ أم تراك بعد أن تنذر ، تعود وتراجع فكرك ! وقد تؤجل الوفاء بالنذر ، أو تغيره ، أو تنساه .. !

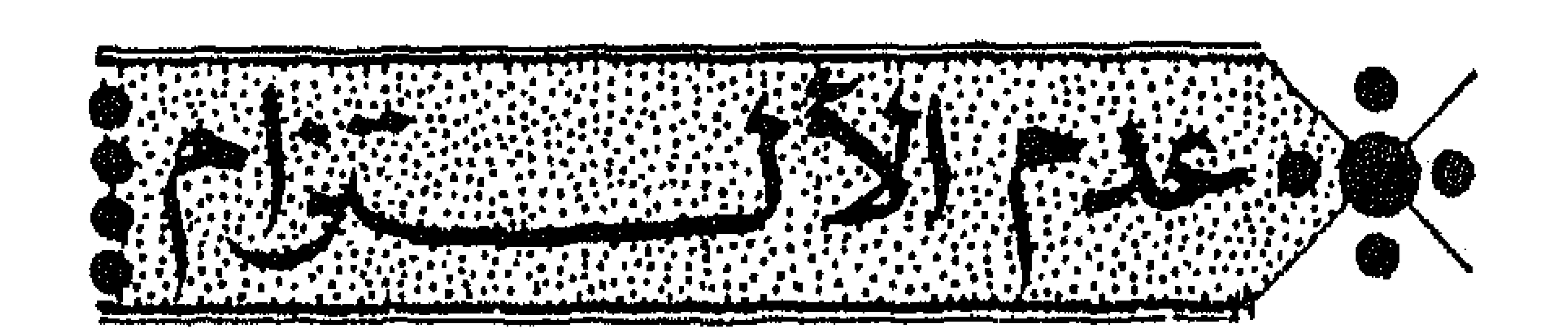
بل هل أنت ملتزم بما تقول لله فى صلواتك ؟ إنك تقول فى كل صلاة « اغفر لنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا » فهل أنت حقاً تغفر كما تقول ، أم أنك غير ملتزم

بكلمات صلاتك ؟! راجع كل ما تقوله فى الصلاة ، وطبقه على حياتك العملية ، وانظر أين أنت .

كم عيد رأس سنة مر عليك ، ووقفت أمام الله تعد وتتعهد ... وكم مناسبة مقدسة وقفت فيها قدام الله تتكلم. وكم من فترات روحية مرت بك فى اشتعال القلب بالتوبة ، وقلت لله وعوداً وعهوداً ، ولم تلتزم بشىء . ولسان حالك ما قيل فى قصيدة « أيها النجم » .

كم وعدت الله وعداً حانثاً

ليتنى من خوف ضعفى لم أعد .



إن عدم الالتزام فيه لون من اللامبالاة ومن التسيب ، والتحلل من كل رباط ، وكل شرط ، وكل اتفاق ، بطريقة لا تدعو إلى الاحترام. وعدم الإلتزام ليس فيه أى شعور بالمسئولية ، ولا بالجدية . بل هو دليل على الضعف .

وعدم الالتزام ظهر من بدء الخليقة فأبوانا الأولان لم يلتزما بالوصية التى سمعاها من الله ، فطردهما من الجنة. ورأينا كم جرا على البشرية من ويلات بسبب عدم التزامهما هذا ...

وبنو اسرائيل أيضاً وقعوا فى عدم الالتزام على أبعد الحدود . فحينما قدم لهم موسى النبى وصايا الله العشر، صاحوا كلهم قائلين لموسى «كل ما يكلمك به الرب إلهنا نسمع ونعمل» (تث ٥ : ٢٧) .

فهل التزموا بهذا التعهد ؟ أم بعد حين عبدوا العجل الذهبى « خر٣٢ » ؟ وهل التزم بهذه العبارة أى جيل من أجيال البشرية ؟! ما أجمل قول داود النبى ، تعهدات فمى باركها يارب .

أتعنى هذه الطلبة « اعطنى يارب روح الالتزام ، حتى انفذ كل هذه التعهدات ، ولا أحنث بوعودى » ... ؟

إن كانت اتفاقاتنا مع الناس يجب علينا تنفيذها بروح الالتزام ، فكم بالأكثر تكون اتفاقاتنا مع الله ؟!

ولكن غير الملتزم يحاول أن يغطى عدم إلتزامه بكثير من الأعذار والحجج والأسباب ليفلت من المسئولية .

ما أكثر أنه يعتذر بالعوائق والموانع ، أو بأن الأمر خرج عن نطاق إرادته وقدرته ، أو أن الظروف لم تسمح ، أو أنه قد نسى ، أو لم يجد الوقت ، ولم يجد الأمكانية ... وغالباً ما يكون السبب الحقيقى هو أنه لم يتعود أن يحيا حياة الألتزام ، وأن يحترم كلمته .

أما الإنسان الروحى الملتزم ، فإنه يبذل كل جهده للإنتصار على العوائق . إنه ينفذ التزامه مهما حدث ، ومهما كانت الصعوبة ، كرجل على مستوى المسئولية . بل أنه يشعر باحتقار لنفسه فى داخله ، حينما يقدم عذراً لاعفائه من التزامه ...

لذلك فأنت تشعر بالراحة حينما تعمل مع إنسان يتميز بالالتزام .

إن اتفقت معه على شىء ، توقع تماماً أنك سائر فى طريق مضمون ، لابد سيأتى بنتيجة سليمة ... إنك فى عملك مع الملتزمين ، تنام مستريحاً واثقاً بأنك تعمل مع إنسان يقدر الموقف ، ويحترم اتفاقاته .

غير الملتزم يسلك حسب هواه ، ولا يبالى بأمر أو نظام ، ويحاول أن يتحلل من كل ما يراه قيداً .

إنه يسلك بغير التزام ، سواء فى حياته العلمانية أو حياته الروحية . بل قد لا يقبل الخضوع لشىء من النظام العام ، شاعراً بأن هذه هى حريته الخاصة ، مهما كسرت هذه الحرية فى طريقها من نظم أو قواعد . لذلك فإن غير الملتزم لا يفهم المعنى الحقيقى للحرية . ظاناً أن الحرية هى لون من التسيب لا يلتزم فيه بشىء ، ومعتقداً أن النظم هى قيود تقيد فكره وارادته ، بينما الحرية الحقيقية هى أن يتحرر من الشهوات والرغبات والعادات التى تستعبده .

وإذ يتحلل من الالتزام باسم الحرية ، يضطر المجتمع أن يلزمه بالقوة فيخرج من الالتزام إلى الإلزام .

وهكذا تلزمه القوانين والعقوبة ، ويحتاج من المجتمع إلى مراقبة ومحاسبة ومتابعة وتفتيش . فإن أصر على عدم التزامه يتعرض للجزاء فيضطر أن يلتزم على الرغم منه . وتصبح طاعته خضوعاً للالزام وليس حباً للالتزام .

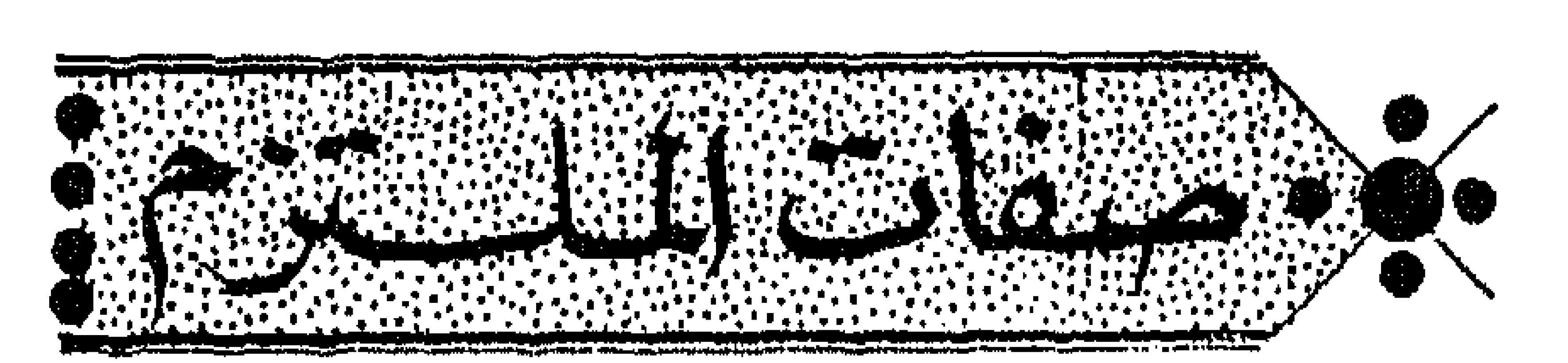
أما فى المحيط الروحي والكنسى ، فإنه فى غمرة المناقشات ومحبة الجدل ، قد يقول البعض : وما جدوى الالتزام ، ونحن نعيش فى النعمة ولسنا تحت الناموس ؟

إن النعمة لا تتعارض مع الالتزام فالذى ارتفع فوق مستوى متطلبات الناموس بالنعمة ، هذا لا يطالبونه بناموس . أما الذى هو أقل من ذلك فإنه مطالب .

مثال ذلك العشور ... أنت غير مطالب بناموس العشور، إذا كنت تدفع أكثر منها ، بمبدأ «من سألك فاعطه ، ومن طلب منك فلا ترده» أو «بع كل مالك واعطه للفقراء» هذا هو مستوى النعمة . فإن كنت لم تصل إليه فأنت ملتزم بالعشور...

كذلك قد يعارض البعض فى الصلوات السبع اليومية كأنها ناموس . إن كنت قد ارتفعت فوق هذا المستوى ، ووصلت إلى الصلاة بلا أنقطاع أو الصلاة كل حين ، أو صارت حياتك كلها صلاة ، ربما يكون سؤالك موضعاً للمناقشة . أما إن كنت فى مستوى أقل بكثير من الصلوات السبع ، فأنت لاشك ملتزم بها . وهى تعلمك الصلاة الدائمة .

ليتنا يا أخوتى نعيش جميعاً فى حياة الالتزام ، لأنها تشمل داخلها حياة الطاعة وحياة الاتضاع . وكذلك فيها الجدية والتدقيق ، وفيها مخافة الله . لأن كل الفضائل مرتبطة بعضها بالبعض الآخر.



صفات الملتزم

إن الملتزم يحترم نفسه ، ويحترم كلمته ، ويحترم وعوده ، ويحترم علاقاته مع الناس . والتزامه يولد الثقة فيه وفى عمله وتصرفاته ...

إنه موضع تقدير من الكل . يدركون جميعاً أنه يمكنهم الاعتماد عليه ، ويمكنهم الثقة بكلمته ، والتعاون معه . لأنه من النوع الذى يصمد أمام العوائق ، و ينتصر على العقبات ، ولو أدى الأمر أن يضغط على نفسه ويحتمل ، لكى ينفذ ما إلتزم به .

وهو لا يلتزم بالعمل فقط ، وإنما أيضاً بنوعية ممتازة فى أدائه .

لذلك فالملتزم دائماً يحالفه النجاح و يشعر أن عمله وحسن أدائه ونجاحه فيه ، كل هذا جزء من ضميره ، وجزء من شرفه ، ومن احترامه لنفسه .

وهو يهتم بكل هذا ويحرص عليه كذلك هو يشعر أن أى تقصير فى هذا الالتزام ، إنما يسبب حرجاً له ولكل المتعاونين والمتضامنين معه .. فيجنبه كل ذلك فى وفائه بالتزامه .

وهو خارج محيط العمل مع الناس ، يسلك بالتزام فى حياته الخاصة وفى كل ما يمس روحياته ...

إنه يكون ملتزماً فى كل نظام روحى يصنعه لنفسه ، أو يضعه له أب اعترافه . وهو ملتزم بكل التداريب الروحية التى يسلك فيها .

هو ملتزم أيضاً فى نظام صلواته وأصوامه « ومطانياته » وقراءاته الروحية ، لا يحيد عنها ، ولا ينقص منها ، ولا يضع أعذاراً لتبرير التقصير فيها . ولا يجد فى الظروف الخارجية منفذاً يخرج منه إلى عدم الالتزام .

لذلك فالملتزم يكون باستمرار قدوة ودرساً لغيره يتعلمون من حياته الجدية .

بعكس غير الملتزم الذى يصبح قدوة سيئة تعثر الآخرين . وقد ينتج عنها أن يقلده غيره فى عدم إلتزامه ، فترتبك الأمور . و يتعلم أولئك تبرير تقصيرهم ! .

والملتزم يحرص على كل طاقاته ، لكى يستطيع الوفاء بالتزاماته ... فهو يحرص كل الحرص على وقته ، لأنه ملتزم بخدمة أو بمواعيد ليس من عادته أن يقصر فيها .. أو إنه يحرص على هذا الوقت لكى يستغله فى اتقان عمل عهد به إليه . إنه لا يضيع جهده وقوته ووقته فى تفاهات تعرض له أو فى تسليات . لأنه إن سلك فى هذا الطريق لا يمكنه أن يفى بما التزم به .

والملتزم يذكر نفسه دائماً ، حتى لا ينسى شيئاً من التزامه . إنه لا يعترف بالنسيان حجة تعذره إذا قصر . لذلك فهو يسجل فى مفكرته ما عليه من مسئوليات ، و يتابع قراءتها لكى لا ينسى ...

وهو فى خدمته أيضاً يسلك بروح الالتزام الذ يجب أن يتصف به كل خادم روحى ناجح .

إنه يلتزم بمواعيد الخدمة ، فلا يتأخر عنها ولا ينساها . وهو يلتزم بالمنهج ، فلا يخرج عنه ولا يخترع له منهجاً خاصاً . وهو يلتزم أيضاً بتحضير درسه حتى يكون دسماً مشبعاً لسامعيه ، ولا يقصر فى ذلك بحجة سابق معرفته و يلتزم كذلك باجتماع الخدام و بنظام الخدمة من كل ناحية .

والخادم الروحى يلتزم بالوقت أيضاً فلا يدعى إلى عظة تستغرق ساعة ، فيلقيها فى ساعتين دون أن يبالى بوقت الحاضرين ومواعيدهم الخاصة . كما يلتزم بموضوع العظة ، فلا يضيع الوقت فى أمور جانبية لا علاقة لها به وهكذا فإن الخادم الملتزم يكون دقيقاً فى كل شىء : فى الوقت وفى مادة الموضوع .

والالتزام هو أيضاً عنصر اساسى فى حياة الرعاة والكهنة . فيكونون ملتزمين باداء كل واجبات عملهم الكنسى ، من خدمات طقسية ، وافتقاد للشعب كل الشعب ، ومواعيد للاعتراف ، ولزيارة المستشفيات والمرضى والحزانى . وهم أيضاً ملتزمون بواجباتهم نحو الفقراء والمحتاجين . وملتزمون بأن يقدموا أنفسهم مثالاً لكل فضيلة .

أما الراعى غير الملتزم ، فلا يرى أمامه واجباً محدداً عليه اداؤه . وهو فى خدمته يعمل ما يحلو فى عينيه دون التزام بشىء ، ودون خطة أو نظام ! .

والالتزام يدخل أيضاً فى نطاق التعليم وفى نطاق العقيدة .

فكل إنسان يقف على منبر التعليم ، يكون ملتزماً بتعليم الكتاب وعقيدة الكنيسة ، فلا يقدم للسامعين فكره الخاص ، أو معتقداته الخاصة ، أو ما أمكنه جمعه من قراءاته الخاصة . إنما هو ملتزم أن يعمل ما يقوله الكتاب وما وصل إلى الكنيسة بالتقليد وفى ذلك قال القديس بولس الرسول لتلميذه الأسقف تيموثاوس « وما سمعته منى بشهود كثيرين ، أودعه أناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً » (٢تى ٢ : ٢) .

لذلك فالإنسان الروحى هو ملتزم أيضاً بتعليم الكنيسة ونظمها وطقوسها وأصوامها وصلواتها وكل قوانينها .

فلا يسلك فى طريق ، والكنيسة كلها فى طريق آخر. لأنه فى التزام الجميع تجد وحدة القلب ، ووحدة الفكر ووحدة العبادة ، ووحدة الإيمان.

لذلك فحياة الالتزام تناسبها أيضاً حياة الاتضاع. لأن المتضع يخضع لما يوضع له من نظام. أما غير المتضع فيفسر الأمور حسب فكره.



الفصل السادس :



أهمية الحكمة والإفراز

حكمة الله وحكمة العالم .

مصادر الحكمة .

أهم مجال تلزمه الحكمة .

الحكمة تعطى المفهوم السليم .

ما بين الذكاء والحكمة .

معطلات الحكمة .

الحكمة بين الصمت والكلام .

الحكمة بين الكآبة والفرح .

خطورة الآية الواحدة .

الإفراز فى التداريب الروحية .

الإفراز فى القراءة والتطبيق .

مثال الطيبة والحزم .

الإفراز بين الخوف والحب .



أهمية الحكمة والافراز

سئل القديس الأنبا أنطونيوس « ما هى أعظم الفضائل ؟ » فأجاب : **« الافراز هو بلا شك أعظم الفضائل » ومعنى الافراز هو أن يفرز الإنسان الحق من الباطل . ويميز الخير من الشر...**

لأن كثيراً من الناس يصومون ، و يصلون ، و يعترفون و يتناولون ، و يقرأون الكتاب المقدس ، ومع ذلك يفشلون فى حياتهم الروحية ، لأنه ليس لديهم افراز.. أى أنهم يمارسون كل ذلك بلا حكمة ، بلا فهم ، بلا تمييز.

فالمفروض فى الإنسان أن يسلك فى كل فضيلة بحكمة . يفهم أولاً معنى وكنه هذه الفضيلة ، و يعرف كيف يمارسها ، ومتى .. وهكذا يتخلل الافراز كل فضيلة ...

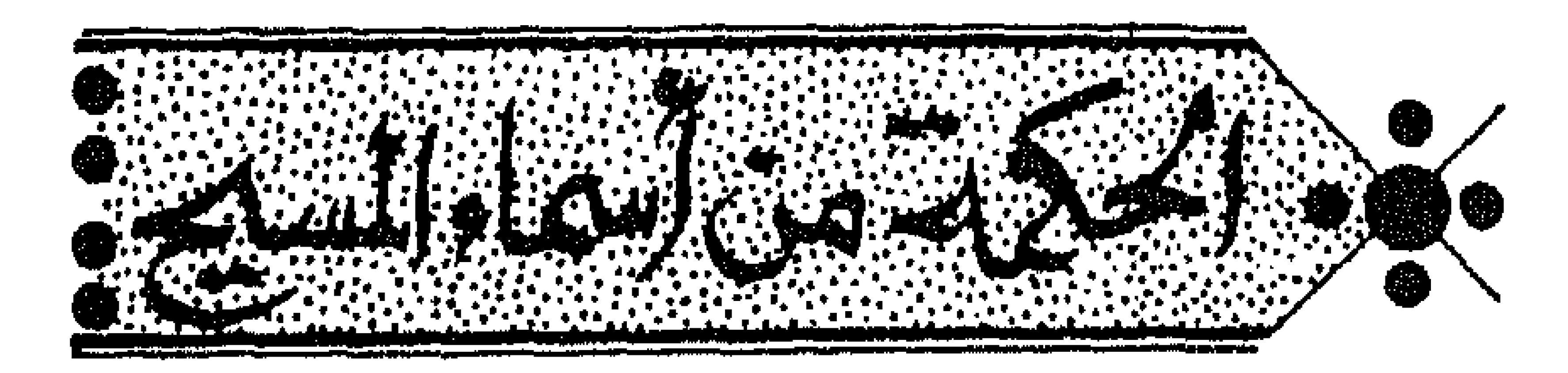
وقد قال الكتاب « الحكيم عيناه فى رأسه ، أما الجاهل فيسلك فى الظلام » (جا٢ : ١٤) . وقد نبه السيد المسيح كثيراً إلى هذه الحكمة ، حتى قيل إنه مدح وكيل الظلم ، لأنه بحكمة صنع (لو١٦ : ١٨) وفى أهمية السلوك بحكمة ، قال :

« كونوا بسطاء كالحمام ، وحكماء كالحيات » (متى ١٠ - ١٦) .

وهكذا سلك كل أولاد الله بحكمة فى حياتهم وفى خدمتهم . ونرى أن القديس بطرس الرسول امتدح الحكمة التى كان يبشر بها القديس بولس الرسول فقال « كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاه له « ٢بط ٣ : ١٥) .

وكانت الحكمة شرطاً لازماً حتى فى اختيار الخدام ، من درجة الشمامسة .

وهكذا فى اختيار الشمامسة السبعة قال آباؤنا الرسل « انتخبوا أيها الرجال الأخوة سبعة رجال منكم مشهوداً لهم ومملوئين من الروح القدس والحكمة ، فنقيمهم نحن على هذه الحاجة » (أع٦ : ٣) .



ومن أهمية الحكمة إنها لقب من ألقاب الأقنوم الثانى من الثالوث القدوس .

فالرسول يتحدث عن السيد المسيح فيقول إنه «حكمة الله وقوة الله» (١كو١ : ٢٤) و يقول أيضاً إنه : «المدخر فيه جميع كنوز الحكمة» (كو٢ : ٣) .

وقيل عنه فى سفر الأمثال «الحكمة بنت بيتها ، نحتت أعمدتها السبعة» (أم٩ : ١) . يقصد اسرار الكنيسة السبعة .

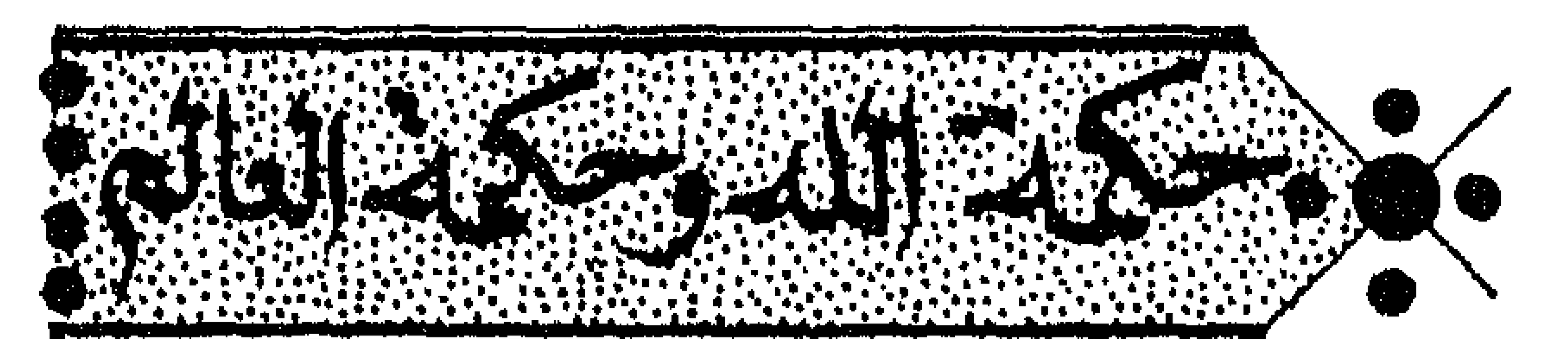


إن الذى يسكن فيه روح الله ، لابد أن تسكن فيه الحكمة .

فقد قيل عن الروح القدس فى سفر اشعياء النبى إنه روح الرب ـ روح الحكمة والفهم ، روح المشورة . روح المعرفة ... (اش ١١ : ٢) .

قال عنه القديس بولس لأهل أفسس إنه «روح الحكمة والاعلان» وإن أخذوه ، تستنير عيون أذهانهم» (أف ١ : ١٧ ، ١٨) .

وذكر الرسول أن الحكمة هى من مواهب الروح القدس (١كو ١٢ : ٨) .



إننا نميز بين حكمة الله ومكر العالم كما قيل «الآخذ الحكماء بمكرهم» (١كو٣ : ١٩) .

والقديس بولس الرسول شرح بتفصيل كبير الفرق بين حكمة الله ، وحكمة العالم التى تبيد (١كو١ : ١٩) . وقال إن «حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله» (١كو٣ : ١٩) . وسماها «حكمة الناس» (١كو٢ : ٥) وحكمة «حب الجسد» (١كو١ : ٢٦) . «وحكمة من هذا الدهر» (١كو٢ : ٦) ... وعنها قال «إن الله اختار جهال هذا العالم ليخزى بهم الحكماء» (١كو١ : ٢٧) .

وفى مقابل هذا ، تكلم عن الحكمة الروحية التى من الله ومن روحه .

فقال «لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر.. نتكلم بحكمة الله فى سر، الحكمة المكتومة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا» (١كو٢ : ٦، ٧).

وهذه الحكمة التى من الله ، قال عنها القديس يعقوب الرسول إنها «الحكمة التى من فوق» وشرح تفاصيلها .

فقال : «وأما الحكمة التى من فوق، فهى أولاً طاهرة، ثم مسالمة مترفقة، مذعنة، مملوءة رحمة، وأثماراً صالحة» (يع٣ : ١٧).

وفرق بينها وبين حكمة العالم التى وصفها بأنها «أرضية نفسانية، شيطانية» (يع٣ : ١٥). وبأن منها «التحزب والغيرة والتشويش، وكل أمر ردىء».

حكمة العالم فيها المكر والخبث ، وربما من وسائلها الكذب والخداع ، ولها كثير من السبل يدخل فيها الشيطان .

وهكذا سلكت الحية «أحيل جميع حيوانات البرية» (تك٣ : ١). حينما خدعت أمنا حواء.. وهكذا سلكت أيضاً إيزابل زوجة الملك الشرير آخاب حينما دبرت له حيله يمكنه بها أن يستولى ظلماً على حقل نابوت اليزرعيلى (١مل٢١ : ٥-١٥).

وبحكمة عالمية أيضاً سلكت أمنا رفقة لكى تحصل لإبنها يعقوب على بركة أبيه .

وكان ذلك بالكذب والخداع والحيلة حتى أن يعقوب خاف وقال لها «ربما أجلب على نفسي لعنة لا بركة» (تك٢٧ : ١٢).

ليست كل وسيلة توصلك إلى غرضك هى وسيلة سليمة .

من العجيب أن طرق العالم كثيراً ما توصل بسرعة .. ولكنها غير مقبولة أمام الله .

أبونا ابراهيم أخذ قطورة زوجة، فولدت له زمران و يقشان ومدان ومديان و يشباق وشوحاً ... ومن هؤلاء ولد له شبأ، ودوان، واشوريم، ولطوشيم ولاميم وآخرون (تك ٢٥ : ١ - ٤). ولكن لم يكن هؤلاء مقبولين أمام الله ... إنها نتيجة سريعة، ولكنها وسيلة بشرية وغير مقبولة.

ومن أمثلة الحكمة البشرية غير المقبولة من الله مشورة اخيتوفل.

إنها ذكاء بشرى يأتى بنتيجة ولكنه ذكاء شرير، يصلى الابرار أن ينجيهم الرب منه «(٢صم ١٥ : ٣١).

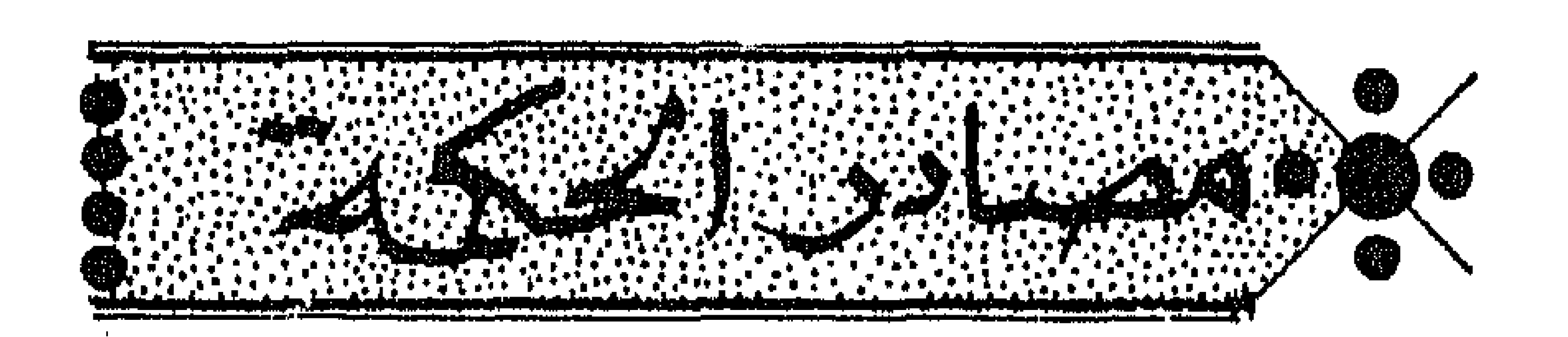
وبالمثل : المشورة التى قدمها بلعام لبالاق (رؤ٢ : ١٤).

وبالمثل كل خدع الشيطان التى سيضل بها العالم فى آخر الزمان وحيله أيضاً فى كل زمان.

إنه ذكاء، ومعرفة، وحيلة تأتى بنتيجة، أو هى الحكمة الشيطانية التى ذكرها معلمنا يعقوب الرسول (يع ٣ : ١٥).

وكل هذه أمور ينبغى أن نهرب منها، وأن نرفض نتائجها مهما بدت فى صالحنا.

ومهما قدم لنا الشيطان، أو مهما قدم لنا ذكاؤنا البشرى ... فكراً يبدو لنا صالحاً، فلنرفضه، إن كانت وسائله غير سليمة، أو إن كان غير روحى. والكتاب يحذرنا قائلاً «توجد طريق تبدو للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت» (أم ١٤ : ١٢ - أم ١٦ - ٢٥).



أول مصدر هو الله، بالصلاة، وفى ذلك يقول الرسول :

«إن كان أحدكم تعوزه حكمة، فليطلب من الله ... وليطلب بإيمان غير مرتاب البتة» (يع ١ : ٥، ٦).

وهكذا نحن باستمرار نطلب الارشاد من الله، نطلب إليه أن ينير عقولنا وقلوبنا، ويلهمنا الحكمة من عنده، ويعرفنا كيف نتصرف... ومادامت «الحكمة نازلة من فوق» (يع ٣) فلنطلبها إذن من فوق.

والمصدر الثاني هو المشورة، التي من أناس يتكلم الله على أفواههم.

وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول « اذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله... اطيعوا مرشديكم واخضعوا، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم، كأنهم سوف يعطون حساباً» (عب ١٣ : ٧- ١٧).

وما أصدق تلك العبارة الجميلة التي تقول «الذين بلا مرشد يسقطون مثل أوراق الشجر.

والمصدر الثالث للحكمة هو طلبها من ذوي الحكمة والخبرة.

وفي ذلك قال الشاعر:

إذا كـــنـــت في حـــاجـــة مـــرســـلاً
فـــارســـل حـــكـــيـــمـــاً ولا تـــوصـــه
وإن بـــاب أمـــر عـــلـــيـــك الـــتـــوى
فـــشـــاور لـــبـــيـــبـــاً ولا تـــعـــصـــه

إذن لا تكفي المشورة، وإنما المشورة ومعها الطاعة والتنفيذ.

وفي هذا المصدر قال الشاعر أيضاً:

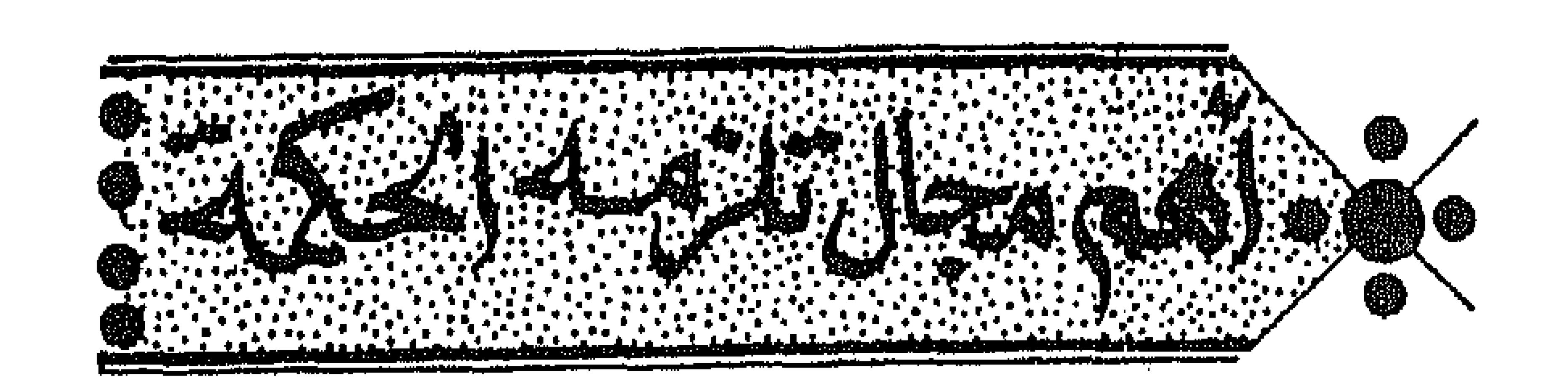
فـــخـــذوا الـــعـــلـــم على أربـــابـــه
واطـــلـــبـــوا الحـــكـــمـــة عـــنـــد الحـــكـــمـــاء

إذن ينبغي انتقاء المرشد الصالح الحكيم، الذي تمتص منه الحكمة.

القديس الأنبا أنطونيوس في بدء رهبنته واسترشاده بالنساك، كان كالنحلة التي تمتص عصيراً من كل زهرة.

كثيرون يطلبون الحكمة من إنسان واحد، ويصبحون صورة كربونية منه أما

القديس الأنبا أنطونيوس فكان يتعلم من شخص النسك، ومن آخر الصلاة، ومن الثالث اتضاع القلب، ومن الرابع البشاشة، ومن الخامس المعرفة... وهكذا.



فى الواقع إن الأعمال تنقسم إلى أربعة أقسام: عمل هو خير واضح وعمل هو شر واضح. وربما كلاهما لا يحتاجان إلى افراز.

أما النوع الثالث، فهو يحتار أمامه الفكر: أهو خطأ أم صواب؟. أو يحتار أمام نتيجته أو وسيلته.

وهو فى هذا الأمر يحتاج إلى حكمة وافراز، أو على الأقل يحتاج إلى مشورة صالحة، وإلى كلمة منفعة، تنير الطريق قدامه... وهنا تبدو فائدة الآباء الروحيين والمرشدين والحكماء.

والنوع الرابع الذى يحتاج إلى حكمة وافراز هو التفضيل بين طريقين، لا يدرى الضمير أيهما أصلح.

وقد يكون كل من الأمرين خيراً فى ذاته، ولكن أيهما أكثر خيراً؟ أو أيهما أكثر مناسبة لهذا الشخص بالذات. مثال ذلك الذى يقف حائراً أى الطريقين يختار لتكريس حياته: الرهبنة أم خدمة الكهنوت.

كلاهما خير... ولكن أيهما أفضل له هو؟ أو أيهما يناسب طبيعته؟

مثل هذه الأمور تحتاج إلى حكمة وافراز، وتحتاج إلى تباطؤ ريثما يفحص الإنسان ذاته، وريثما يسمع صوت الله فى قلبه، أو صوت الله على فم أب حكيم ومرشد مخلص. يحتاج الأمر إلى حكمة فينا، أو إلى حكمة فى مرشدينا.

وهناك مجال آخر يحتاج إلى حكمة وافراز. وهو طريقة الوصول إلى فضيلة معينة، أو طريقة التدرج إليها.

فالفضائل واضحة، مشروحة فى الكتب الروحية، ولكن ما هى نقطة البدء؟ وما هى الطريقة المثلى لاكتسابها... والبعض يندفع إليها بسرعة قد تأتى بنتيجة عكسية، أو تأتى بنكسة روحية، والبعض قد يسير ببطء، ربما يؤدى إلى فتور أو كسل أو تراخ.

والعقل قد يقف حائراً بين حرارة السرعة، وتباطؤ التدرج، ويحتاج إلى حكمة: كيف يسلك؟

والرد بأن السرعة أفضل، أو التباطؤ أفضل، ليس رداً سليماً. فحينما تكون هناك دفعة قوية من النعمة أو اشتعال من الروح القدس، فهنا لا يجوز التوقف.. فهكذا حدث مع القديس الأنبا ميصائيل السائح، ومع القديسين مكسيموس ودوماديوس.. وكل أمثال هؤلاء الذين وصلوا بسرعة. وفى حالات أخرى قد يحسن التدرج.

يلزم الافراز أيضاً فى أمور معينة تبدو حساسة ومصيرية.

فقد يتصرف الإنسان بجهل تصرفاً يندم عليه كل أيام حياته، وربما يرتكب غلطة تكون غلطة العمر كله، و يبكى عليها طوال حياته: ولا ينفعه البكاء.

وكان الأمر يحتاج إلى حرص، أو إلى حكمة، أو إلى مشورة.

وأحياناً يتحمس الإنسان لتصرف معين، حماساً يملك كل عواطفه ولا يكون هذا الحماس فى صالحه، وقد يندم عليه.

وقد يقول بعد فوات الفرصة: ليتنى ما فعلت. ليتنى تباطأت واسترشدت أو استمعت للمشورات التى رفضتها فى حماس...

لعل الأمر كان يحتاج إلى افراز من جهة النظر إلى زوايا أخرى للموضوع أو التفكير فى نتائج معينة.

لذلك فالمشورة تعطى وجهات النظر الأخرى، أو تعطى رؤية من زوايا غير واضحة، أو التبصرة بنتائج لم يعمل لها حساب.

وهناك نقطة أخرى جوهرية يلزم لها الافراز والحكمة، وتتركز فى المفهوم السليم لبعض الفضائل، مفهوماً يعطيها تكاملاً مع باقى الفضائل مع بعد عن التطرف.



الحكمة تعطى المفهوم السليم

كثيراً ما يأتى إنسان ويسأل قائلاً: لقد سلكت مع الناس باتضاع وتسامح فكانت النتيجة اننى تعبت نفسياً، وصرت هزأة فى وسطهم.

وهنا قد لا يكون العيب فى حياة الاتضاع، وإنما فى السلوك فى الاتضاع بغير افراز وبغير فهم.

ويكون مثل هذا الشخص محتاجاً إلى أن يفهم ما هو المعنى الحقيقى للاتضاع وكيف يكون؟ وكيف يكون الاتضاع بحكمة وافراز، بحيث لا يؤدى إلى مثل هذا التعب النفسى، وبحيث يكون راسخاً فى القلب، ولا يؤدى إلى نتائج سيئة.

لأن مثل هذا الشخص قد ينحرف إلى العكس بعد خبرته السيئة، ويكره الاتضاع ويسلك فى عنف وفى تمسك بالكرامة الذاتية.

لا شك أن هناك فضائل كثيرة، إن سلك فيها الإنسان بغير افراز، تؤدى إلى نتائج غير متوقعة، وربما تنتهى إلى ردة فى الحياة الروحية، وإلى انحراف عكسى، أو إلى عقدة نفسية.. ويكون السبب فى كل ذلك هو السلوك فيها بغير افراز وبغير حكمة أو بتطرف واندفاع.

ولذلك فإن كتاب بستان الرهبان، وبعض الكتب الروحية، وبعض المقالات التى تتحدث عن المثاليات، وعن مستويات عليا، تحتاج إلى مشورة فى التنفيذ، وإلى افراز وحكمة.

لا تقرأ عن فضيلة، ربما وصل إليها أحد القديسين بعد جهاد عشرات السنين، وتعزم أنت على تنفيذها فى التو واللحظة، على مستوى قمتها بدون تدرج، وبدون افراز وحكمة.

وتدخل تحت هذه النصيحة فضائل كثيرة نذكر من بينها :

١ ـ فضيلة الصمت ، والوحدة ...

٢ ـ فضيلة الصوم والانقطاع وطى الأيام .

٣ ـ فضيلة الاتضاع والمتكأ الأخير.

٤ ـ فضيلة الدموع ، وانسحاق القلب .

٥ ـ موضوع البشاشة وكآبة الوجه .

٦ ـ الصلاة الدائمة .

٧ ـ معنى الإدانة ، ومعنى النصح .

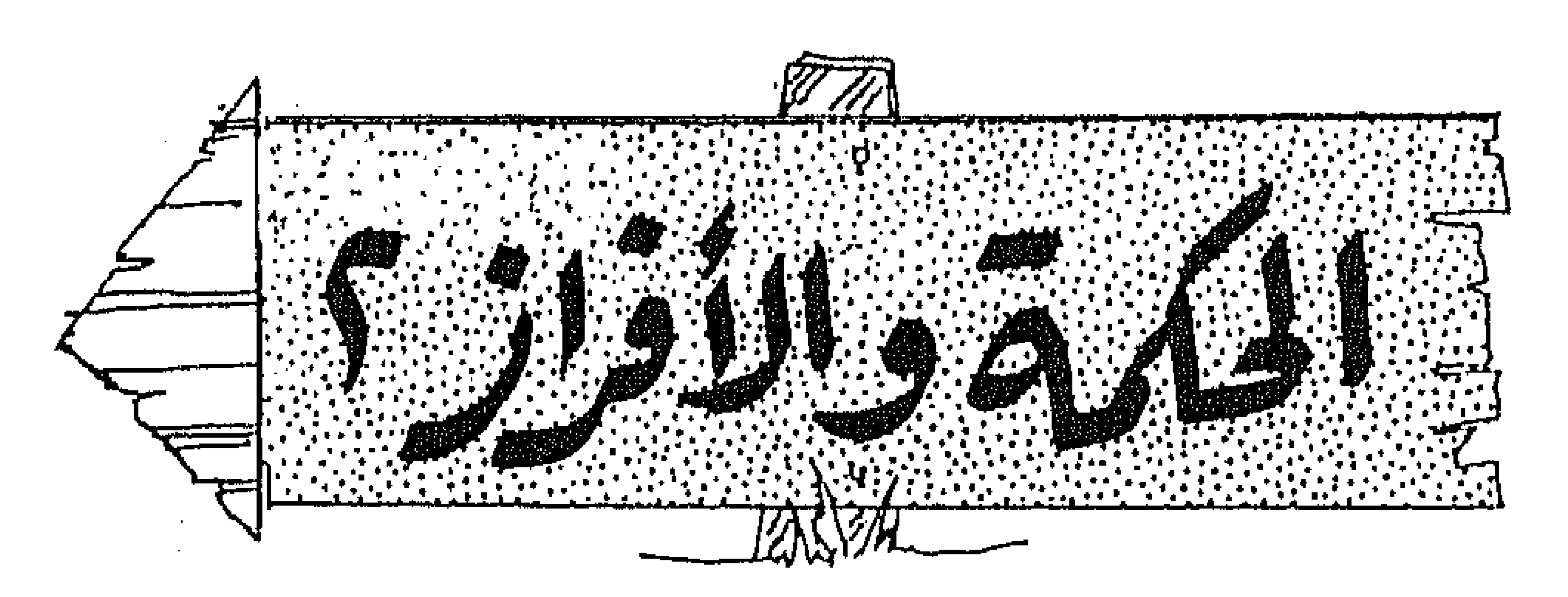
٨ ـ الوداعة ، وقوة الشخصية .

٩ ـ المغفرة والحزم والتأديب .

١٠ ـ النسك والزهد وعدم القنية .

١١ ـ الدفاع عن لحق .

١٢ ـ الطاعة وحرية الضمير.

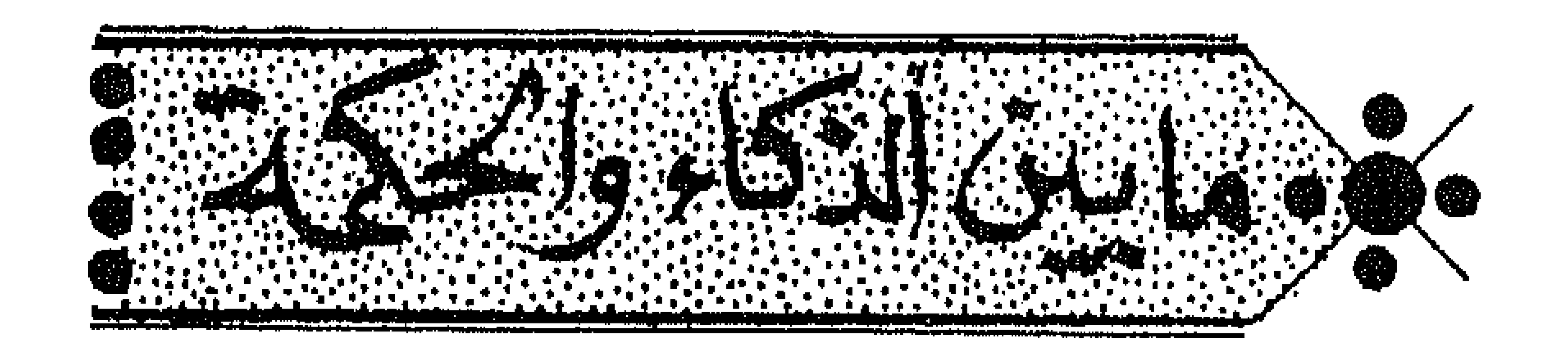


الحكمة الحقيقية ، هى الحكمة النازلة من فوق ، كهبة من مواهب الروح القدس وهى تختلف تماماً عما يدعيه البعض من حكمة بشرية أو عالمية ليست هى من الله .

فبعض الناس عندهم سياسة وكياسة ودبلوماسية ، يظنونها حكمة ! والبعض عندهم دهاء ، أو ذكاء ، يظنونه حكمة .

وربما يكون هذا كله بعيداً تماماً عن الحكمة الحقيقية « النازلة من فوق » (يع ٣) .

ونود هنا أن نميز بين الذكاء والحكمة .



الحكمة لها معنى أوسع بكثير من الذكاء ، وقد يكون الذكاء مجرد جزء منها .

وقد يتمتع إنسان بذكاء خارق وعقل ممتاز ، ومع ذلك لا يكون حكيماً فى تصرفه . ربما توجد عوائق تعطل عقله وذكاءه أثناء التصرف العملى .

ربما تطغى عليه شهوة معينة ، هى التى تقود تصرفاته ، فيخضع لها تماماً ، ويتصرف تصرفات بعيدة عن الحكمة ، على الرغم من ذكائه الذى تكون الشهوة قد عطلته ، وتولت القيادة بدلاً منه !

أو قد يخضع فى تصرفاته لأعصاب تثور وتنفصل . فيتصرف بأعصابه لا بذكائه ، ولا يكون تصرفه حكيماً ! أو قد يكون له ذكاء ، ولكن تنقصه الخبرة أو المعرفة ، ونقصهما يجعل سلوكه غير حكيم .

فما هى إذن الحكمة ، وفى أى شيء تتميز عن الذكاء ؟

الذكاء مصدره العقل ، وقد يكون الذكاء مجرد نشاط فكرى سليم .

أما الحكمة فهى تتبع التفكير السليم بالتصرف الحسن فى السلوك العملى . وهى لا تعتمد على العقل فقط ، إنما تستفيد أيضاً من الخبرة ومن الإرشاد ، ومن الصلاة وتوجيه الروح القدس .

فالحكمة ليست هى مجرد المعرفة السليمة . أو مجرد الفكر الصائب ، إنما هى تدخل فى صميم الحياة العملية ، لتعبر عن وجودها بسلوك حسن ... فهى ليست مجرد معلومات نظرية أو عقلية ، وما أصدق القديس يعقوب الرسول فى قوله :

« من هو حكيم وعالم بينكم ، فلير أعماله بالتصرف الحسن فى وداعة الحكمة » (يع ٣ : ١٣) .

حقاً إن الفكر السليم ، أو الذكاء ، يجوز اختباراً دقيقاً عند التطبيق العملى فإن نجح فيه يتحول إلى حكمة .

وقد يكون الإنسان ذكياً ، يفكر أفكاراً سليمة . ولكن تنقصه الدقة فى التعبير ، لنقص معلوماته عن مدلول كل لفظ فى دقة ، فيخطىء فى التعبير. أما الإنسان الحكيم ، فإنه يقول ما يقصده ، و يقصد ما يقوله .

وهكذا تشمل الحكمة جودة التفكير ، ودقة التعبير ، وسلامة التدبير.

وهنا نقول : كل حكيم ذكى ، ولكن لا يشترط أن يكون كل ذكى حكيماً ...

والحكيم إن كان ينقصه شيء من الذكاء ، فإنه يستعيض عنه بالمشورة ، و بالقراءة والاطلاع ، و بالاستفادة من خبرته وخبرة الآخرين ، كما ينتفع أيضاً من التاريخ ، كما قال الشاعر :

ومـــن وعـــى الـــتـــاريـــخ فى صـــدره
أضـــاف أعـــمـــاراً إلى عـــمـــره

ونظراً لأهمية الخبرة فى الحكمة ، لذلك نسمع عبارة « حكمة الشيوخ » .

والمقصود بها أنهم فى مدى عمرهم الطويل ، اكتسبوا خبرات كثيرة فى الحياة تمنحهم حكمة ، بغض النظر عن درجة ذكائهم. فالذكاء ليس هو فى الحياة كل شيء ...

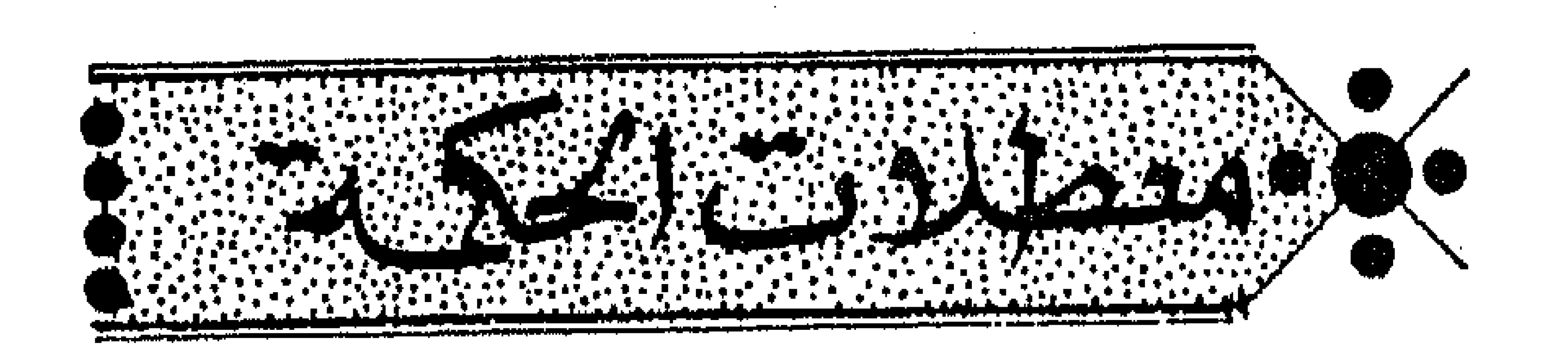
إن المشيرين الحكماء ، فى مشورتهم يضيفون إلى عقل الإنسان عقلاً...

و يضيفون إلى فكره وجهة نظر أخرى ما كان يلتفت إليها لقلة خبرته ومحدودية رؤيته ... ولعلهم يمنعونه من الاندفاع فى اتجاه معين تكون كل قواه الفكرية مركزة فيه بسبب غرض معين فى قلبه.

ومن هنا نرى أن الاندفاع يعطل الذكاء، أو يدفعه فى اتجاه معين.

ولذلك مهما كنت ذكياً، تذكر قول الكتاب «وعلى فهمك لا تعتمد» (أم٣: ٥). ففهمك يدور فى دائرة محدودة هى دائرة معرفتك وخبرتك ورؤيتك الخاصة. ولا مانع من أن تضيف إليها رؤية أخرى ومعارف وخبرات أخرى، عن طريق السؤال أو الإستشارة.

والحكيم لا يندفع فى تصرفاته ، وإنما يهدىء اقتناعه الخاص ، حتى يتبصر باسلوب أعمق وأوسع ...



من معطلات الحكمة : السرعة فى التصرف . لذلك يتصف الحكماء بالتروى.

السرعة لا تعطى مجالاً واسعاً للتفكير وللبحث والدراسة ومعرفة الرأى الآخر.

كما أنها لا تعطى مجالاً للمشورة، ولعرض الأمر على الله فى الصلاة.

وربما تحوى السرعة فى طياتها لوناً من السطحية. والتصرفات السريعة كثيراً ما تكون تصرفات هوجاء طائشة.

والإنسان الذى يتصرف بتسرع، ربما يرسل له الله من ينصحه قائلاً: احترس لنفسك «خلى بالك من نفسك» اعط نفسك فرصة للتفكير. راجع نفسك فى هذا الموضوع.

نذكر فى هذا المجال بعض أبنائنا من المهجر، الذين يحضرون إلى مصر، ويريد الواحد منهم أن يتزوج فى بحر اسبوع أو اسبوعين!!

وعكس ذلك قديس عظيم هو أبو مقار الكبير، جاءته فكرة أن يذهب إلى البرية الجوانية ليرى الآباء السواح. وهنا يقول «فبقيت مقاتلاً هذا الفكر ثلاث سنوات، لأرى هل هو من الله؟»...

إن الحكماء تصرفاتهم متزنة رزينة، اخذت حظها من التفكير والدراسة والتعمق والفحص مهما اتهموهم بالبطء.

ولا ننكر أن بعض الأمور تحتاج إلى سرعة. ولكن هناك فرقاً ما بين السرعة والتسرع.

والتسرع هو السرعة الخالية من الدراسة والفحص.

ويأخذ التسرع صفة الخطورة، إذا كان فى أمور مصيرية أو رئيسية. ويكون بلا عذر. إذا كانت هناك فرصة للتفكير، ولم يكن الوقت ضاغطاً.

لذلك فإننى أقول باستمرار:

الحل السليم، ليس هو الحل السريع وإنما هو الحل المتقن.

وقد تكون السرعة من صفات الشباب إذ يتصفون بحرارة تريد أن تتم الأمور بسرعة. ولكنهم حينما يدرسون الأمر مع من هو أكبر منهم، يمكن أن يقتنعوا بأن السرعة لها مخاطرها. وقد تكون السرعة طبيعية فى بعض الناس. وهؤلاء يحتاجون إلى تدريب أنفسهم على التروى والتفكير.

وكثيراً ما يندم الإنسان على تصرف سريع قد صدر منه، فأخطأ فيه، أو ظلم فيه غيره.

مثال ذلك صحفى قد يسرع فى نشر خبر، ليحصل على سبق صحفى. ثم يتضح أن الخبر غير صحيح. و يفقد الصحفى ثقة الناس فى دقة أخباره.

ومثال ذلك أب يعاقب إبنه، أو رئيس يعاقب أحد مرؤوسيه على اخطاء ثم يتضح أن الذى عاقبه كان بريئاً.

٢ ـ من معطلات الحكمة أيضاً عدم الفهم، أو قلة المعرفة.

فقد يكون هناك رجل ذكى جداً، ومع ذلك هو فاشل فى حياته الزوجية. وأما سبب فشله فهو جهله بنفسية المرأة. فهو يعاملها كما يعامل الرجال. والمفروض فى الرجل الحكيم أن يدرس عقلية المرأة ونفسيتها وظروفها، حيث يتصرف معها تصرفاً حكيماً.

وبالمثل على المرأة أن تدرس نفسية الرجل وعقليته لكى تعرف كيف تتعامل معه فى حكمة.

ونفس الكلام نقوله فى معاملة الاطفال. إذ ينبغى أن ندرس نفسية الطفل وعقليته، حتى نعرف الطريقة الحكيمة للتعامل معه.

وهكذا فى التعامل عموماً: ينبغى لكل إنسان أن يدرس نفسية وعقلية وظروف الشخص الذى يتعامل معه... سواء كان زميلاً فى عمل، أو رئيساً، أو مرؤوساً، أو صديقاً، أو جاراً، و يعامله بما يناسبه.

فإن درست نفسية وعقلية من تتعامل معه، تعرف المفاتيح التى تدخل بها إلى قلبه، وتنجح فى تصرفك معه...

حتى لو تعطل المفتاح حيناً، تعرف كيف تزيته وتشحمه... ثم تعيد بعد ذلك فتح الباب فينفتح.

حقاً إنه فى بعض الأحيان، يكون فشلنا فى التعامل مع اشخاص معينين، ليس راجعاً إلى عيب فيهم، بقدر ما هو راجع إلى عدم معرفتنا بطريقة التعامل معهم.

ولهذا نريد أن ندرس بعض النقاط فى التعامل مع الناس.

الحكمة بين الصمت والكلام

إنه تدريب مشهور عند الشباب الروحى، أعنى «تدريب الصمت». يريدون به أن يتخلصوا من أخطاء الكلام عملاً بقول الكتاب «كثرة الكلام لا تخلو من معصية» (أم١٠: ١٩). وأيضاً قول داود النبى فى المزمور «ضع يارب حافظاً لفمى، باباً حصيناً لشفتى» (مز١٤١: ٣). وعملاً بقول القديس ارسانيوس الكبير «كثيراً ما تكلمت فندمت. وأما عن سكوتى، فما ندمت قط».

ومع ذلك فالإنسان الحكيم يعرف أنه ليس كل صمت فضيلة، وليس كل كلام خطيئة.

والحكيم لا يصمت حين يجب الكلام، ولا يتكلم حين يجب الصمت.

بالحكمة يعرف متى يتكلم؟ وكيف؟ وإذا تكلم ... ماذا يكون قدر كلامه؟ وبأى اسلوب يتحدث؟ بحيث ينطبق عليه ما قيل لعذراء سفر النشيد: «شفتاك يا عروس تقطران شهداً» (نش٤: ١١). فيخرج من فمه كلام المنفعة، وكلام العزاء، وكلام الحكمة. ويشعر الكل أنه لم يكن هو المتكلم، بل روح أبيه الذى فيه (متى١٠: ٢٠).

وهكذا يتكلم بميزان، وبروية، وبحكمة، وبفائدة. ولا يندم على كلمة يقولها. ولا يشتاق إلى الصمت الذى يحمى من أخطاء اللسان.

المسألة إذن تحتاج إلى افراز. ولا يؤخذ الصمت كتدريب بطريقة حرفية خالية من الروح، لأنه ربما يكون فى بعض الصمت أخطاء.

والحكيم يعرف تماماً حينما يجابه بحماقات الناس كيف يتصرف. وهنا يجد الشخص العادى نفسه أمام آيتين: **«لا تجاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا تعدله أنت»** (أم٢٦: ٤).

«جاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا يكون حكيماً فى عينى نفسه» (أم٢٦: ٥).

ليس شيء من التناقض بين هاتين الآيتين، وإنما حسب الحكمة يدرك الإنسان متى يجاوب الأحمق، ومتى لا يجاوبه...

إن كانت مجاوبته تجعلك معادلاً له، فالخير أن تصمت ولا تجاوبه.

وإن كان صمتك يجعله حكيماً فى عينى نفسه، فالأفضل أن تظهر له حمق كلامه.

الحكمة هى الفيصل فى الأمر. وبالأفراز تميز أى التصرفين أفضل ومن الجهل أن نعطى تعليماً واحداً لكل الحالات.

لا نستطيع أن نقول لك أن تصمت، بينما كلمة منك تحل مشكلة... ولا أنْ تصمت، إنْ كان الصمت يمكن فهمه على غير ما تقصد...

كذلك ليس فى كل وقت نقول لك أن تتكلم.

ولا يجوز لإنسان أن يقرأ ما ورد فى بستان الرهبان وينفذه على نفسه حرفياً، وبدون ارشاد، وهو ليس من الرهبان، وظروفه الروحية غير ظروفهم..و!

ففى بعض الأوقات قد يكون الصمت رزانة ورصانة، وقد يكون حكمة، ومانعاً لأخطاء ومشاكل... وقد يكون أيضاً مجالاً للصلاة والتأمل...

وفى أوقات أخرى قد يكون الصمت جهلاً، أو بلادة وعدم حكمة.. وقد يكون خوفاً وعدم رجولة.

وبالأفراز تميز كل حالة من الأخرى والمرشد الروحى لا يضع إبنه تحت ناموس، مقيداً بوصايا لا يدرك هدفها... إنما هو يمنحه الحكمة والافراز، ويتركه ليتصرف فى كل حالة حسبما تستوجب...

وما نقوله عن الصمت، يمكننا أن نقول ما يشابهه عن فضائل أخرى...



الحكمة بين الكآبة والفرح

يبدأ بعض الشباب حياتهم الروحية بالتوبة وبالبكاء على خطاياهم حسبما ورد فى بستان الرهبان... ويجعلون أمامهم الآية التى تقول «بكآبة الوجه يصلح القلب» (جا ٧ : ٢).

ويتمادى هؤلاء فى هذا الوضع ، حتى تصبح الكآبة لهم وضعاً ثابتاً ومنهج حياة ... ويتذكرون كيف أعطى الرب الطوبى للحزانى (متى ٥ : ٤) .

ويضعون أمامهم فضيلة [الدموع] ، التى هى نابعة من فضيلة [انسحاق القلب] ، وحديث القديسين عن هذه الموضوعات طويل يصعب أن نحصيه .

والدموع قد تكون من علامات التوبة ... ومن دلائل الرقة والحساسية ... وقد يكون من ثمارها الزهد والموت عن العالم ...

ومع ذلك يحتاج من يسلك فى هذا الأمر إلى افراز شديد ، لئلا ينقلب الأمر معه إلى العكس ... لأن الاستمرار فى الكآبة ، وعدم السلوك فيها بحكمة ... كل ذلك يؤدى إلى عديد من الأخطاء والنقائص سنذكر هنا بعضاً منها :

ما أسهل أن تتحول الكآبة الدائمة إلى عثرة تخيف الذين يريدون أن يقتربوا إلى الحياة مع الله ، إذ يرون أن التدين هو كآبة وبكاء ... !

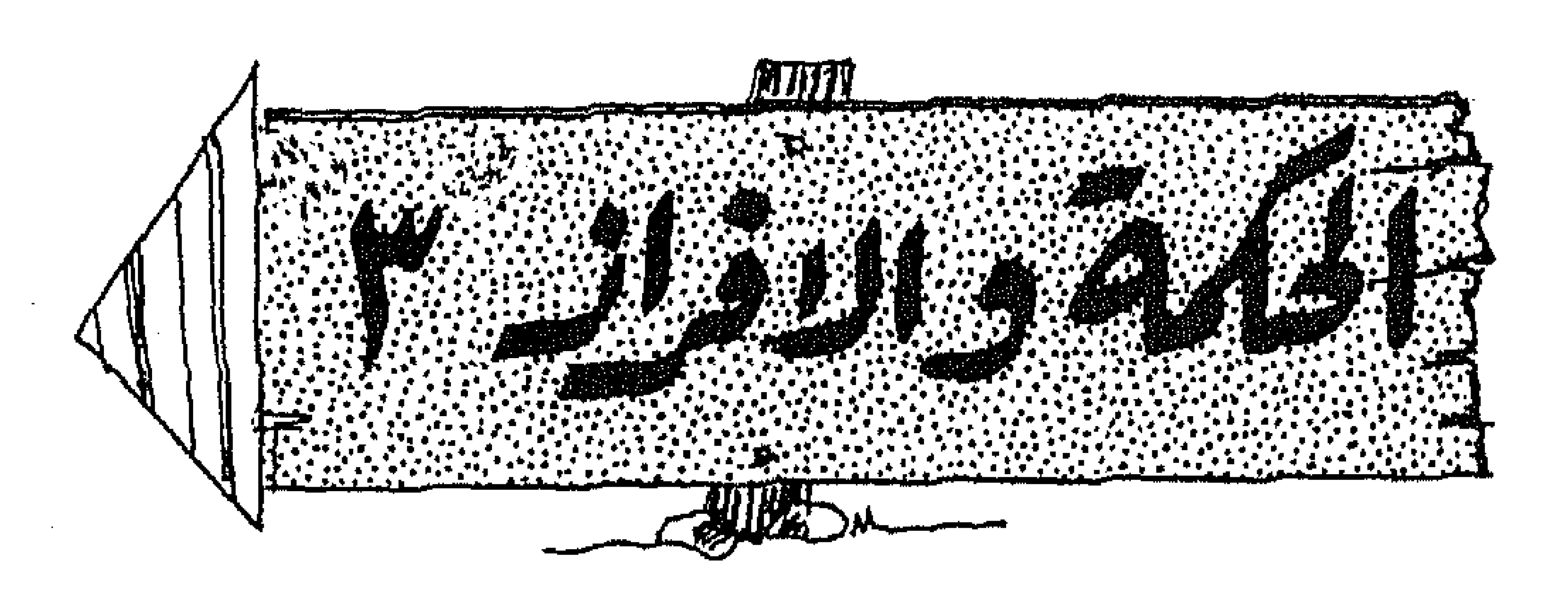
صورة مشوهة عن الحياة مع الله ، التى أرادها الرب أن تكون فرحاً دائماً .. كما يقول الرسول « افرحوا فى الرب كل حين وأقول أيضاً أفرحوا » (فى ٤ : ٤) ، وكما ذكر أن الفرح هو من ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) .

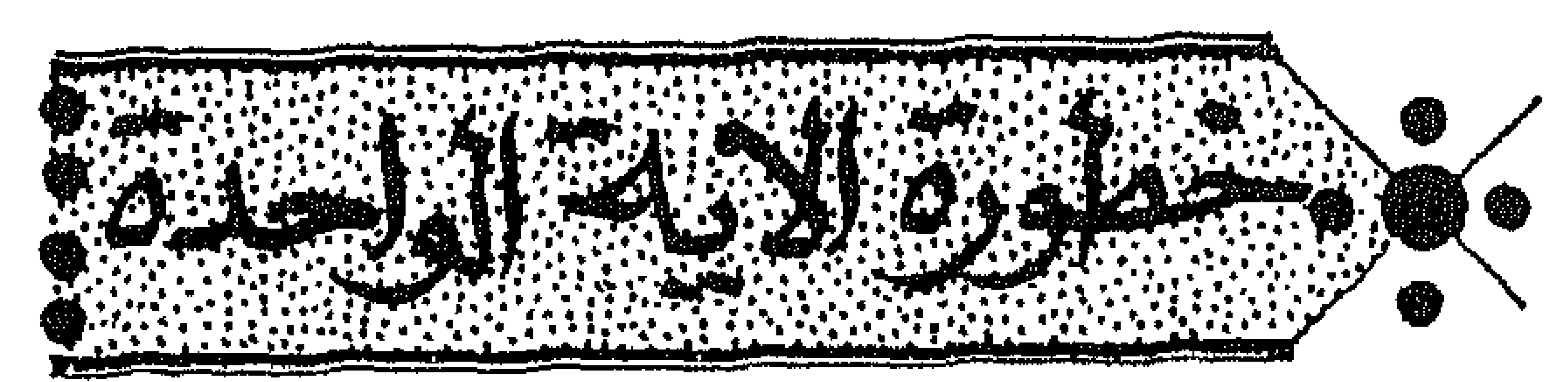
واستمرار الكآبة قد يستغله الشيطان فيلقى صاحبه فى اليأس وقطع الرجاء ، ويضعف روحه المعنوية .. كما أن الكآبة قد تولد الضجر والملل .

والحكيم يعرف حدود الانسحاق والدموع ، ويعرف كيف يخلطهما بالرجاء وبالعزاء .. ويعرف كيف يحيا حياة الفرح فى توبته ، وفى انسحاقه ، وفى دموعه التى تكون فى الخفاء .. ولا تكون دموعاً محرقة إنما دموعاً معزية .

الأمر إذن يحتاج إلى حكمة ، لأن الدين ليس حرفية ، وليس مجرد فضائل مبهمة .. إنما هو روح وحياة

فالذى يسلك فى الانسحاق والدموع ... عليه أن يفعل ذلك بحكمة .. والذى يسلك فى حياة الفرح ، عليه أن يفعل هذا أيضاً بحكمة ، حتى لا تقوده إلى الاستهتار واللامبالاة ...





الإنسان الحكيم لا يأخذ آية واحدة من الإنجيل ويقيس عليها حياته فى حرفية. إنما يعرف متى يستخدم هذه الآية فى حينها الحسن؟ ومتى تضاف إليها آيات أخرى ليتضح المعنى؟

وكنا قد ضربنا مثلاً فى الكآبة والفرح، نكمله الآن...

فى بعض الأحيان يستفيد الناس من دموعك، كإنسان روحى يهتم بخلاص نفسه، وله عواطف حساسة.

وفى أحيان أخرى، إذا كنت كئيباً تشيع فى الناس القلق وربما تشيع فيهم التساؤل أيضاً...

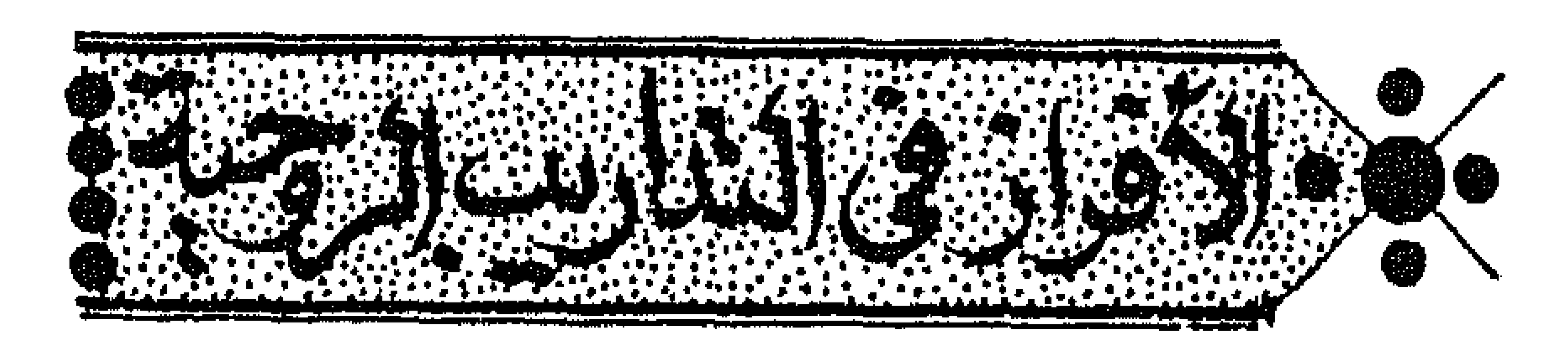
ولذلك فكثير من القادة يحتفظون بدموعهم لحياتهم الخاصة. وأما أمام الناس فيكونون بشوشين.

ويفعلون هذا حرصاً على مشاعر الناس، لئلا يتعبوا بتعبهم. وكذلك لكى يفرحوا الآخرين حتى فى ضيقهم.

ولقد اعجبتنى كثيراً عبارة قال فيها أحد الأدباء:

ما أنبل القلب الحزين الذى يخفى حزنه ليغنى أغنية مع القلوب الفرحة.

ولهذا ليس من الحكمة أن يضع إنسان تدريباً روحياً لنفسه، ينفذه بلا افراز، وبلا مراعاة للظروف المحيطة به، مما يسبب له كثيراً من المشاكل.



الحياة الروحية ليست مجرد قيود وقوانين ونواميس ، إنما هى ثبات الروح فى الله ، بحب وحرية .

إنسان يضع لنفسه قانوناً أنه لا يضحك هذا الأسبوع ، لأن الضحك يقوده إلى الفتور ، ثم تحدث مناسبة مجاملة أو فرح ، و يظل فيها عابساً وجامداً مما يسىء إلى علاقته بالآخرين . فهل يسمى هذا ثباتاً فى التدريب ، أم هو عدم افراز .

التدريب الروحى لا يجوز أن يكون جافاً وحرفياً بلا فهم ... والتداريب ليست قيوداً وسلاسل .

والذى يسلك فى حياة روحية سليمة ، بطريقة حكيمة ، يعرف كيف يفعل الشىء من أجل الله ، و يعمل عكسه تماماً من أجل الله أيضاً . فلكل مجال ما يناسبه ومعلمنا بولس الرسول يقول عن تدريباته بالنسبة إلى الشىء وعكسه :

تدربت أن اشبع ، وأن أجوع . أن استفضل ، وان أنقص (فى ٤ : ١٢) .

إن أولاد الله يأخذون روح الحياة ، ولا يأخذون نصوصاً وحروفاً .

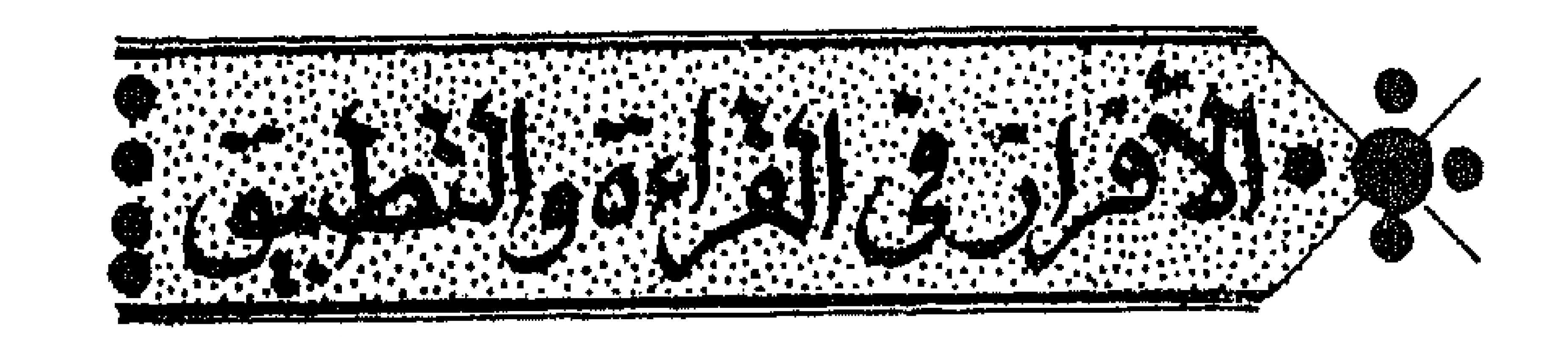
يعرفون متى يفعلون الشىء ، ومتى يفعلون عكسه بضمير مستريح ، مثلما قال الكتاب :

إلى العكس . بكاء مع الباكين . وفرحاً مع الفرحين (رو١٢ : ٥) .

إذن لكل شىء تحت السموات وقت كما قال سفر الجامعة : للبكاء وقت ، وللضحك وقت ... للسكوت وقت ، وللتكلم وقت (جا ٣ : ١ - ٧) .

كل شىء فى مناسبته ، يكون خيراً ، حسبما يليق ، بحكمة ...

والحكيم يعمل الشىء المناسب فى الوقت المناسب ، دون أن يقيد نفسه بحالة معينة تستمر معه مدى الحياة .



الأفراز في القراءة والتطبيق

بعض الناس يقرأون و ينفذون ما يقرأونه حرفياً ، ثم يتعبون نتيجة لذلك . وكثيراً ما تحدث لهم نكسة .

مثال ذلك من يقرأ بستان الرهبان ، و ينفذ ما فيه حرفياً و ينسى شيئين :

١ ـ أن البستان سجل درجات عالية وصل إليها الآباء بجهاد طويل . وهذه الدرجات ليست للمبتدئين .

٢ ـ أن البستان سجل نصائح قالها الآباء لأشخاص معينين ، ربما حالتهم غير حالتك أنت .

وربما كان الأب القديس يأتيه أخ فينصحه بنصيحة . و يأتى أخ أخر ، فيقول له نصيحة أخرى تناسبه ... فلم يكن لهم ارشاد واحد يقولونه للكل ...

أما نحن فعلينا أن نأخذ من كل ذلك ما يناسبنا ، وبارشاد ، وبتدرج .

ونفس الوضع نقوله أيضاً بالنسبة إلى المزامير . بعضها للفرح . وبعضها للحزن . وخذ منها ما يناسبك من حيث التطبيق . وبعض يمثل درجات عليا لم تصل إليها ... ولكنك تصليها كمثاليات أمامك ...

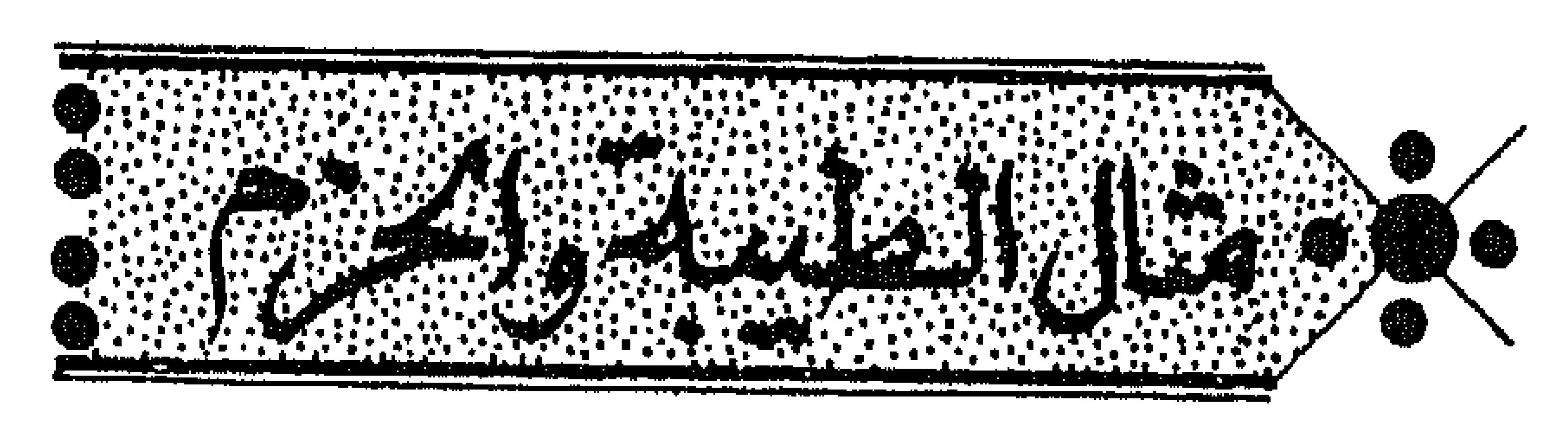
وكذلك فى كل كتاب روحى تقرأه . ضع أمامك أمرين هامين :

١ ـ روح الكلام وليس حرفه .

٢ ـ ما يناسبك أنت شخصياً ، أعنى ما يناسب ظروفك ومستواك . ما يناسب قامتك الروحية ، وما يناسب قدرتك وامكانياتك . و يتفق مع تدرجك فى السير فى طريق الله .

ومن الخطر أن تقرأ لتنفذ بلا تمييز ، وبلا حكمة ، وبلا ارشاد .

إننا نريد الحياة الروحية الهادئة ، النامية ، التى تحب الخير، وتسلك فيه بحكمة ...



البعض يستخدم الطيبة أو الوداعة وحدها. والبعض يحبون الحزم والسلوك والقوى كمنهج حياة. أما الحكمة فتقول:

استخدم الحزم حينما يلزم الحزم لحسم الأمور. واستخدم الوداعة حينما تحسن الوداعة.

وفى وداعتك لا تكن ليناً بطريقة تتعبك... وفى حزمك لا تكن عنيفاً بطريقة تتعب غيرك. والسيد المسيح استخدم الوداعة والحزم.

كان وديعاً ومتواضع القلب. فقيل عنه إنه «لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف. وفتيلة مدخنة لا يطفىء» (متى ١٢: ١٩، ٢٠).

وكان حازماً حينما وبخ الكتبة والفريسيين بشدة وقال هم «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون...» (متى ٢٣)...

وكان السيد المسيح حازماً حتى فى توبيخه لتلميذه القديس بطرس....

فقد قال له فى إحدى المرات... «اذهب عنى يا شيطان.. أنت معثرة لى، لأنك لا تهتم بما لله، لكن بما للناس» (متى ١٦: ٢٣).

إلى هذا الحد كان السيد المسيح الوديع حازماً فى هذا الموقف. وبنفس الوضع قال للقديس بطرس حينما احتشم من غسل رجليه «إن لم أغسلك لا يكون لك معى نصيب» (يو١٣: ٨).

إذن هناك مواقف تحتاج إلى حزم. ومن أمثلتها تطهير الرب للهيكل.

إن السيد المسيح الطيب الوديع الذى قال للمرأة الخاطئة «اذهبى ولا أنا أدينك» (يو٨: ١١). وانقذها ممن يدينوها، نراه هنا يطرد الباعة، ويفتل سوطاً، ويقلب

موائد الصيارفة ، و يأمر برفع اقفاص الحمام من هناك .

وهنا فى حزم الرب ، نراه لم يتخذ موقفاً واحداً مع الكل : إنما تصرف بدرجات مع كل مجال بما يناسبه.

موائد الصيارف قلبها . ولم يقلب أقفاص الحمام . هناك من وبخهم بالكلام ، ومن طردهم . وموقف فتل له سوطاً ... إذن كل شيء تم بافراز، حسبما يستلزم الموقف .

فإن كنت تحب الوداعة والطيبة : ورأيت أمامك شخصاً يأخذ موقفاً حازماً . لا تقل : إننى قد أعثرت . وقد تحطمت المثاليات أمامى ...

هنا تبدو خطورة الفضيلة الواحدة . فالحياة الروحية ليست فضيلة واحدة مع إهمال غيرها . إنما هى حياة متكاملة ، تتكامل فيها كل الفضائل . ومن جميعها يتكون نسيج روحى واحد .

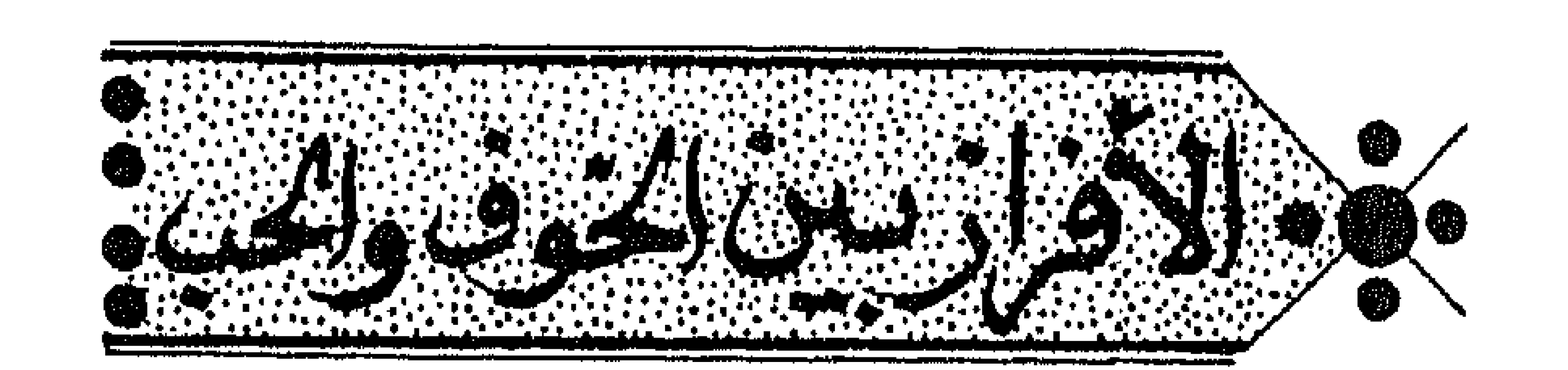
وفى بعض المواقف يكون عدم الحزم خطية كما حدث مع عالى الكاهن .

لقد عاقبه الله عقوبة شديدة ، ونزع الكهنوت من نسله ، وذلك لأنه لم يكن حازماً فى تربية أولاده ، حقاً أنه نبههم إلى اخطائهم . ولكنه لم يتصرف فى ذلك بحزم . إنما كان ليناً فى توبيخه ... (١صم ٣ : ١٢ - ١٤) .

لذلك لسنا نعجب من الحزم الذى تصرف به القديس بطرس مع حنانيا وسفيره (أع ٥ : ١ - ١١) .

إنه حكم عليها بالموت ، ولم يعطها فرصة التوبة . لأن الحزم وقتذاك كان لازماً لبنيان الكنيسة فى بدء حياتها حتى لا يدخل إليها التسيب وتدخل إليها الخيانة والكذب . وهكذا قيل بعد . عقوبة حنانيا وسفيره « فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة » .

وهنا نرى ملاحظة هامة وهى لزوم الخوف أحياناً كما يلزم الحب تماماً ، وليس من تعارض ...



الأفراز بين الخوف والحب

والكتاب يقول بدء الحكمة مخافة الله (أم ٩ : ١٠). إذن الخوف ليس خطأ روحياً، ولكنه مرحلة روحية والذى لا يخاف قد يصل إلى حياة الاستهتار واللامبالاة، كما قيل عن قاضى الظلم إنه كان «لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً» (لو ١٨ : ٢).

وفى التربية قد يلزم الخوف مع بعض الاشخاص وفى بعض مراحل السن. وبغيره قد تفسد التربية.

فالإبن الذى لا يخاف والديه، قد يسلك باستهتار دون رادع. وربما يصير مرارة نفس لوالديه.

وكذلك التلميذ الذى لا يخاف أساتذته ما أسهل أن يتحول إلى طالب مشاغب ويضيع وقت زملائه، ويضيع اعصاب استاذه.

ومع ذلك نقول إن الخوف مرحلة ينمو فيتحول إلى حب ومهابة ...

لذلك لا يجوز لأب أو لاستاذ أن يتعبه ضميره إذا وبخ إبناً أو تلميذاً ... ولا يقل فى نفسه ولا فى اعترافاته إننى اخطأت إذ وبخت غيرى وفقدت وداعتى !!

بل الأجدر أن يوبخه ضميره إذا لم يكن حازماً وقت الحزم ...

والحكمة ترسم حدود التوبيخ، بحيث يكون من مسئول وصاحب سلطان، وبحيث يكون بطريقة روحية سليمة.

فالقديس بولس الرسول اضطر أن يوبخ أهل غلاطية الذين بدأوا بالروح وكملوا بالجسد (غل ٣ : ٣) وألزموه أن يغير صلاته (غل ٤ : ٢).

والغيرة المقدسة تلزم الإنسان أحياناً أن يكون ناراً تلتهب.

وفى هذه الحالة المفروض أن يفهم الإنسان الروحى موقف الوداعة فى ظل الغيرة. إنها موضوع طويل. ولكننا نقول هنا: لكل شىء تحت السموات وقت. ومع ذلك

يمكن أن يتصرف الإنسان بغيرة دون أن يفقد وداعته .

ولكن من الخطأ أن يفقد الإنسان الغيرة المقدسة بمفهوم خاطىء للوداعة .

إذن ينبغى أن نفهم الوداعة فهماً سليماً بحيث لا نظن أنها طراوة فى الطبع ، أو حالة من عدم الحركة ... البعض قد يرى إيليا النبى مثالاً للغيرة المقدسة ، وأرميا النبى من ناحية أخرى مثالاً للوداعة وللدموع ...

ولكن ارمياء النبى كان مثالاً للغيرة والدفاع عن الحق : فما كان رجل دموع فقط . والذى يقرأ سفر ارميا يلمس هذه الحقيقة .

وكان داود النبى مثالاً للشجاعة والقوة والغيرة ، وفى نفس الوقت كان رجل دموع ، يبلل فراشه بدموعه (مز٦) ، و يبكى لموت أبشالوم ولموت شاول و يوناثان ...

إن الأم التى تحنو على إبنها حنواً خاطئاً تفسده به ، ليست أماً حكيمة وهى تحتاج إلى فضيلة الافراز ...

فتعرف ما معنى الحنو الحقيقى ؟ وما هى حدوده ؟ وما مدى اتصاله بالتربية السليمة ؟ وبأبدية إبنها وروحياته ...

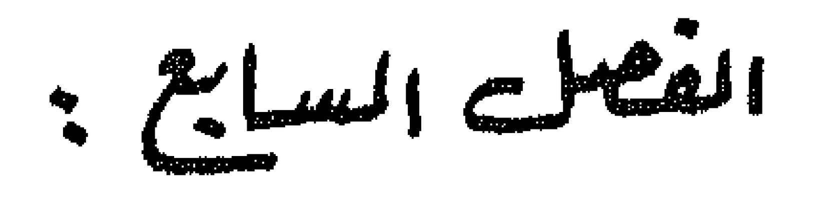
إن الآب السماوى كان يحب إبنه الوحيد ، ومع ذلك بذله للموت من أجلنا . وعلى الصليب « سر أن يسحقه بالحزن » كذبيحة إثم لأجلنا ، إذ وضع عليه إثم جميعنا (أش ٥٣ : ١ - ٦) .

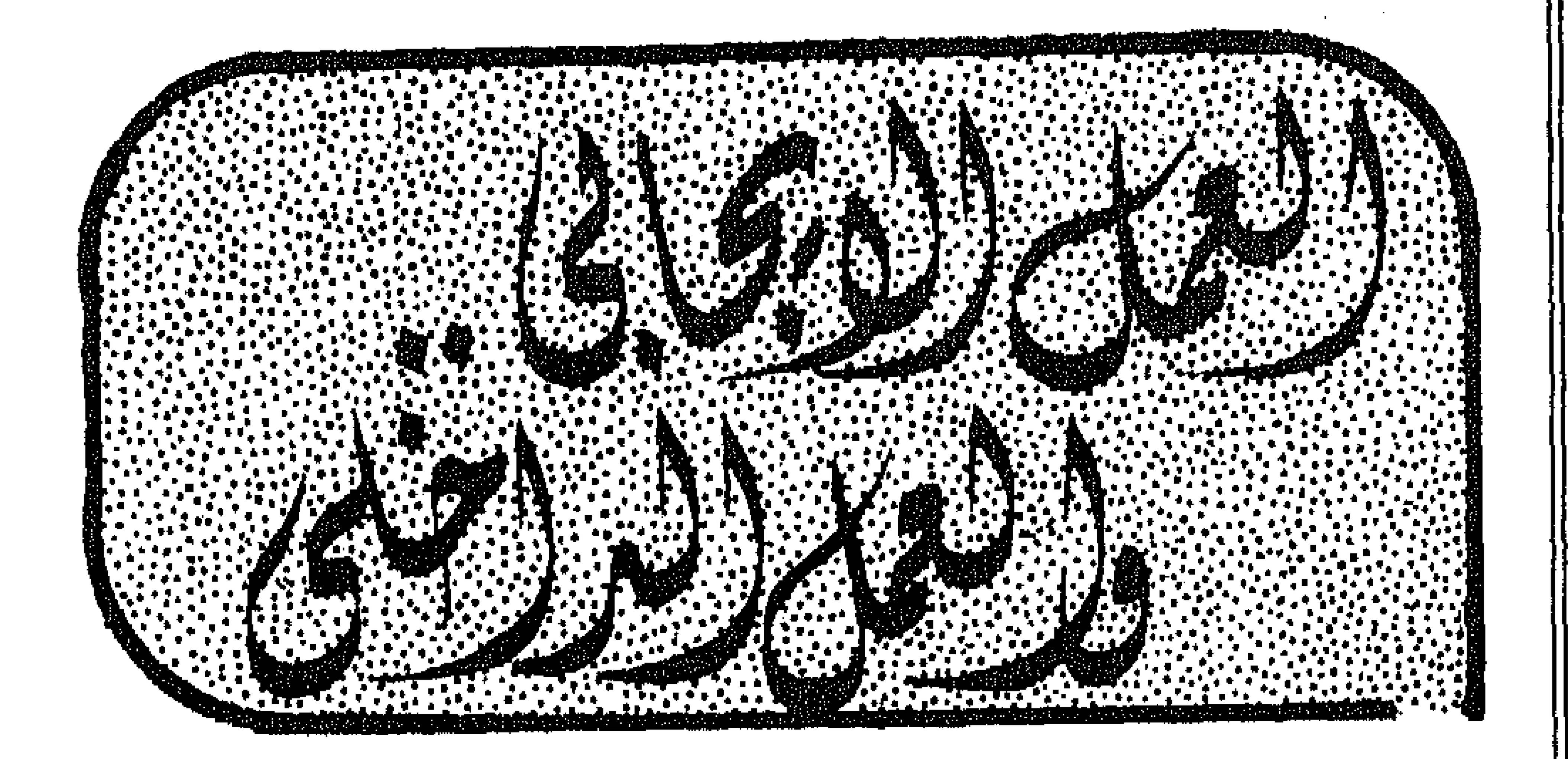
والطبيب الحكيم يعرف متى يستخدم المشرط ؟ ومتى يستخدم البتر؟ ومتى يستخدم المسكنات والمهدئات ...

ولذلك يقال عن الطبيب أنه « حكيم » و بعد ، أن موضوع الافراز قد يشمل الحياة الروحية كلها . وإن تكلمنا عنه سنتكلم عن جميع الفضائل .

ولعلنا نكتفى بما ذكرناه حالياً كمجرد أمثلة .







العمل الإيجابى

أهميته فى مقاومة الخطية .

أهمية محبة الله .

للوصول إلى محبة الله .

فائدة العمل الإيجابى .

العمل الداخلى

أهمية العمل الداخلى .

العمل الداخلى فى التوبة .

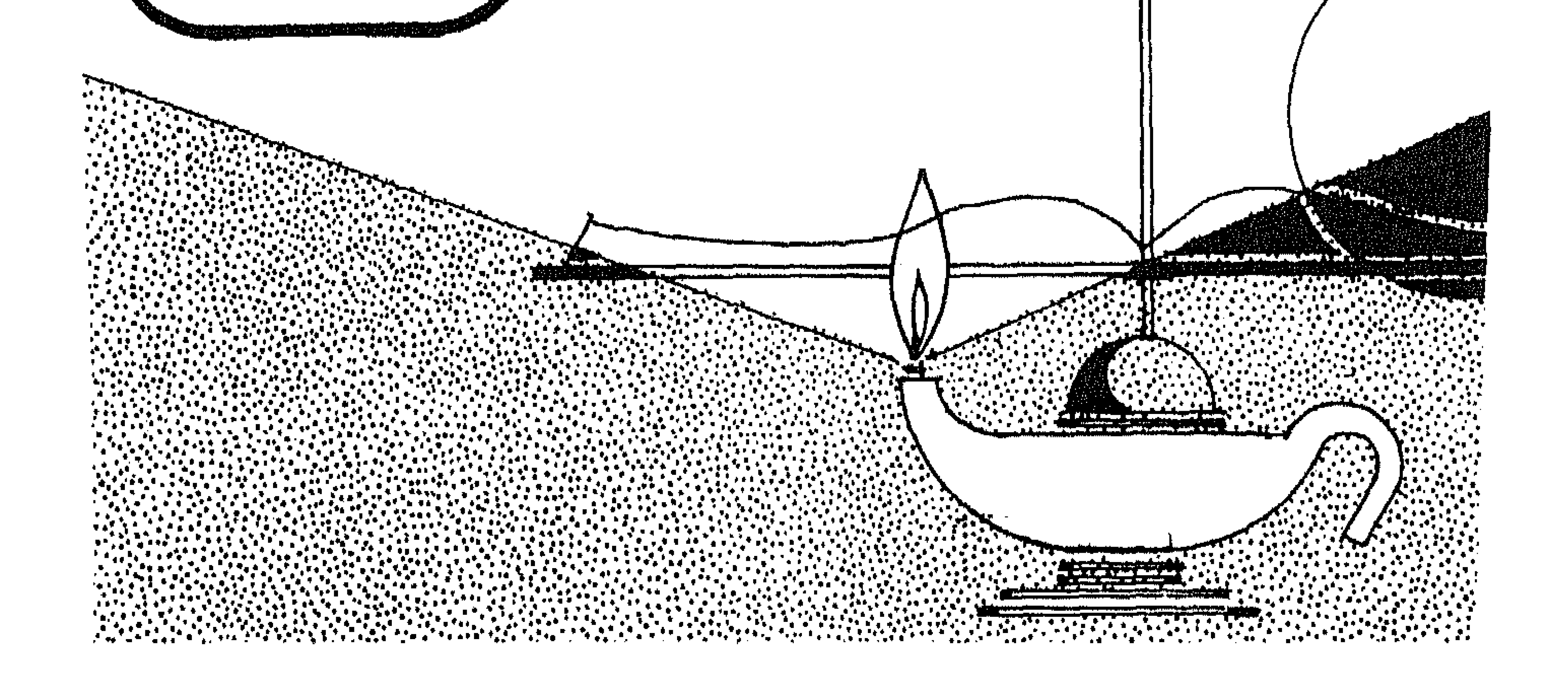
فى التربية وفى الخدمة .

فى الصلاة والصوم .

فى القراءة .

العمل الداخلى للصمت .

فوائد العمل الجوانى .





كل إنسان ـ فى بناء حياته الروحية ـ يواجه أمرين هامين: أحدهما هو مقاومة الخطية، لكيما يطهر قلبه وذهنه، و يطهر حواسه وجسده. وقد يمتد به الأمر إلى مقاومة الخطية فى غيره من الناس. لكى يشارك فى نقاوة المجتمع الذى يعيش فيه. إنها حياة صراع ضد الخطية والشيطان. تمثل الجانب السلبى من الحياة الروحية.

أما الجانب الإيجابى فى الحياة الروحية، فهو بناء النفس والروح بالفضيلة والحياة مع الله ومذاقه بالفضيلة والحياة مع الله ومذاقه الملكوت. فيذوق محبة الله والتمتع بعشرته فى حياة مقدسة.

إن الذى يجعل حياته كلها مقاومة للخطية، لاشك أنه يتعب كثيراً، لأن حياتة ضائعة فى صراع مع الخطية التى قال عنها الكتاب إنها «طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء» (أم ٧: ٢٦) وفى صراع مع الشيطان الذى هو عدو قاس وشرير لا يرحم. وفى نفس الوقت هو مختبر للنفس البشرية على مدى آلاف السنين. يعرف ضعفاتها ونقائصها. و يعرف كيف يسقطها...

لاشك أن هذا العمل السلبى شاق وصعب. وقضاء الحياة فيه أمر يرهق النفس ارهاقاً قد لا تحتمله.

فالصراع مع أجناد الشر الروحية ليس أمراً سهلاً. لأن الشيطان وإن كان قد فقد طهارته ونقاوته وقداسته السابقة. إلا أنه لم يفقد طبيعته كملاك. بكل ما فى هذه الطبيعة من قوة و بكل ما لها من إمكانيات...

ماذا إذن ؟ هل يترك الإنسان هذا الجانب السلبى؟ هل يترك مقاومة الخطية ؟! كلا ، بلاشك فإن هذا يكون استسلاماً لها ... ؟

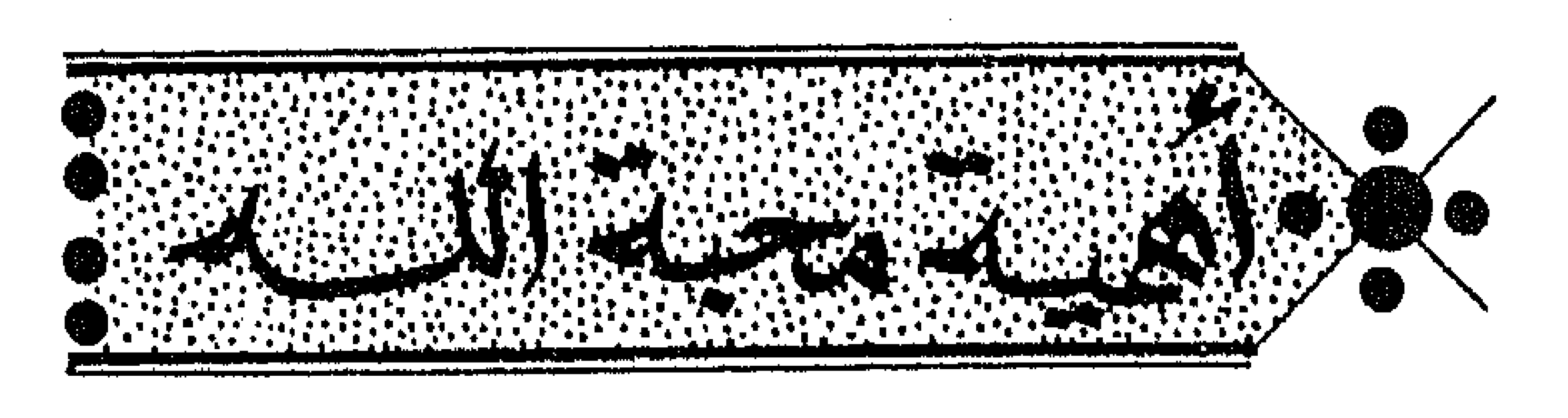
والرسول يعاتب أمثال هؤلاء و يقول «لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢ : ٤) .

فالمفروض فى الإنسان أن يقاوم الشيطان والخطية والجسد بكل ما له من قوة ، و بكل ما منحه الله من نعمة ، و يستمر صامداً إلى آخر نسمة من حياته .

إنما السؤال هو : لماذا تكون مقاومة الخطية صعبة ؟ لماذا سماها الرب بالباب الضيق والطريق الكرب ؟ (متى ٧ : ١٣ ، ١٤) . ولماذا قال كثير من الآباء إن الحياة الروحية تبدأ بالتغصب وقهر النفس ؟

إنها تكون هكذا صعبة إن كانت خالية من العمل الإيجابى ... إن كانت مجرد صراع ... «الروح يشتهى ضد الجسد ، والجسد يشتهى ضد الروح . وهذان يقاوم أحدهما الآخر» (غل ٥ : ١٧) .

ولماذا هذا الصراع ؟ ذلك لأن محبة الله لم تدخل إلى القلب ، ولم تستقر فيه بعد . وكيف تدخل محبة الله إلى القلب ؟ .. تدخل بالعمل الإيجابى .



أهمية محبة الله

من هنا كانت أهمية العمل الإيجابى فى الحياة الروحية . لأنه بدونه تكون مقاومة الخطية عملية صعبة ومريرة . وربما تكون أيضاً عملية خاسرة ... ! ولعلنا هنا نسأل :

لماذا يتعب الإنسان فى حروبه الروحية ، ولماذا يتأرجح كثيراً بين الفشل والنجاح ؟ .

ذلك لأن محبة الله ليست داخل قلبه . فهو يحارب من فراغ . يقاوم الخطية ثم لا يصمد . لأنه لايملك السلاح الذى يحارب به . لا يملك القوة التى يصمد بها . ولاشك أن السلاح القوى الذى تنتصر به على الخطية . هو محبة الله التى تجعلك تنفر من الخطية

وتقول « كيف أفعل هذا الشر العظيم واخطىء إلى الله » (تك ٣٩ : ٩) .

إن محبة الله إن دخلت إلى قلبك، ستهرب منه الخطية تماماً، هذه التى تشقى أنت فى مقاومتها، وتقع وتقوم مرات بغير ثبات !

إن دخلت محبة الله إلى قلبك. لا تشعر بأى سلطان للخطية عليك. ولا تحتاج إلى جهد كبير فى مقاومتها بل لا تجد داخلك هذا الصراع بين الجسد والروح. لأنك ستكون بطبيعتك نافراً من الخطية. كما أن الشيطان لا يجد له مكاناً فيك ... وكما قال السيد المسيح له المجد « رئيس هذا العالم يأتى، وليس له فىّ شىء » (يو١٤ : ٣٠) .

حالياً تحتاج إلى صراع مع الخطية، لأن فى داخلك شهوات عالمية تسقطك. توجد شهوات فى قلبك تقاوم الله. لذلك عندما يأتى إليك الشيطان. يجد البيت مزيناً ومفروشاً ومستعداً للقائه. فيدخل وأعوانه معه. لذلك شهوة الروح تجد مقاومة فى داخلك من شهوة الجسد.

أما إن كانت محبة الله فى قلبك، فسيكون بيتك محصناً ضد أى خطية، فلا تجد سهولة مطلقاً فى اقتحامه.

وحينئذ يمكنك أن تغنى مع داود النبى، وتقول لنفسك المحصنة « سبحى الرب يا أورشليم. سبحى إلهك يا صهيون لأنه قوى مغاليق أبوابك، وبارك بنيك فيك » (مز١٤٧) .

محبة الله فى داخلك، تجعل الخطية ضعيفة جداً فى مهاجمتها لك، لأنه لا يوجد فى داخلك ما يتفق معها ... وتصبح أبواب قلبك مغلقة أمام الشيطان. لا يستطيع أن ينفذ إليها بضربة شمال أو بضربة يمين.

الحب فى داخلك يحصن نفسك. وهذا الحب يلد فى داخلك بنين كثيرين هم ثمر الروح من الفضائل وأعمال البر.

لذلك لا يقول المرتل لنفسك إن الله قد حصن مغاليق أبوابك. فقط من الناحية السلبية. إنما يقول لها أيضاً من الناحية الإيجابية « وبارك بنيك فيك » .

إنه جهاد مريح وسهل ومفرح للقلب، أن تجاهد الجهاد الإيجابى من أجل معرفة الله والنمو فى محبته. وهو جهاد يختلف تماماً عن الجهاد السلبى فى مقاومة الخطية والشيطان.

إن ألذ شيء فى الحياة الروحية هو هذا العمل الإيجابى. الذى هو مذاقة الله ومذاقة الملكوت. وهو التمتع بالله. والمعيشة معه فى عمق محبته. وفيه لا تعود تقاسى من الحروب الروحية. ولا من صراع ضد الخطية. لأنك لم تعد تتفق معها فى طباعك. ولا يوجد فى داخلك ما يرضى بها...

هل تظن أن الإنسان يسقط فى الخطية، بسبب أن الخطية قوية، والعثرات شديدة، والشيطان كثير الحيل؟! كلا، بل أنه يسقط بالأكثر لأن قلبه خال من محبة الله...

وإن كان يحب الله. فلن يجد الخطية شهية على الإطلاق. ولا يجدها مطلقاً قوية فى حروبها... بل يرى نفسه ينفر منها. لأنها خاطئة جداً. ولا توافق طبعه النقى.



وكيف يصل إلى ذلك؟

يصل إلى ذلك بالعمل الإيجابى الروحى الذى يوصله إلى محبة الله. ومحبة الله تجعله لا يخطىء. لأن «المحبة لا تسقط أبداً» (١كو١٣: ٨). وكما قال القديس يوحنا الرسول إن الله محبة. والذى يثبت فى المحبة يثبت فى الله، والله فيه» (١يو٤: ١٦) «ولا يستطيع أن يخطىء، لأنه مولود من الله» (١يو٣: ٩).

حاول إذن أن تملأ قلبك من محبة الله، حينئذ تكون محبته فى داخلك كنار ملتهبة، تحرق كل شهوات الخطية وكل آثارها وكل أفكارها.

فما هو العمل الإيجابى الذى يوصلك إلى كل هذا؟

فكر كثيراً فى الله. وتفكيرك فى الله يلد محبته فى قلبك. ومحبته تجعلك تفكر فيه بالأكثر. وكل من الأمرين يوصل إلى الآخر ويقويه...

وإذا ما أكثرت التفكير فى الله . وفى سمائه وملائكته ، وفى كلامه ووصاياه ، وفى الأبدية السعيدة معه ، وإذا ما أكثرت التفكير فى صفات الله الجميلة ، وفى معاملات الله للناس ، حينئذ ستنشغل بالله .

ومشغوليتك به ستجعلك تفكر فيه بالأكثر وتفكيرك فيه سيزيد محبتك له . وهكذا تدور الدائرة ...

تفكيرك فى الله هو العمل الإيجابى الأول فى حياتك الروحية ... أى أن يكون الله أمامك باستمرار، تتذكره كل حين ، وكما قال داود النبى «محبوب هو إسمك يارب . فهو طول النهار تلاوتى» (مز ١١٩) .

وتفكيرك فى الله يقدس فكرك . ويلد فى قلبك مشاعر روحانية . وفى كل ذلك تستحى من أن تفكر فى شيء خاطىء . ولا يسهل عليك أن تخلط بأفكارك المقدسة أى فكر نجس . أو حتى أى فكر عالمى . وتتشجع للاستمرار فى فكرك الإلهى .

والتفكير فى الله يوصلك إلى نقاوة القلب ، لأنه لا شركة مطلقاً بين النور والظلمة (٢كو٦ : ١٤) .

وهنا تتعود الصلاة . وتتعود أيضاً الهذيذ والتأمل . وتشعر بأنك فى حضرة الله باستمرار . وفى هذا الحضور الإلهى لا يجرؤ الشيطان أن يتقرب إليك . وإن اقترب سرعان ما يتركك . لأنه لا يجد له مجالاً فيك . ولا يجدك متفرغاً له . ويرى أن طرقك لا توافق طرقه ... وحتى إن حاربك بشيء . تكون حربه ضعيفة . لأنك مشغول بالله ...

لهذا تكون كل حرب الشيطان لك مركزة فى ابعادك عن الانشغال بالله ، وليس فى محاربتك علناً بالخطية ...

فإن استطاع الشيطان أن يبعدك عن عملك الإيجابى الذى هو الانشغال بالله . حينئذ يتدرج خطوة أخرى فيحاول القاءك فى السلبيات ...

وحتى فى تلك الحالة تكون قد اكتسبت قوة من عملك الروحى السابق تستطيع أن تقاوم بها محاربات الشيطان .

وفى هذه الحالة يحاربك الشيطان وهو يحترمك ، وهو يخافك ، ويحترس منك ، فلا ينزل عليك بكل ثقله .

أما الإنسان البعيد عن العمل الإيجابى . فهو فريسة سهلة للشياطين . وهم لا يخافونه . إذ يعرفون أنه بلا قوة فى الداخل تقاومهم .

قلنا إن العمل الإيجابى يشمل محبة الله ، و يأتى عن طريق التفكير فى الله ، وعن طريق الهذيذ والتأمل والانشغال بالله . وماذا أيضاً :

إن القراءة الروحية نافعة جداً كعمل إيجابى يشغل الفكر بالله ، و يقدم له كذلك مادة للتأمل وللصلاة . إنها تذكرنى برفع البخور . الذى يعد المذبح لتقديم القرابين عليه .

فالقراءة توجد فكرك فى جو روحى وتذكرك بالله وقديسيه . وكلمة الرب فعالة ، تعمل فيك ، وتعطى حرارة لروحياتك ، وتدفعك بقوة إلى طريق الرب ، كما أنها تعطيك استنارة فى الفكر ، وتلد فيك مشاعر روحانية ، وتقوى عزيمتك على السير فى طريق الله ...

ومثل القراءة الروحية فى فاعليتها ، الاجتماعات الروحية أيضاً .

بكل ما فيها من صلوات وقراءات ، وتراتيل وألحان وجو روحى نافع لربط الإنسان بالله . يضاف إلى ذلك ما فيها من كلمات روحية نافعة . كل ذلك يوجدك فى بيئة روحانية ، يشعر الشيطان أنه غريب عنها ...

والصدقات الروحية نافعة جداً . إنها من الأعمال الإيجابية التى تقوى بها قلبك وتجذبك إلى الله .

وصديقك الروحى ، هو الصديق الذى كلما تراه ، تذكر الله ووصاياه ، وتتبكت على خطاياك ، وتأخذ منه قدوة فى حياة الفضيلة .

إن الخطية لم تستطع أن تدخل فى حياة لوط وأسرته . حينما كان لوط يعيش مع أبينا ابراهيم . ولكنها وجدت مجالاً حينما ابتعد لوط عن هذه الصداقة الروحية وسكن فى سادوم . يعذب نفسه بأخطاء سكانها .

والتناول من أهم الأعمال الإيجابية بتأثيراته العميقة فى النفس ، وبما يصحبه باستمرار من توبة واعتراف .

وقد قال السيد المسيح عمن يتناول « يثبت فىّ وأنا فيه » (يو٦ : ٥٦) . نقول فى صلوات القداس الإلهى « نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا » ...

فما هو الذى لك من كل هذا العمل الإيجابى ؟ وماذا لك أيضاً من جهة التداريب الروحية التى تدرب بها نفسك على حياة الروح وثمار الروح . والتى تجعلك منشغل الفكر كل يوم بأبديتك وكل ما تتطلبه من أعمال ... ثم ماذا أيضاً عن محاسبة النفس . وتبكيتها على كل نقص وكل خطأ ... وماذا عن المطانيات والصوم والسلوك فى حياة الروح ... ؟



إنك بكل هذا العمل الإيجابى ، تقيم توازناً داخل نفسك بين تأثيرات العالم عليك والتأثير الروحى .

أما أن يأتى الشيطان ليحاربك . فلا يجد حولك انجيلاً ، ولا مزموراً ، ولا صلاة ولا هذيذاً ولا تأملات روحية ولا اجتماعات ، ولا أصواماً ، ولا مطانيات ، ولا اعتراف ، ولا تناول ... فماذا يكون حالك إذن ؟ وكيف تستطيع أن تقاوم الخطية بلا سلاح ؟!

تكون حينئذ مثل مدينة يحاربها العدو ، وهى بلا جيش ، بلا اسلحة ، بلا تحصينات ... !

خذ هذه قاعدة . وضعها أمامك : كل إنسان تجده ساقطاً فى الخطية ، لابد أن تكون قد مرت عليه فترة ، وهو بعيد عن العمل الإيجابى ، سواء من جهة الوسائط الروحية ، أو من جهة العمل الإيجابى فى حياة الفضيلة ومحبة الله ...

وهكذا تكون الخطية قد أتته ، وهو غير مستعد لها . أو اتته وهو فى حالة ضعف أو

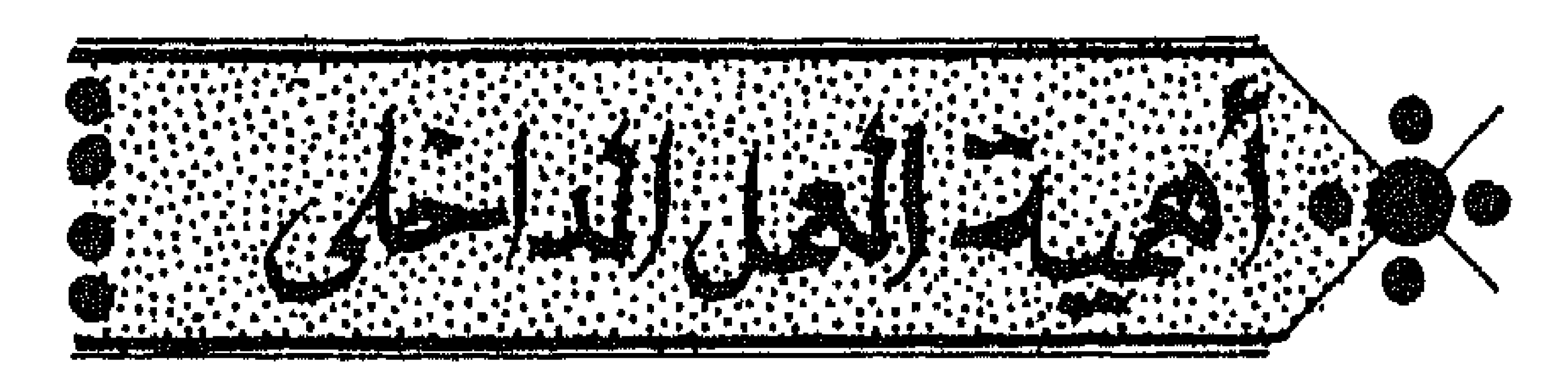
فتور. انظروا ان الرب قد قال: **« صلوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت » (متى ٢٤ : ٢٠).**

« فى شتاء » فى حالة البرودة الروحية ولا « فى سبت » فى وقت لا تعمل فيه عملاً من الأعمال. وكلا الأمرين يذكرانا بالبعد عن العمل الإيجابى الروحى...

لذلك كن متيقظ القلب باستمرار. وليكن زيتك فى مصباحك. وكما قال الرب فى هذا الاستعداد « لتكن احقاؤكم ممنطقة، ومصابيحكم موقدة » (لو١٢ : ٣٥).

اهتم بالعمل الإيجابى الروحى الذى يمنحك قوة لمقاومة الخطية. املأ مخازنك من الروحيات. لكى لا تقوى عليك السنوات العجاف بكل ما فيها من جوع وقحط. واحتفظ بحصاتك فى مقلاعك. حتى إن ظهر أمامك جليات. يمكنك أن تتقدم إلى الصف وأنت تقول فى ثقة « اليوم يحبسك الرب فى يدى » (١صم١٧ : ٤٦).

ولا تقصر جهادك على مقاومة السلبيات فقط، فإنها عمل مضن. وإنما بالعمل الإيجابى تنال قوة يمكنك بها التصدى للخطية. وليكن الرب معك...



أهمية العمل الداخلي

الحياة الروحية ليست مجرد ممارسات خارجية تعمل بالجسد . إنما المقياس الروحي لها يتوقف على مدى روحانية الإنسان من الداخل ، من حيث دوافعه ونياته ، ومشاعر قلبه ، وحالة فكره .. ولا ننسى قول الرب في ذلك : « يا إبني اعطني قلبك » (أم ٢٣ : ٢٦) ، وقوله أيضاً « فوق كل تحفظ احفظ قلبك ، لأن منه مخارج الحياة » (أم ٤ : ٢٣) .

الفضائل إذن تبدأ في القلب . ومن القلب تخرج لتظهر في الأعمال الظاهرة وكل عمل خارجي فاضل - بدون القلب - لا يحسب فضيلة على الإطلاق .

ولقد رفض الله كل عبادة تقدم إليه دون أن تكون نابعة من قلب نقي . وقال موبخاً اليهود « هذا الشعب يكرمني بشفتيه . أما قلبه فمبتعد عني بعيداً » (مز ٧ : ٦) .

لذلك لا يصح أن تهتم بالفضائل الخارجية ، ولا أن تكتفي بذلك .

ولنضرب مثالاً لذلك : مقاومة الغضب . إنسان يريد أن يترك الغضب ، فيدرب نفسه على أن يهدىء ملامحه ، و يهدىء حركاته ، و يبعد عن الصوت العالي ، وعن الصوت الحاد ، و يبدو هادئاً ، باعصاب هادئة بعيدة عن الانفعال . ولكن كل هذا هدوء خارجي . وربما يكون قلبه من داخل في أتون من نار ، مملوءاً من الغضب ، المكبوت في داخله ، وحسن طبعاً أنك لا تثور ، حتى لا تخطىء بلسانك وتفقد علاقاتك بالآخرين . ولكن ...

لا شك أن الهدوء الخارجي لا يكفي ولابد من عمل داخلي يهدأ به القلب أيضاً .

وهدوء القلب يأتي بتدريبه على الاحتمال ، وعلى الوداعة ، ومحبة الآخرين ، وعلى لوم النفس أيضاً . وهكذا تقنع نفسك من الداخل ، حتى لا يتحرك قلبك حركة خاطئة ، مهما كانت غير ظاهرة للآخرين .

ولعل هذا يذكرنا بقول الآباء عن : معنى تحويل الخد الآخر ...

ما معنى من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضاً ؟ (متى ٥ : ٣٩) .

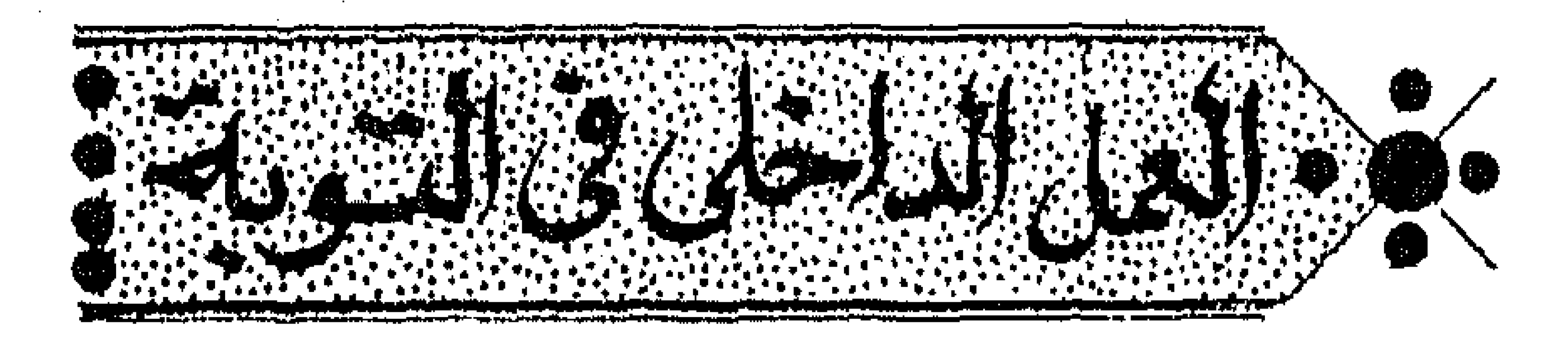
قال بعض الآباء - كما فى كتاب المعاهد ليوحنا كاسيان - إن اللطمة الأولى هى من الخارج ، على الخد أى إهانة خارجية ، تقابلها بتحويل الخد الآخر ، الذى هو اللطمة الداخلية ، بتوجيه اللوم إلى نفسك ، بأن تقول لنفسك : أنا استحق كل هذا بسبب خطاياى . فاللطمة الثانية تأخذها من قلبك فى الداخل .

وحتى إن أخذنا وصية تحويل الخد الآخر بالمعنى الحرفى وليس بالمعنى الرمزى ، فإن هذا المعنى الرمزى يوافق ما حدث لداود النبى لما تعرض « شمعى بن جيرا » لسبه وإهانته حينئذ أراد قائد جيش داود أن يقتل شمعى بن جيرا ، فمنعه داود النبى قائلاً : « دعوه يسب ، لأن الرب قال له سب داود ... لعل الرب ينظر إلى مذلتى » (٢صم ١٦ : ٥ - ١٢) .

وهذا أيضاً يوافق قول القديس الأنبا أنطونيوس الكبير « إذا وبخك أحد من الخارج ، فوبخ نفسك من الداخل » وذلك لكى يصير هناك توازن فى داخلك وخارجك ، حتى لا تتعب ...

فالبعض يحتمل من الخارج فى هدوء ظاهرى ، بينما فى داخله يكون فى تعب ، شاعراً بالظلم . وهكذا يكون هناك تناقض بين داخله وخارجه ...

ولكن بالعمل الروحى الداخلى ينجو من هذا التناقض ، إما عن طريق الاتضاع بلوم النفس وتذكر خطاياه .. وإما عن طريق الفرح بالدخول فى شركة آلام المسيح (فى ٣ : ١٠) . وهكذا يشعر بفرح فى الآلام ، مثلما حدث مع الآباء الرسل الذين بعد أن جلدوهم « ذهبوا فرحين .. لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل إسمه » (أع ٥ : ٤١) . ننتقل إلى نقطة أخرى وهى :



التوبة من خارج هى ترك الخطية والبعد عنها وعن كل مسبباتها . ولكن قد يترك الإنسان الخطية ، ولا تزال فى قلبه رغبة من نحوها . فهل نسمى هذه توبة ؟! كلا ، بل

لابد أن يكون هناك عمل داخلى ، داخل القلب ، حتى يصل الإنسان إلى كراهية الخطية . وتكون هذه هى التوبة الحقيقية .حيث يضع فى قلبه شهوة الحياة مع الله ، بدلاً من شهوة المادة والجسد ...

وهنا نود أن نشرح المعنى الروحى للمطانيات أى السجود .

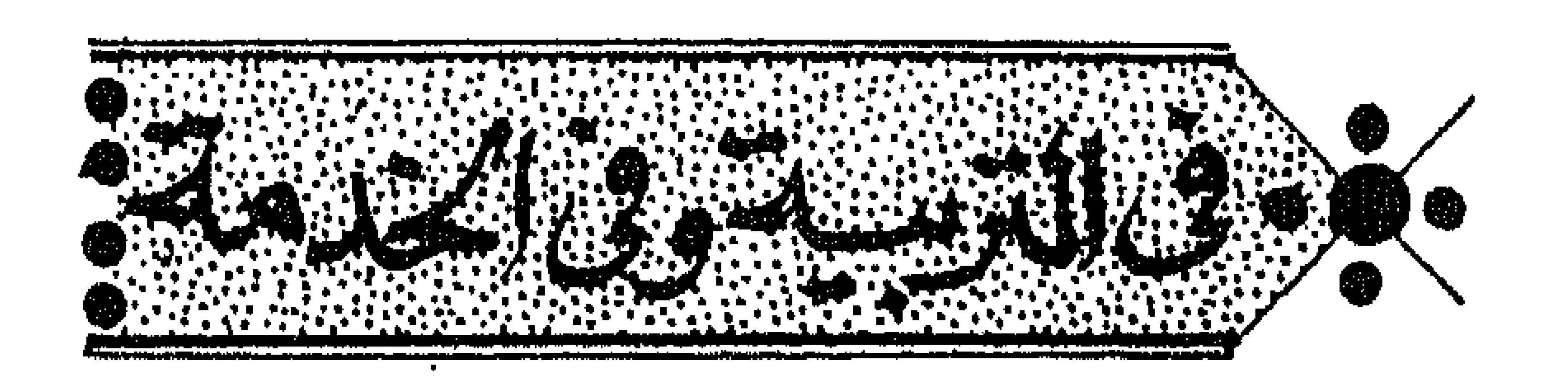
فى المطانية يسجد الإنسان ، ينحنى وتلصق رأسه بالأرض أى التراب . هذا هو العمل الخارجى الظاهر. ولكن هناك عملاً داخلياً يجب أن يصاحب انحناء الجسد ، وهو أن تنحنى النفس من الداخل ، فى انسحاق بتركها لكبريائها ، كما قال داود النبى « لصقت بالتراب نفسى » (مز١١٩) .

قال أخ لأحد الآباء « أحياناً اضرب المطانية للأخ معتذراً ، فلا يقبلها منى ! » . فأجاب الأب «ذلك لأنك تفعل ذلك بكبرياء » .. أى أن الجسد قد انحنى ، بينما النفس مازالت فى كبريائها ، لم تلصق بالتراب ...

التوبة إذن سواء فى التصالح مع الله والناس ، هى عمل داخلى ، فى اقناع النفس تماماً بهذا الطريق ، ورغبته فيه ، وندمها على ما سبق ...

وكل هذه أمور تتم فى الداخل ، وليس الأمر فى مجرد ترك العثرات من الخارج . لأنه لو احاطتنا العثرات كلها من الخارج ، فلن تستطيع أن تضرنا بشىء ، مادام القلب منتصراً فى الداخل . وصدق القديس يوحنا ذهبى الفم حينما قال «لا يستطيع أحد أن يضر إنساناً ، ما لم يضر هذا الإنسان نفسه » ...

وهنا ننتقل إلى نقطة أخرى وهى :



كثيراً ما يقف الوعاظ على المنابر ، و ينددون بازياء النساء و بعدها عن الحشمة ، كما ينددون بطول شعر الشبان وما شابه ذلك . وكل هذه أمور خارجية ، قد يبعد عنها النساء والشبان عن طريق الضغط عليهم ، وتبقى مع ذلك قلوبهم غير نقية.

والحل هو العمل الداخلى ، بادخال محبة الله ومحبة العفة إلى قلوب هؤلاء وأولئك ، واقناعهم بأن جمال الروح أهم بكثير من جمال الجسد ...

حينئذ سيتركون ما هم فيه ، عن اقتناع وبكل رضى ، ويحبون الحشمة و يسلكون فيها بكل جدية ... ليس لمجرد الطاعة وليس عن خوف ، وإنما بنقاوة قلب . وحينئذ لا يحتاجون إلى رقيب ، ولا إلى توبيخ . ولا يقعون فى تناقض ...

وهذه هى التربية الحقة التى تعتمد على العمل الداخلى فى الاقناع ، وفى غرس المبادىء السامية داخل النفس .

ربوا أولادكم إذن من الداخل ، وليس من الخارج .

اعملوا بروحياتكم داخل قلوبهم ، قبل أن تستخدموا العصا من الخارج اغرسوا داخلهم محبة الله أولاً . وثقوا أن محبة الله أقوى من العصا بكثير. وثقوا أن محبة الله تستطيع أن تطرد كل خطية بهدوء من القلب .

نقوا أولاً داخل الكأس والصحفة ـ كما أمر المسيح له المجد ـ لكى يكون خارجهما أيضاً نقياً (متى ٢٣ : ٢٦) .

والعمل الداخلى هدفه الأنتصار على النفس أولاً ، والوصول إلى تنقية النفس بعد ذلك .

و يستلزم هذا أقناع النفس بالطريق السليم . ولكى تقتنع لابد من الفهم الحقيقى للأمور. فتفهم ما معنى الحياة وما هدفها ؟ وما معنى الحرية وما حدودها ؟ وما معنى القوة ؟ وما معنى الجمال ؟ وما معنى الرجولة ؟ بل ما هو المفهوم الحقيقى للدين وأساليب التعامل بين الناس ؟

إننا فى التربية لا نسير الناس بالعصا ، إنما بالأقناع و بالفهم السليم .

وتبقى بعد هذا تقوية ارادتهم وكل هذا عمل داخلى ، فى القلب والفكر.

ما أسهل من الخارج أن نعاقب وأن نضرب . ولكن هل هذه هى التربية ؟! كلا ، وإن أتت هذه الطريقة بنتيجة ، فغالباً ما تكون مؤقتة تزول بعد حين ، بزوال الضغوط الخارجية .

وهل الذى يخضع لهذه الضغوط يكون له أجر عند الله ؟! أى أجر وهو مسير يسير فى الفضيلة خارجياً وبغير أرادته ؟!

العمل الداخلى إذن له اتجاهان : عملنا داخل أنفسنا ، وداخل أنفس الناس .

ننتقل إلى العمل الداخلى بالنسبة إلى وسائط النعمة :



الصلاة : هل هى مجرد كلام مع الله ؟ أم لها عمل داخلى ؟ ما هو ؟

الكلام مع الله هو العمل الخارجى الظاهر فى الصلاة . ولكن لاشك هناك عمل داخلى أهم . وهو الشعور بالصلة مع الله والتلامس معه أثناء الصلاة ، وما يصحب ذلك من مشاعر الحب والخشوع والإيمان والحرارة الروحية ، والمتعة بالوجود فى حضرة الله .

بل أحياناً تخرج الصلاة عن حدود الكلام مع الله ، كما قال الشيخ الروحانى **سكت لسانك لكى يتكلم قلبك . وسكت قلبك لكى يتكلم الله ...**

هذا هو العمل الداخلى فى الصلاة ، وهو أولاً التقاء الإنسان مع الله ...

وثانياً : الاستماع إلى صوت الله داخل النفس ، أو على الأقل الإحساس الروحى العميق بالحضرة الإلهية . فهل وصلت إلى هذا ، أم أنك تكتفى بالعمل الخارجى ...

وهنا نرى بعضاً من العمل الداخلى يكون منك ، وبعضاً آخر يصلك عن طريق الهبة من الله نفسه .

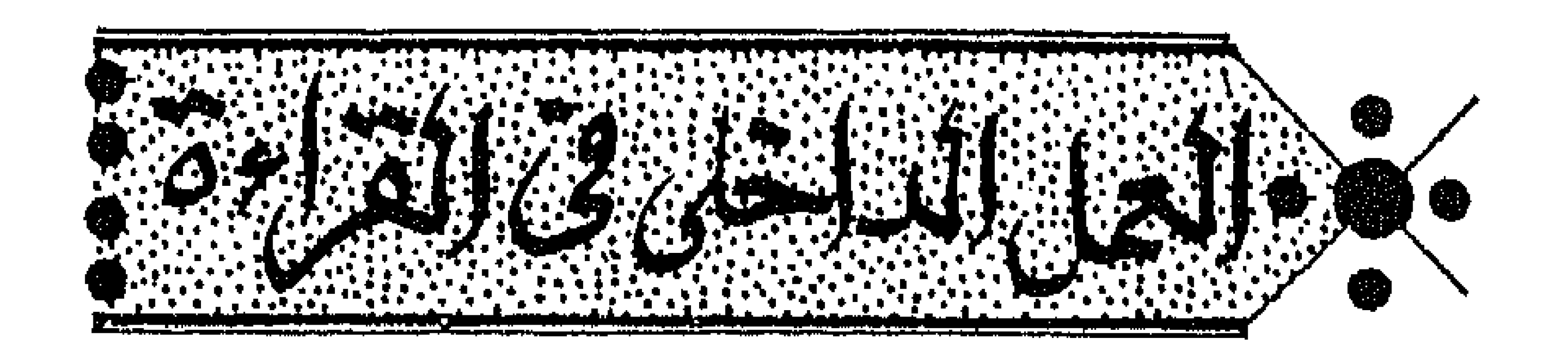
العمل الداخلى فى الصوم :

كثير من الناس يقتصرون فى أصوامهم على العمل الخارجى الذى هو الامتناع عن الأكل ، والاقتصار بعد ذلك على أطعمة غير شهية ...

أما العمل الداخلى للصوم ـ الذى يهمله هؤلاء ـ فهو منع النفس عن كل شهوة خاطئة ، كما منع الجسد من مشتهيات الطعام . وكذلك اتخاذ الصوم فترة ترتفع فيها

الروح عن مستوى الجسد ، وتأخذ غذاءها الروحى المركز الذى يستمر معها حتى بعد الصوم ...

فهل أنت كذلك ؟ أم تقتصر على العمل الخارجى الجسدى ، وتظن أنك صائم ؟



القراءة هى عمل خارجى . أما التأمل فى ما تقرأه فهو عمل داخلى . ولذلك فالتأمل أهم من القراءة .

والفهم هو عمل داخلى ، وكذلك التأثر والعمل بما تقرأ .

والمقصود بالعمل الداخلى فى القراءة هو العمل الروحى ، وليس مجرد المعرفة التى تضيف بها معلومات إلى ذهنك .

العمل الداخلى فى القراءة هو تحويل المعلومات إلى حياة .



عدم الكلام هو المظهر الخارجى للصمت . ولكن الصمت لا يقتصر على هذا الجانب السلبى ، إنما له إيجابيات .

فالعمل الداخلى للصمت هو أن يغوص الإنسان داخل نفسه ، فى استفادة روحية ، للتأمل وللتفكير فى الإلهيات ، وللصلاة . وهكذا ينتفع روحياً من صمته .

إنه لا يتكلم مع الناس ، لأنه فى نفس الوقت يتكلم مع الله ... لذلك هو يجلس وحده ، لكى يتمتع بالله .

وبهذا لا تكون الوحدة هى مجرد جلوس الإنسان وحده ...

لأنه أية فضيلة فى أن يجلس الإنسان وحده ؟! وربما يجلس وحده وتسرح الأفكار به

هنا وهناك .

إن جلوس الإنسان هو مجرد عمل خارجى غايته الجلوس مع الله ، أو الانفراد بالله والتمتع بعشرته الإلهية ، فى صلاة فى تأمل ، فى تسبيح ، فى اعتراف ، فى حب، ... فهذا هو العمل الداخلى للوحدة .

لابد أن نهتم بالعمل الداخلى بكل قوتنا ، لأن الكتاب يقول : ملكوت الله داخلكم (لو١٧ : ٢١) .

إن وصلنا بالعمل الداخلى إلى أن يكون ملكوت الله داخلنا ، نكون بهذا قد وصلنا إلى عمق العمل الروحى حيث يملك الله على القلب ... وعلى الفكر، وعلى كل ما فينا من مشاعر وأحاسيس ...

وكل عبادة لا تصل بنا إلى هذا الهدف ، لابد أنها قد أخطأت الطريق .

والعمل الداخلى له اتجاهان : عمل مع الله ، وعمل مع النفس ...

أنت تعمل مع نفسك لكى تضبطها حسناً ، وتراقب كل افكارها وحواسها ورغباتها ، وتبكتها إن انحرفت ، وتعيد مسارها إلى الوضع السليم ، وتقنعها بطريق الرب وجماله ، وتذكرها بالأبدية لكى تعد ذاتها لها بكل جدية وجهاد ...

وعملك مع الله هو أن تصارع الله لكى يثبت ملكوته فى قلبك. كذلك عملك مع الله هو المفاجأة والحب ...

لاشك أن تكوين علاقة مع الله ، وتعميقها يوماً بعد يوم ، هو عمل داخلى . وهذا العمل الداخلى لا تصلح له المظاهر الخارجية ولا الشكليات ، ولا السلوك فى الطريق الروحى كمجرد واجب ...

والحياة الروحية ليست مجرد ممارسات خارجية وقوانين ونواميس ، إنما هى محبة لله وللناس . والمحبة عمل داخلى ، يحتاج إلى رعاية وحفظ وتنمية ...

هذا من جهة الذين فى العالم . أما الرهبان فعملهم الداخلى يأخذ معنى أكثر عمقاً وسمواً ... ولهذا نسأل :

ما معنى عبارة راهب عمال ؟

الراهب العمال هو المنشغل باستمرار بالعمل الجوانى ، بحيث يكون عقله وفكره يشتغلان باستمرار مع الله .

وإن كان قد قيل عن الرهبنة إنها « الانحلال من الكل ، للارتباط بالواحد » ... يكون العمل الجوانى للراهب، إذن ، هو كيف يربط عقله باستمرار بالله ، وكيف يربط كل عواطفه بمحبة الله ، و يطرد كل فكر غير ذلك .

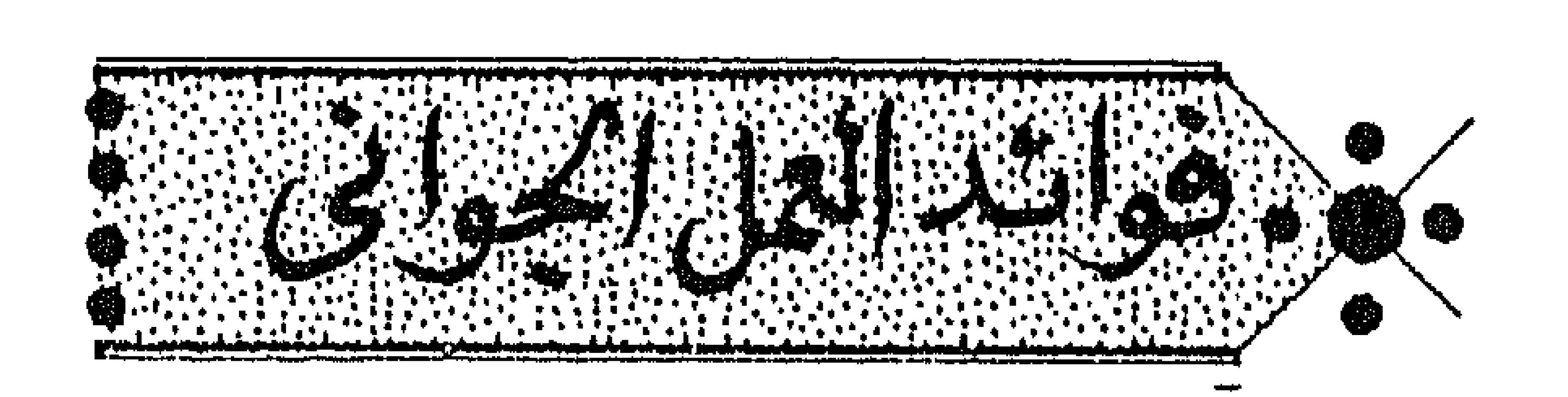
لهذا عليه أن ينشغل بالصلاة والتأمل والتسبيح والترتيل والقراءة الروحية ، حتى يكون عقله مع الله دائماً . لأنه إن لم يفعل هكذا ، سيشرد ذهنه بعيداً ، و يقع فى طياشة الأفكار.

وعمله الجوانى مع الله يدعوه بالضرورة إلى التزام الصمت ...

وذلك كما كان يقول القديس ارسانيوس « لا استطيع أن أتكلم مع الله والناس فى نفس الوقت » ...

وكما قال أحد الآباء ـ الراهب الكثير الكلام ، يدل على أنه فارغ من الداخل ـ أى فارغ من العمل الجوانى .

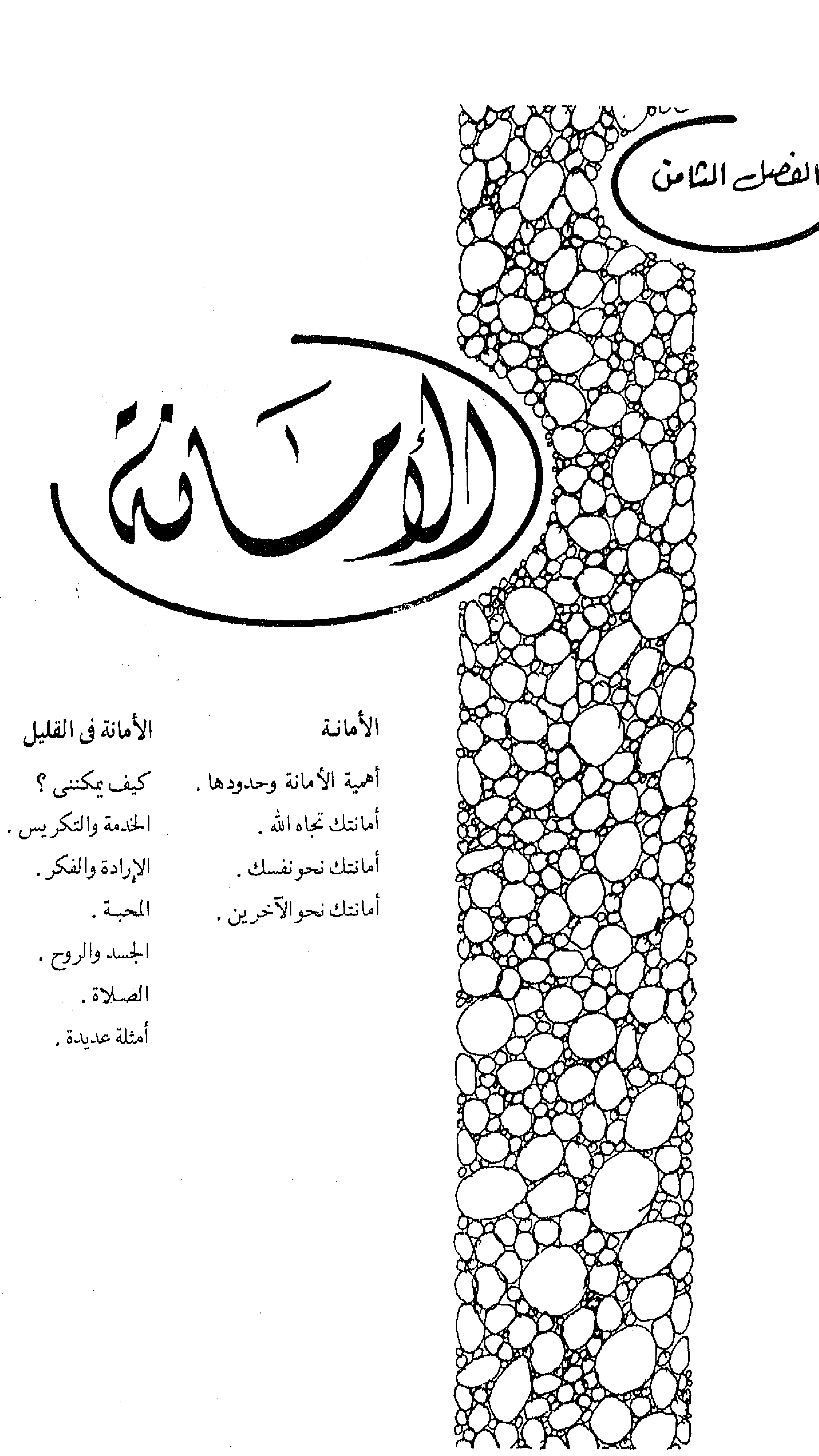
لهذا لجأ الأ باء إلى الوحدة ، وحرصوا على الصمت وحفظ الحواس ، لكى يستمروا فى عملهم الداخلى مع الله ، حتى وصلوا إلى الصلاة الدائمة وإلى صلب العقل فلا يطيش هنا وهناك .



لعل فى مقدمتها الارتباط الدائم بالله .. وايضاً شعور الإنسان بضعفه إذ يشعر أنه عاجز عن تنفيذ تدريب الانحلال من الكل للارتباط بالواحد . وهكذا كلما يزداد إلتصاقاً بالله يزداد اتضاعاً .

والشيطان لا يترك هذا العمل الجوانى بدون حروب ومعوقات .

فيحاول بقدر إمكانه أن يشتت الفكر، و يعرض عليه عشرات الموضوعات ، و يشعره بأهميتها لينشغل بها ... كما قد يرسل إليه من الزوار والأصدقاء من يشغله عن عمله الروحى ، و يرسل إليه مشغوليات لا تحصى ... بل قد تحاربه الرعاية أيضاً لتأخذ وقته واهتماماته بدلاً من الانفراد بالله ...!



الفصل الثامن

الأمانة

الأمانة

أهمية الأمانة وحدودها .

أمانتك تجاه الله .

أمانتك نحو نفسك .

أمانتك نحو الآخرين .

الأمانة فى القليل

كيف يمكننى ؟

الخدمة والتكريس .

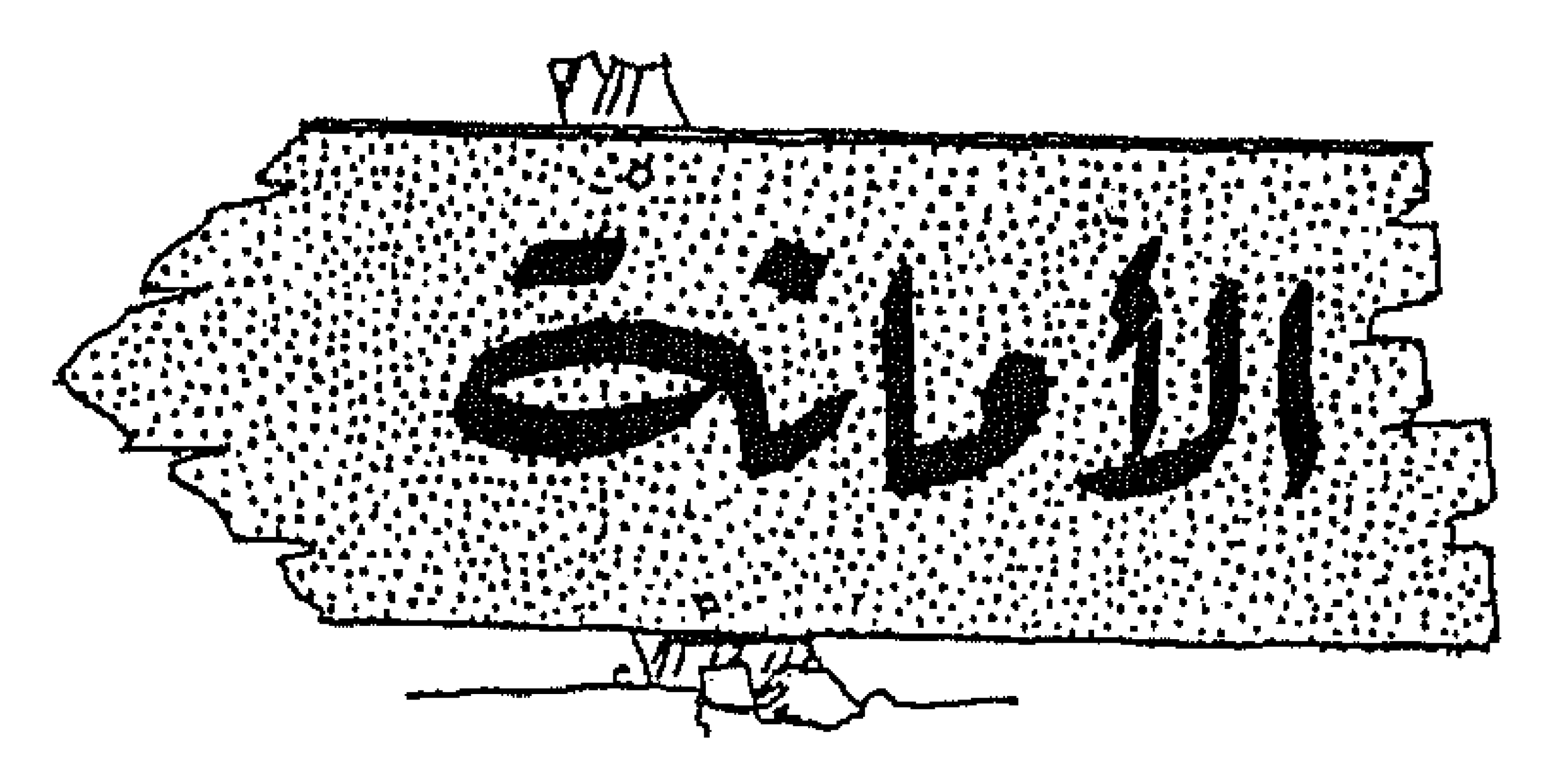
الإرادة والفكر .

المحبة .

الجسد والروح .

الصلاة .

أمثلة عديدة .



أهمية الأمانة وحدودها

لست أقصد مجرد الأمانة فى المال والأمور المادية ، أى أن الإنسان لا يكون سارقاً أو ناهباً لغيره... إنما أقصد الأمانة بوجه عام فى كل تصرفات الشخص وحياته الروحية :

أمانة فى علاقته مع الله ، ومع الناس ، ومع نفسه .

وقد دعانا السيد المسيح إلى هذه الأمانة فتحدث عن الأمانة فى الخدمة ، وعن « الوكيل الأمين الحكيم ، الذى يقيمه سيده على عبيده ليعطيهم طعامهم فى حينه » (لو١٢ : ٤٢) . بل أنه أكثر من هذا :

ذكر أن الأمانة هى مقياس الدينونة ، وعماد الدخول إلى الملكوت .

إذ أنه سيقول لمن يستحق الدخول إلى ملكوته « نعماً أيها العبد الصالح والأمين كنت أميناً فى القليل ، فأقيمك على الكثير. أدخل إلى فرح سيدك » (متى ٢٥ : ٢١ ، ٢٣) .

ولكن إلى أى حد تكون الأمانة ؟ يقول الرب :

« كن أميناً إلى الموت ، فسأعطيك إكليل الحياة » (رؤ٢ : ١٠) .

« إلى الموت » ، أى إلى الحد الذى تبذل فيه ذاتك وتضحى بحياتك ، من أجل أن تكون أميناً ... ولعل هذا يذكرنا بتوبيخ القديس بولس الرسول للعبرانيين على عدم أمانتهم فى مقاومة الخطية . فيقول فى ذلك :

« لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية » (عب ١٢ : ٤) .

« حتى الدم » ، أى لو أدى الأمر أن يكون الإنسان مستعداً لسفك دمه ، وهو يجاهد ضد الخطية . وبذلك يكون أميناً فى علاقته تجاه الله ، ولا يخونه بالاستسلام للخطية .

والأمانة هى التى ساعدت الأبرار على الوصول .

كثيرون بدأوا الطريق معاً . ولكن بعضهم وصل ، والبعض لم يصل ، والبعض تأخر . وما السبب فى ذلك ؟ السبب هو أن البعض كانوا أمناء فى كل واجباتهم الروحية ، فاستطاعوا أن ينالوا الأكاليل ، بعكس غيرهم ...

والأمانة تشمل الأمور العالمية ، كما تشمل الأمور الروحية :

فكما يهتم كل إنسان بروحياته ، ينبغى أن يكون أميناً فى كل عمل يعمله . فالتلميذ ينبغى أن يكون أميناً فى حياته الدراسية ، فى مذاكرته ومراجعته ونجاحه وتفوقه . وكذلك العامل فى اتقانه لعمله وحفظه لمواعيده ، وكذلك الموظف ، وكل من هو فى مسئولية ...

يوسف الصديق كان إنساناً روحياً ، وأميناً فى عمله .

كان أميناً فى خدمته لفوطيفار ، حتى أزدهر عمل الرجل . وكان أميناً أيضاً فى عمله كوزير تموين لمصر ، حتى أنقذها وأنقذ البلاد المحيطة من المجاعة . بل كان أميناً أيضاً فى عمله وهوسجين ، لدرجة أن حافظ السجن أئتمنه على مسئوليات ...

وهناك فى الحياة العملية ، أمور لاختبار الأمانة :

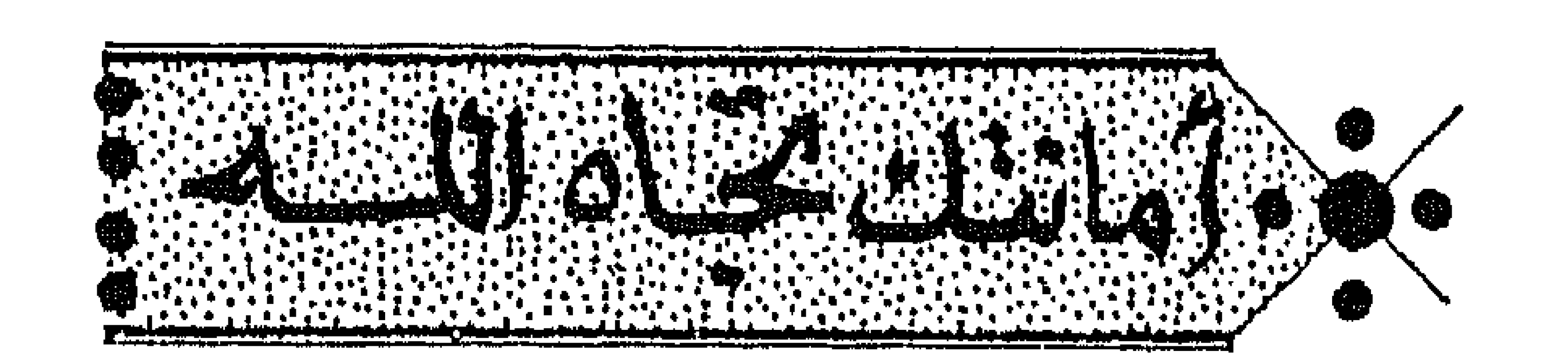
مثال ذلك من يحصل على شهادة مرضية زائفة ، لمجرد الحصول على عطلة من العمل بدون وجه حق . وهو لايكتفى بأن لا يكون أميناً ، بل يُعثر فى ذلك الطبيب ويجره إلى الخطأ معه . وكذلك من يأخذ بدل سفرية بدون وجه حق . أو من يطالب بمكافأة على عمل زائد (over time) بينما يمكن القيام بالعمل فى الوقت العادى بدون زيادة ...

والأمثلة كثيرة :

ومنها أيضاً من ينقل الأخبار بطريقة غير أمينة ...

أو من لايكون أميناً على سر ّاؤتمن عليه ...

ومن لا يؤدى أية مهمة كُلّف بها بالأمانة المطلوبة .
نتتقل إلى نقطة أخرى وهى :



إذا كان الله أميناً فى علاقته بنا ، للدرجة التى وصلت إلى التجسد والفداء ، وإلى هذا الحد وصلت محبته ووصل بذله ، فكم بالأولى يجب علينا نحن أن نكون أمناء ؟!

وأمانتك تجاه الله ، تعنى أنك لا تخونه أبداً .

خذ مثالاً لذلك : إنسان متزوج ، إن كانت زوجته أمينة له ، فمهما أعطاها من حرية دون رقابة ، تكون أمينة له ، لا تخونه ، ولا تكون لها علاقة مع غيره ...

كذلك نفسك ، إنها عروس للمسيح ، لا تخونه مع العالم ، ولا تخونه مع الشيطان ، ولا مع أية شهوة ردية ، ولا مع أى فكر شرير .

قلبك الذى هو ملك له ، لا تفتحه لأعدائه .

والإنسان الأمين ، لا يتساهل مع أية خطية ، لأنها عداوة لله . لا يتراخى مع أى فكر خاطىء ، بل بكل أمانة يطرده بسرعة . لا يقبل على الإطلاق أى أمر يفصله عن الإلتصاق بالله ، معتبراً أن كل خطية هى خطية موجهة أساساً إلى الله ، لأنها ضد محبته ، وضد مشيئته ، وضد وصاياه ، وضد الثبات فيه ، كما تسامى يوسف الصديق عن الخطية وهو يقول :

كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطىء إلى الله » (**تك ٣٩ : ٩**) .

معتبراً أن تلك الخطية ليست موجهة أصلاً إلى فوطيفار أو إمرأته ، إنما هو فيها « يخطىء إلى الله » ... وبنفس المعنى قال داود النبى للرب فى المزمور الخمسين « لك وحدك أخطأت والشر قدامك صنعت) ...

والخطية هى انفصال عن الله ، بل هى تمرد عليه .

والإنسان الأمين فى علاقته مع الله ، لا يقبل اطلاقاً ما يفصله عنه ، كما قال القديس بولس الرسول « فإنى متيقن أنه لا موت ولا حياه ، ولا ملائكة ولا رؤساء ولا قوات ، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ، ولا خليقة أخرى ، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله ، التى فى يسوع المسيح ربنا » (رو٨ : ٣٨) .

الذين عرفوا الله بالحقيقية ، لم يتركوه أبداً .

ونقدم مثالاً لذلك ، قديسى التوبة ، الذين لما تابوا ، وذاقوا محبة الله ، لم يرجعوا مرة أخرى إلى الخطية ، التى تفصلهم عن محبة الله . بل استمر نموهم فى المحبة حتى وصلوا إلى درجات من الكمال . نذكر من بين هؤلاء : القديس أوغسطينوس والقديس موسى الأسود ، والقديسة مريم القبطية والقديسة بيلاجية .

وعن الحياة الخاطئة السابقة ، قال القديس أوغسطينوس للرب :

لقد تأخرت كثيراً فى حبك ، أيها الجمال الفائق الوصف .

معتبراً ومعترفاً أنه كان فى حالة الخطية بعيداً عن محبة الله . هذا من الناحية السلبية . أما من الناحية الإيجابية فتقتضى الأمانة لله أن يكون الإنسان أميناً فى كل أعماله الروحية : فى صلواته لأنها حديث مع الله ، وفى قراءته للكتاب لأنه فى ذلك يستمع إلى الله . كما يكون أميناً فى تأملاته وفى تسابيحه وفى أعترافه وفى تناوله وفى صومه ...

كما يكون أيضاً أميناً فى خدمته وروحانيتها .

أميناً فى التعليم ، كما قال الرسول « تكلم بما يليق بالتعليم الصحيح » (تى ٢ : ١) . فلا يقدم أفكاره الخاصة كعقيدة . ولا يقدم تعليماً للناس إلا ما قد تسلّمه من الكنيسة عن طريق قديسيها . كما قال القديس بولس لتلميذه تيموثاوس « وما سمعته منى بشهود كثيرين ، أودعه أناساً أمناء ، يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً » (٢تى ٢ : ٢) .

وكما يكون أميناً فى التعليم ، يكون أميناً فى الأفتقاد ، وفى السعى لرد الضال .

وقد أعطانا السيد المسيح مثلاً لذلك فى السعى وراء الخروف الواحد الضال (لو١٥) ، وفى عمله من أجل زكا والمرأة الخاطئة ... وفى أنه جاء « ليخدم و يبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مر١٠ : ٤٥) .

ولنذكر من جهة الأمانة فى الخدمة قول الكتاب :

« ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة » (أر٤٨ : ١٠) .

فالأمين فى عمل الرب ، يعمله بكل حرارة ، وبكل اجتهاد واخلاص ، وبكل غيرة مقدسة ، وبكل عاطفة وحب . و يتعب من أجل الرب ، ولا يعطى لعينيه نوماً ، ولا لأجفانه نعاساً ، إلى أن يجد موضعاً للرب فى كل قلب . كما قيل فى الدسقولية عن الأسقف إنه « يهتم بكل أحد ليخلصه » . و ينطبق هذا القول على كل معاونيه ...

وبهذه الأمانة فى الخدمة عاش الآباء الرسل .

شهدوا للرب بكل أمانة . كانوا شهوداً أمناء ، أوصلوا الرسالة إلى كل أقطار المسكونة ، كما قيل عنهم فى المزمور « الذين ليس لهم صوت ، بلغت أصواتهم إلى أقطار المسكونة » (مز١٩) . فعلوا ذلك بكل مجاهرة وبكل قوة ، واحتملوا السجن والجلد والطرد والعذاب ، وهم يقولون عبارتهم المشهورة « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » (أع ٥ : ٢٩) . وكمثال لهذه الأمانة قال القديس بولس الرسول :

« جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعى ، حفظت الإيمان » (٢تى ٤ : ٧) .

وقال « وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذى قوانى ، إنه حسبنى أميناً إذ جعلنى للخدمة » (١تى ١ : ١٢) . وهكذا كان القديس بولس يمتدح فى مساعديه أمانتهم فى الخدمة . فيقول « تيخيكس الأخ الحبيب والخادم الأمين فى الرب » (أف ٦ : ٢١) و« أبفراس العبد الحبيب معنا الذى هو خادم أمين للمسيح » (كو١ : ٧) ، « وانسيمس الأخ الأمين الحبيب » (كو٤ : ٦) ، « تيموثاوس الذى هو إبنى الحبيب والأمين فى الرب » (١كو٤ : ١٧) .

لهذا نسمى المسئول عن الخدمة : أمين الخدمة .

سواء الأمين العام ، أو أمين الفرع ، أو أمين أسرة ... كل منهم قد وضعت الخدمة أمانة فى يده ، لكى يقوم بعمله فيها بكل أمانة . لذلك يقال عن الخادم إنه أؤتمن على خدمة . أو استأمنه الله عليها ، وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول « الكرازة التى أؤتمنت أنا عليها » (تى ١ : ٣) ، « أؤتمنت على انجيل الغرلة ، كما بطرس على إنجيل الختان » (غل ٢ : ٧) . و يقول أيضاً « قد استؤمنت على وكالة ... فو يل لى إن كنت لا أبشر» (١كو ٩ : ١٧ ، ١٦) . الخدمة إذن أمانة أمام الله ، ينبغى أن يكون فيها الخادم أميناً ، وليس هو مجرد لقب ...

والأمين فى علاقته مع الله ، يكون أيضاً أميناً فى عهوده وفى نذوره ...

من أول عهد نطقته أمه فى جحد الشيطان ، نيابة عنه فى يوم معموديته ، إلى سائر عهوده التى يذكرها والتى لا يذكرها . ومنها عهوده فى كل مرة يتناول فيها من الأسرار المقدسة ، وتعهداته فى سائر المناسبات و بخاصة فى أوقات الضيقات ...

و يدخل فى هذا النطاق نذوره التى يقول عنها الكتاب :

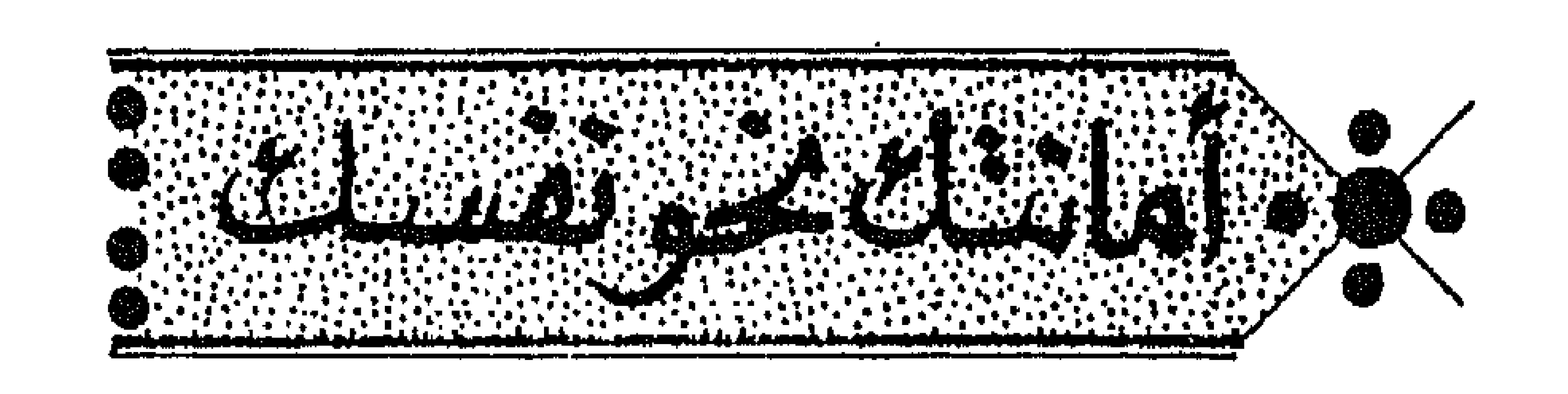
« أن لا تنذر ، خير من أن تنذر ولا تفى » (جا ٥ : ٥) .

لذلك عليك أن تجلس إلى نفسك ، وتتذكر كل عهودك ونذورك ، لكى تفى بها ولو متأخراً ، فهذا خير من أن تهملها تماماً . ولا تحاول بعد أن تنذر ، أن تعود فتناقش الأمر من جديد ، وتساوم ، وتحاول أن تغير وتبدل ، أو تتخلص من نذرك وعهودك . وقبل النذر والتعهد ينصحك الكتاب قائلاً « لا تستعجل فمك . ولا يسرع قلبك إلى نطق كلام قدام الله » (جا ٥ : ٢) .

أمانتك للرب تشمل أيضاً أمانتك فى العشور والبكور .

لأنها ليست لك . إنها نصيب الرب . تدفعه لمستحقيه . للكنيسة والفقراء ... وإلا كانت هذه الأموال هى « مال ظلم » عندك . قد ظلمت فيه من يستحقونه ، واستبقيته عندك . وعن هذا المال وأمثاله يقول الكتاب « اصنعوا لكم أصدقاء من مال الظلم » (لو١٦ : ٩) . وهكذا يقول الرب فى سفر ملاخى النبى « أيسلب الإنسان الله ؟! فإنكم سلبتمونى ! فقلتم بما سلبناك ؟ فى العشور والتقدمة » (ملا ٣ : ٨) .

ننتقل إلى نقطة أخرى وهى :



وتشمل أموراً عديدة منها : أمانتك لأبديتك ، والأهتمام بروحك ، وبنموك الروحى ، وأمانتك فى مقاومة الخطية ، وأمانتك من جهة وقتك ، ومن جهة عقلك...

الأمين لأبديته يبذل كل جهده لكى يؤهل لها .

هذا ينظر إلى نفسه كغريب على الأرض ، لا يشتهى شيئاً مما فيها ، وكل رغباته مركزة فى الحياة الأبدية ، كما قال الكتاب «غير ناظرين إلى الأشياء التى تُرى بل إلى التى لا تُرى . لأن التى تُرى وقتية . أما التى لا تُرى فأبدية» (٢كو٤ : ١٨) .

وهو فى ذلك يهتم بروحه بكل الأهتمام أكثر مما يهتم بجسده .

وهذا عكس ما نراه فى دنيانا . لأن كثيرين يهتمون بأجسادهم فى أكلها وفى لبسها وفى صحتها وفى علاجها وتقويتها ، وأيضاً فى رياضتها... بينما أرواحهم لا يهتمون بها على الإطلاق ، كما لو كانت أبديتهم لا تشغل بالهم أبداً...

الأمناء لأبديتهم يهتمون بغذاء أرواحهم .

يقدمون للروح كل ما تحتاجه من كلمة الله ، ومن الصلوات والتراتيل والتأملات ، ومن الاجتماعات الروحية والصداقات الروحية . وما يغذيها من سر الأفخارستيا ، بكل استعداداته ، وما يغذيها أيضاً من محبة الله ومن ثمار الروح ، ومن التداريب الروحية النافعة... فهل أنت كذلك .

والأمناء لأبديتهم يهتمون بعلاج أرواحهم .

إن وجدوا أى مرض روحى يزحف إليهم ، يلجأون إلى طبيب أرواحنا وأجسادنا ، إلهنا الذى يمنح قوة بروحه القدوس . كما يلجأون إلى الآباء والمرشدين الروحيين يطلبون علاجاً لأنفسهم من كل شهوة خاطئة ومن كل فكر شرير...

والأمناء لأرواحهم يهتمون دائماً بنموهم الروحى .

فهم لا يكتفون أبداً بأى مستوى يصلون إليه ، ذلك لأن الله يطالب منهم القداسة والكمال . فيقول « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) ويقول الكتاب أيضاً « نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين فى كل سيرة » (١بط ١ : ١٥) .

لذلك فالأمناء لأرواحهم يعيشون جياعاً وعطاشاً إلى البر .

وذلك لينالوا الطوبى التى وعد بها الرب (متى ٥ : ٦) . عطشهم إلى الرب لا ينتهى ، مهما ارتووا منه يطلبون المزيد ، قائلين مع داود رجل المزامير والصلوات « عطشت نفسى إليك » « كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه ، كذلك اشتاقت نفسى إليك يا الله » (مز٦٣) . ومهما ارتفعوا فى الفضيلة ، يشعرون أنهم فى حاجة إلى مزيد ، كما حدث للقديس بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة (٢كو١٢ : ٢ ، ٤) . ومع ذلك كان يقول « لست أحسب نفسى أنى قد أدركت ... ولكنى أسعى لعلى أدرك ... أنسى ما هو وراء وامتد إلى ما هو قدام . اسعى نحو الغرض ... » (فى ٣ : ١٢-١٤) .

وهكذا فالأمين لروحياته يعيش فى نمو دائم .

كالشجرة التى هى كل يوم فى نمو ، سواء شعرت أنت بذلك أم لم تشعر... وقد قال المزمور فى ذلك « الصديق كالنخلة يزهو، كالأرز فى لبنان ينمو» (مز٩٢ : ١٢) .

إنه ينمو فى صلواته طولاً وعمقاً ، وينمو فى إيمانه وفى اتضاعه وفى محبته ، كما ينمو فى بذله وعطائه ، ولا يقف عند حد . ويوبخ ذاته كلما توقف نموه

وفى نموه لا يبحث عن أبديته فقط ، إنما أيضاً عن مركزه فيها .

ومادام كل إنسان سيأخذ أجرته بحسب تعبه (١كو٣ : ٨) ، فهو يتعب بكل جهده ، لينال أجرة أكثر . ومادام « نجمٌ يفرق نجماً فى المجد » (١كو١٥ : ٤١) . [illegible] أيضاً يعمل لكى يستحق تلك الأمجاد الأبدية و يتفانى فى محبة الله ، [illegible] [illegible]ستمرار ، حتى يمكنه أن يتمتع بذلك فى الأبدية ، شاعراً أن نموه فى محبة [illegible] [illegible]ـه فقط على أبدية أسعد ، إنما أيضاً يحرسه هنا من السقوط . والأمانة [illegible]

فهل أنت ذلك ، وهل فى كل يوم تنمو ؟ ...

أم تراك مازلت حيث أنت وقد توقف نموك . أم أنت ترجع إلى خلف ، وقد بردت محبتك الأولى . أم أنت لا تزال محتاجاً إلى توبة لكى تقوم ...؟ اسأل نفسك . فإن كنت كذلك فإن الأمانة تقتضى منك الجهاد بكل قوتك فى مقاومة الخطية .

احترس من أن تجعل أحد أبواب نفسك مفتوحاً للخطية .

بكل أمانة سدّ جميع الأبواب التى يدخل منها الشيطان إلى نفسك . كن أميناً فى ضبط فكرك ، وفى ضبط حواسك . لأن الحواس أبواب للفكر . كما أن الفكر باب تدخل منه الشهوة إلى القلب . أما أنت فرتّل مع داود النبى قائلاً «سبحى الرب يا أورشليم . سبحى إلهك يا صهيون . لأن الرب قوّى مغاليق أبوابك ، وبارك بنيك فيك» (مز١٤٧) . حقاً كما قيل فى النشيد :

« اختى العروس جنة مغلقة ... ينبوع مختوم » (نش ٤ : ١١) .

إنها جنة حافلة بثمار الروح ، ولكنها مغلقة أمام عدو الخير وكل أفكاره وكل حيلة ، لا يستطيع أن يدخل إليها ، لأن الرب فى داخلها . إنها هيكل لروحه القدوس (١كو٣ : ١٦) . لذلك هى محصنة تماماً ضد هجمات العدو .

هذه النفس الأمينة تشبه سفينة بلا ثقوب .

لا يوجد فيها ثقب واحد يدخل منه الماء . الماء يحيط بها من كل جانب ، ولكنه فى الخارج ، لا يجد منفذاً أمامه ينفذ منه إلى داخلها . هكذا الإنسان الأمين . وإن رأى الشيطان يحاول أن يثقب ثقباً فى نفسه ، يسارع بعلاجه بلا إبطاء . وتبقى نفسه سليمة ، يحاربها الشيطان من الخارج ، دون أن يدخلها ...

والإنسان الأمين لروحياته لا يبرر نفسه إن سقطت .

ولا يعتذر بضعفه ، ولا بشدة الحروب التى تصادفه ، بل هو يقاوم حتى الموت . إن يوسف الصديق رفض الخطية ، ولم يعتذر بالظروف الضاغطة عليه . ودانيال النبى والثلاثة فتية تمسكوا بالرب و ولم يعتذروا بأنهم أسرى فى السبى ، وبأن التهديدات

شديدة ومرعبة : جب الأسود وأتون النار... بل صمدوا . وكذلك كان الشهداء أمام كل ألوان التعذيب والتخويف...

فالإنسان الأمين إنسان صامد ، يحارب حروب الرب ببسالة .

لا يقول « حدث هذا الأمر غصباً عنى ، أو فوق ارادتى » . كلا بل إنه يقف أصعب الحروب الروحية ، كما وقف داود الصبى أمام جليات الجبار، بكل إيمان ، وبدون خوف ، واثقاً أن الله سينصره .

والإنسان الأمين فى حروبه يذكر ما يقال عن ضابط الجيش الباسل :

إنه يقاوم إلى آخر طلقة وآخر رجل .

أى بكل ما عنده من جهد ، وبكل ما أوتى من نعمة ومن معونة ، ولا يستسلم مطلقاً للعدو، ولا يخون الرب ، ولا يعتمد على أعذار يقدمها .

وقصص الكتاب وقصص التاريخ حافلة بأمثلة الأقوياء الأمناء الذين ثبتوا فى محبة الرب مهما كانت الظروف المحيطة بهم .

إذا وُجدت أمانة القلب ، توجد أمانة الإرادة .

فالذى يريد ، يستطيع . وإن أعوزته القوة، يطلبها من فوق فتأتيه . ولذلك مع حديث القديس بطرس الرسول عن قوة الشيطان، وكيف أنه مثل أسد يزأر ويجول ملتمساً من يبتلعه هو، نراه يقول بعد ذلك :

« فقاوموه راسخين فى الإيمان » (١بط ١ : ٨ ، ٩) .

نعم ، إن المقاومة هى دليل الأمانة ، على أن تكون مقاومة جادة ، من عمق القلب ، وبكل الإرادة . وماذا تكون نتيجة المقاومة ؟ يقول القديس يعقوب الرسول :

« قاوموا ابليس فيهرب منكم » (يع ٤ : ٧) .

المهم إذن فى القلب النقى الأمين الذى يريد أن يقاوم ، ويدفع الإرادة لكى تقاوم . ولهذا كان الرب يسأل عن حالة القلب أولاً ، وقبل أن يشفى مريض بيت

حسدا ، يسأله أولاً « أتريد أن تبرأ » (يو٥ : ٦) .

إن الشيطان من عادته أن يجس نبضك أولاً .

يختبرك هي تتساهل معه ولو فى أمر بسيط جداً . فإن فعلت ، يتجرأ إلى ما هو أكثر. إن فتحت أمامه ولو فتحة كثقب إبرة، يهجم عليك بقوة أكثر، لأنه يدرك بذلك أن أمانتك ليست كاملة أمام الله ، وأن تساهلك فى القليل يشجعه على أن يجد فيك موضعاً ، أو نقطة ضعف يستغلها !

إن تساهلت فى الحواس ، يحاربك بالأفكار .
وإن تساهلت مع الفكر ، يحاربك بالشهوة .
وإن تساهلت مع الشهوة ، يحاربك باتمام الفعل .

لذلك لا تتساهل مطلقاً فى أى شىء . وإن سقطت فى خطوة ، اسرع وقم ولا تتطور إلى غيرها . فالأمانة تقتضى منك أن تلاحظ نفسك، ولا تهمل فى نقاوتها ولا فى أمر خلاصها . وإن وجدت الشيطان قد ألقى فى فكرك أى أمر ردىء ، تذكر بسرعة قول الكتاب :

« مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح » (٢كو ١٠ : ٥) .

الإنسان الأمين لأبديته وروحياته يراقب نفسه . لا ينتظر حتى تسقط سقطة مميتة، إنما إن وجد شيئاً من الفتور قد زحف إليها ، يسرع إلى معالجته لئلا يتطور الأمر معه . أن يقاوم الخطأ من بادىء الأمر، ولا يتمهل حتى يصل إلى خطورة تتعبه . ذلك لأنه إن تراخى، لن يتراخى الشيطان معه .

إن الإنسان الأمين لا يعتذر بقلة إمكانياته .

إنما هو يحاول أن ينمى إمكانياته باستمرار . وهو لا يعتذر بعدم قدرته ، لأن الله قادر أن يمنحه القوة. والله أمين لا يسمح أن يُجرّب أحد بما هو فوق قدرته . وفى ذلك قال الرسول « ولكن الله أمين، الذى لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون . بل سيجعل مع التجربة المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا » (١كو١٠ : ١٣) .

الإنسان الروحى أمين من جهة وقته .

يستغله فيما يفيده من كل ناحية ، يفيده روحياً ، و يفيده عقلياً ، و يفيده من جهة خدمة الآخرين . وهو يرى أن هذا الوقت جزء من حياته لا يجوز أن يبدده بلا فائدة . والوقت أيضاً أمانة قد أؤتمن عليها ينبغى أن ينفقه فى الخير. فانظر كم من وقتك يضيع عبثاً . واسأل نفسك : هل أنا أمين من جهة وقتى ...

خذ مثلاً لذلك أمانتك من جهة يوم الرب .

إنه للرب ، ملك له . إن كنت غير أمين فى قضاء هذا اليوم بطريقة روحية ، لا تكون أميناً من جهة الرب ، ولا من جهة نفسك . وما يقال عن يوم الأحد كيوم الرب ، يقال عن مواسم الرب وأعياده . إنها له ، أيام مقدسة . يقول الرب فى سفر اللاويين «مواسم الرب التى تنادون فيها محافل مقدسة . هذه هى مواسمى» (لا ٢٣ : ٢) . و يذكر الرب تقديسها كالسبوت تماماً (لا ٢٣ : ٨ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٩) .

فهل أنت أمين لأيام الرب ومواسمه وأعياده ؟ وهل تقدسها ؟



الإنسان الأمين ، كما هو أمين لملكوت الله داخله ، هو أيضاً أمين لملكوت الله فى الآخرين ، يحبهم كنفسه ، ويحرص عليهم كحرصه على نفسه ، و يهتم بخلاصهم ونموهم وسعادتهم كاهتمامه بنفسه . فهكذا الوصية (متى ٢٢ : ٣٩) .

إن الله حينما خلق الشجر ، لم يخلقه مجدباً ، إنما وضع فيه خاصية هامة وهى أنه جعله :

شجراً ذا ثمر ، يعمل ثمراً كجنسه (تك ١ : ١١) .

والبقل أيضاً خلقه « يبذر بذراً كجنسه » (تك ١ : ١٢) . فهل أنت كهذا الشجر تعمل ثمراً كجنسك ، وتبذر بذراً ينبت هو أيضاً ؟ هل أنت تنشر ملكوت الله

حيثما تحلّ؟ ما مدى أمانتك لملكوت الله؟ سؤال أقدمه لك، تجيب عنه فيما بينك وبين نفسك، وأيضاً تجيب عليه أمام أب اعترافك...

هل إن دخلت بيتاً، تدخله كلمة الله معك.

هل إن عشت وسط الناس، أصدقاء أو معارف أو زملاء، يكون لك فيهم ثمر روحى، سواء بالكلام أو بالقدوة أو بكليهما؟ هل إن زرت أناساً يقولون فى قلوبهم «اليوم زارنا المسيح»؟ هل بركة الرب تحل بسببك؟

هل فى أمانتك تصير ملحاً للأرض ونوراً للعالم؟

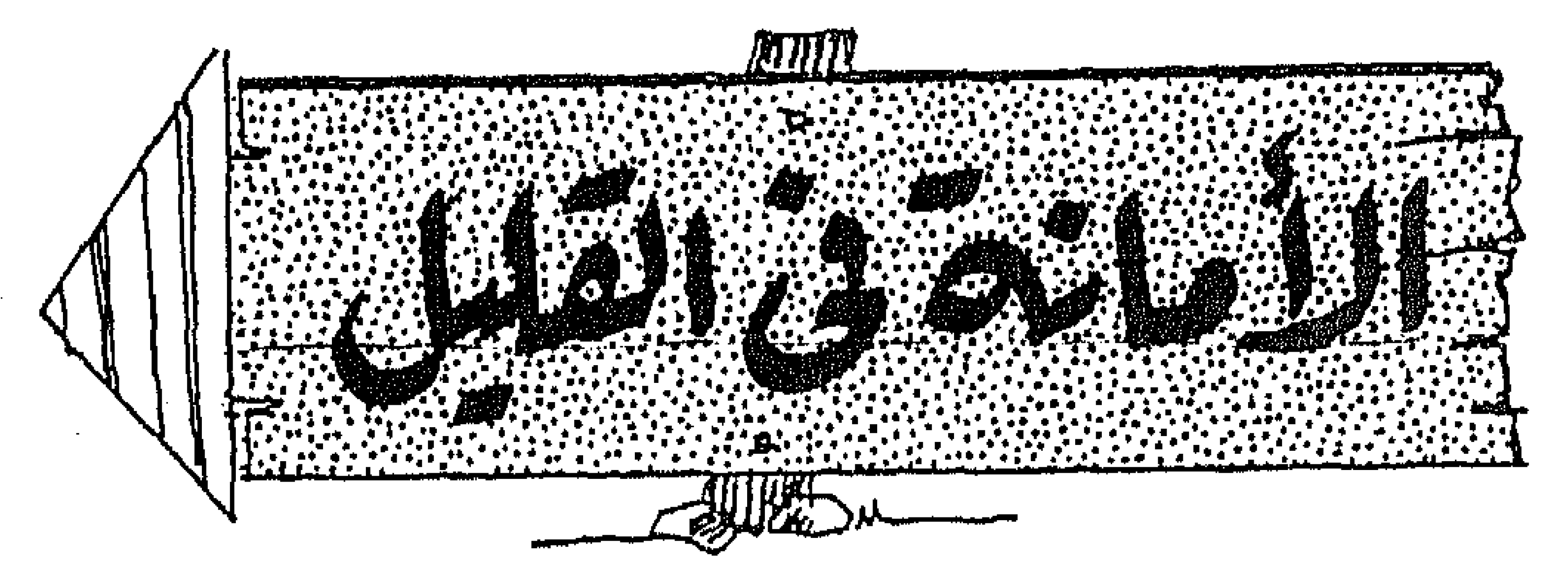
أليس هكذا أوصانا الرب فى عظته على الجبل (متى ٥ : ١٣ ، ١٤). فهل نحن أمناء فى تنفيذ هذه الوصية؟ إن القديس بطرس الرسول يقول «نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس» (١بط ١ : ٩) والقديس بولس الرسول يقول «... لكى أخلّص على كل حال قوماً» (١كو٩: ٢٢). بل يقول «استعبدت نفسى للجميع، لأربح الأكثرين» (١كو٩: ١٩).

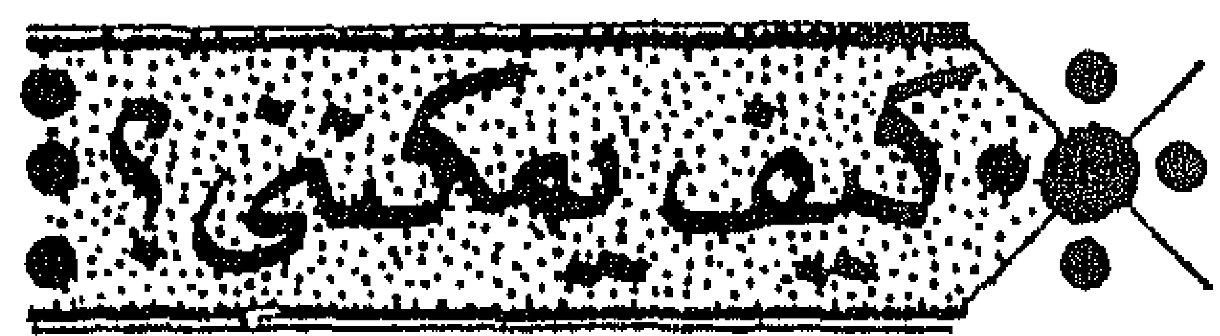
القديس أغناطيوس الأنطاكى كانوا يلقبونه «ثيئوفورس» أى حامل الله.

فهل أنت أيضاً «ثيئوفورس» (حامل الله)؟

تحمله للكل، ويراه الكل فى حياتك، وتبنى ملكوته فى كل علاقاتك...

ألا ترى معى أن موضوع الأمانة يصلح ككتاب، ويعز علينا أن نختصره فى مقال...! إذن ننتقل إلى نقطة هامة منه وهى:





لعل إنساناً يقول : الطريق الروحى طريق طويل . كيف أصل إلى نهايته ؟! كيف يمكننى أن أصل إلى القداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب ؟ وكيف أصل إلى الكمال المطلوب منى ؟ والجواب على ذلك سهل وممكن وهو:

كن أميناً فى القليل ، يقيمك الرب على الكثير .

فهذه هى طريقة الله ، وهذا وعده . وهكذا سيقول للناس فى يوم الدينونة (متى ٢٥ : ٢١ ، ٢٣) . إذن هذا هو كل ما عليك . وليس عليك أن تفكر فى نهاية المطاف مرة واحدة . بل أعرف تماماً أن أطول مشوار أوله خطوة .

كن أميناً فى الخطوة الأولى ، يقيمك الله على باقى الخطوات .

كن أميناً فى هدفك الروحى ، يدبر لك الله الوسيلة .
كن أميناً من جهة النية ، يقيمك الله على العمل .

إن الشيطان قد يصعّب لك الطريق ويعقده ، ويضع أمامك مخاوف تصور لك الكثير المطلوب منك والذى لا تستطيعه ، لكى يوقعك فى اليأس . أما الرب فإنه يطلب منك مجرد الأمانة فى القليل . أما الكثير فإن الرب هو الذى سوف يقيمك عليه . ولذلك جميل أن المزمور الكبير يبدأ بعبارة :

طوباهم الذين بلا عيب فى الطريق (مز ١١٩ : ١٠).

يكفى أن تكون سائراً فى طريق الرب بلا عيب . هذا هو ما يريده منك . أما الوصول إلى نهاية الطريق ، فاتركه هو يدبره . بيده هو: متى ؟ وكيف ؟



إنسان يقول : كيف تكون حياتى كلها للرب ؟ هل من المعقول أن يهبنى الله تكريس الحياة له ؟ هل يمكن أن تكون كل الحياة فى خدمته ؟ وكيف ؟ نقول لك :

ابدأ بالقليل الذى تستطيعه ، باعطاء وقت الفراغ للرب .

ابدأ بتقديس يوم الرب للرب ، فإن كنت أميناً فى هذا يمكن أن يقيمك على الأكثر. كن أميناً فى خدمة مدارس الأحد وفصول التربية الكنسية ، حينئذ إن سر الرب بأمانتك ، يقيمك على خدمة أكبر.

كن أميناً فى كل خدمة تعهد إليك ، يقيمك الله على التكريس .

هناك قوم يظنون أنهم لا يستطيعون أن يخدموا الكنيسة إلا إذا تولوا قيادتها العليا . يقول الواحد منهم : لو كنت مطراناً أو اسقفاً ، لفعلت وفعلت . لو كنت كاهناً ، لأصلحت هذا الحىّ كله ، أو هذه المدينة أو القرية كلها . بينما قد يكون بعيداً عن الخدمة ، أو خدمته ليست ناجحة . أما أنت فلا تقل هكذا ، إنما :

كن أميناً على بيتك ، يقيمك الروح على بيت الله .

افعل القليل الذى تستطيعه ، وكن أميناً فى تربية أولادك ، حينئذ يقدم لك الله أولاده لتربيهم . ولعله من أجل هذا ، ذكر الكتاب فى شروط الكاهن أنه « له أولاد مؤمنون ليسوا فى شكاية الخلاعة ولا متمردين » (تى ١ : ٦) . وأيضاً « يدبر بيته حسناً . له أولاد فى الخضوع بكل وقار. وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته ، فكيف يعتنى بكنيسة الله ؟! » (١تى ٣ : ٤ ، ٥) .

فالذى لا يمكنه القليل ، كيف يمكنه الكثير ؟

الذى لم يستطع أن يدبر بيتاً واحداً ، كيف يمكن أن يؤتمن على تدبير جميع المؤمنين ؟ إن الأمانة تُختبر أولاً فى القليل . ليس فقط من جهة بيت أو فصل فى

التربية الكنسية ، إنما هناك ما هو قبل هذا أيضاً . هناك الأمانة من جهة حياة الخادم الخاصة وحدها ، وكيف يدبرها . لذلك نقول :

لذلك نقول كن أميناً من جهة نفسك ، يقيمك الله على نفوس الآخرين .

أختبر أمانتك أولاً فى تدبير نفسك، هذه التى هى معك كل حين ، وتعرف كل أسرارها ، وتعرف نقط ضعفها ، ويمكنك أن توبخها ، ويمكنها أن تطيعك... فإن كنت غير أمين فى تدبير نفسك ، كيف تؤتمن إذن على تدبير غيرك ؟! إن لم تقدر على قيادة نفس واحدة هى داخلك ، فكيف تقدر على قيادة نفوس كثيرة ؟!

قال أحد القديسين : الذى لا يكون أميناً على درهم ، كاذب هو إن ظن أنه يكون أميناً على ألف دينار.

المهم هو الأمانة ، وليست الدرجة التى تتولاها .

القديس اسطفانوس لم يكن واحداً من الأ ثنى عشر رسولاً ، ولا كان أسقفاً فى الكنيسة ، إنما كان مجرد شماس . ولكنه كان أميناً لهذه الدرجة ، حتى آمن الكثيرون على يديه ، وافحم مجامع الفلاسفة . وصار فى قمة قادة الكنيسة وهو شماس . وبالمثل كان الشماس أثناسيوس القديس ، وكان أيضاً الأغنسطس مارافرام السريانى ، والقديس سمعان الخراز.

والقديس الأنبا رويس ، كان أميناً بلا رتبة .

لم يكن شماساً ولا أغنسطساً ولا راهباً ، ولا من الاكليروس جملةً ، ولا من خدام الكنيسة . ولكنه كان أميناً فى حياته الروحية وفى علاقته مع الله ، فصار من قديسى جيله ، وموضع محبة وتقدير البابا البطريرك فى جيله .

المسألة إذن هى الأمانة فى الحياة وليست الدرجة .

ما هى إذن أمانتك فى مسئوليتك ، مهما كانت قليلة ؟

إن بطل أية رواية لا يشترط أن يكون ملكاً أو رئيساً أو قائداً... بل قد يكون الخادم هو البطل فى الرواية . والناس يقدرونه و يعجبون به من أجل أمانته فى اتقان دوره ، بغض النظر عن ما هو هذا الدور...

إذن كن أميناً فى القليل الذى فى يدك . واعرف أن صاحب الوزنتين نال نفس الطوبى التى نالها صاحب الخمس الوزنات ، لأنه كان أميناً مثله . وكان تطويب الرب مركزاً على الأمانة ، وليس على الوزنتين أو الخمس (متى ٢٥ : ٢١ ، ٢٣) .

داود كان أميناً فى رعى الغنم ، فأقامه الله على رعاية شعبه .

كان داود أميناً على القليل ، وهو الغنيمات القليلات فى البرية (١صم١٧ : ٢٨) ولما هجم أسد ودب على شاة من القطيع ، تصدى لهما داود وانقذ الشاة منهما . وإذ رأى الرب أمانته هذه أقامه على انقاذ الجيش كله من جليات الجبار . وإذ كان أميناً فى التصدى لجليات ، أقامه الله على المملكة كلها ...

وهكذا أنت ، ادخل فى مثل هذه السلسلة من الأمانة .

كن أميناً فى بيت فوطيفار ، يقيمك الله على قصر فرعون وأرض مصر...

كن أميناً فى الإمكانيات القليلة التى معك ، يقيمك الله على امكانيات أكثر وأكثر. كن أميناً فى تقديم حفنة الدقيق التى معك وقليل الزيت الذى فى الكوز، كما فعلت أرملة صرفة صيدا ، يقيمك الله على كوار الدقيق الذى لا يفرغ وعلى الزيت الذى لا ينقص ، طول فترة المجاعة (١مل١٧ : ١٢ ، ١٦) .



لعلك تقف يائساً أمام أخطاء مسيطرة عليك ، كأنها عادة متمكنة ، أو طبع ثابت ، وانت تصرخ مع الرسول « ...أما أن أفعل الحسنى ، فلست أجد . لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده ، بل الشر الذى لست أريده ، إياه أفعل » (رو٧ : ١٨ ، ١٩) . فماذا أقول لك ؟

كن أميناً فيما هو فى مقدور ارادتك ، يقيمك الله على ما هو فوق ارادتك .

كن أميناً فى مقاومة الخطايا الارادية ، يقيمك الله على مقاومة الخطايا غير

الإرادية ... تقول وماذا أفعل من جهة الأحلام الخاطئة التى تأتينى وأنا نائم، لا أملك ردها عنى، وهى أشياء مترسبة وراسخة فى عقلى الباطن ؟ أقول لك :

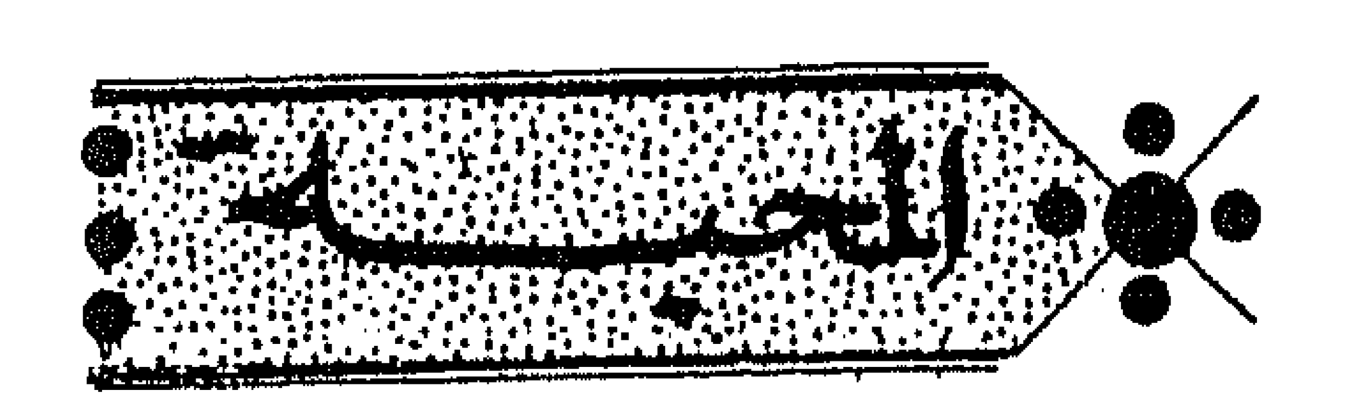
كن أميناً فى ضبط عقلك الواعى ، يقيمك الله على ضبط العقل الباطن .

كن أميناً فى مقاومة أخطاء الصحو ، يقيمك الله على مقاومة أخطاء النوم . كن أميناً فى حراسة فكرك أثناء النهار، يقيمك الله على نقاوة الفكر فى الليل . فإن حرصت على نقاوة فكرك وأنت مستيقظ ، سيأتى الوقت الذى تتنقى فيه أفكارك وأنت نائم . لتكن لك أفكار مقدسة بالنهار، حينئذ تصحبك قدسيتها بالليل ...

وإن كنت أميناً فى محاربات الحواس ، ينصرك الله فى حروب الفكر .

ذلك لأن الحواس هى أبواب الفكر ومسبباته . فإن كنت أميناً فى الابتعاد عن مسببات الفكر الخاطىء ، سيحرسك الله من الأفكار الخاطئة .

وإن كنت أميناً فى محاربة الأفكار ، يقيمك الله على نقاوة القلب ، وهى أفضل . وإن كنت أميناً فى الحفاظ على هذه النقاوة، يقيمك فى اليوم الأخير على إكليل البر (٢تى ٤ : ٨)، فى العالم الآخر، حيث لا تعرف خطية ...



تقول : أريد أن أصل إلى المحبة الكاملة ، فأحب الله من كل قلبى ومن كل فكرى (تث٦ : ٥) وأحب الناس كلهم حتى أعدائى . وأحب الخير. فهل من الممكن أن أصل إلى هذه الفضيلة التى تبدو صعبة ؟ أقول لك : ابدأ بالقليل، تصل إلى الكثير...

إن كنت أميناً فى حفظ فضيلة (مخافة الله) ، حينئذ يقيمك الله على فضيلة المحبة .

وذلك لأن « بدء الحكمة مخافة الرب » (أم٩ : ١٠) . فإن كنت أميناً فى مخافة الله ، وبذلك تحفظ وصاياه، يقيمك الله بعدئذ على « المحبة التى تطرح الخوف

خارج » (١يو٤ : ١٨) . لأن الأمانة فى درجة توصل إلى درجة أخرى أعلى منها . .

تقول : وكيف أحفظ الوصايا ، وأنا أحب العالم ؟! وهناك وصايا ، قلبى يحب ما هو ضدها !! أقول لك : ابدأ بالتغصب . أغصب نفسك على عمل الخير .

وإن كنت أميناً فى التغصب ، ستصل حتماً إلى محبة الخير .

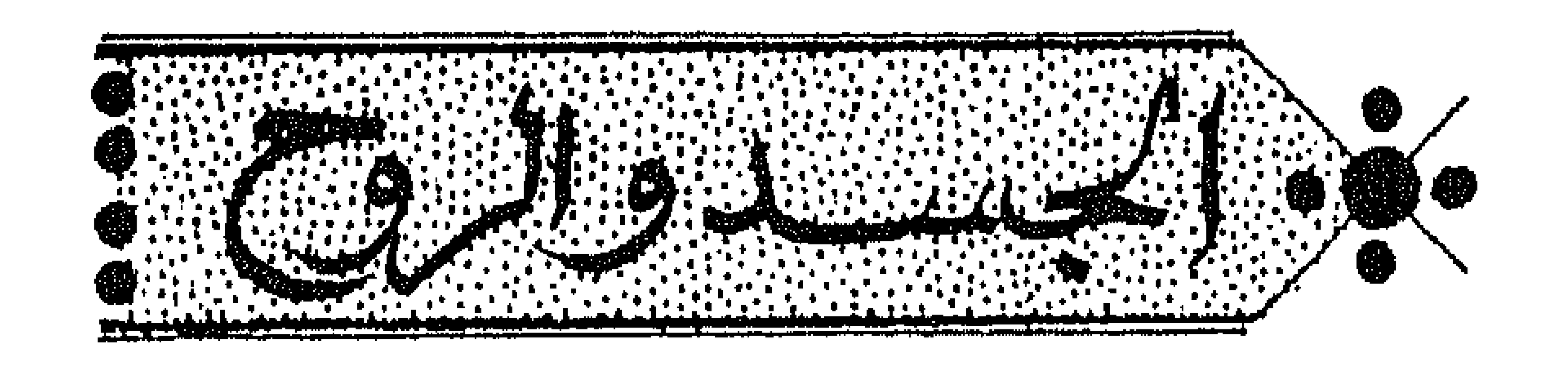
لأن المحبة ، محبة الله ومحبة الخير ، قد لا تكون نقطة البدء ، وإنما نتيجة لعمل روحى طويل . فاغصب نفسك على عمل الخير . وإذ تمارسه ، ستجد فيه لذة ، وحينئذ تحبه ، وتعمله حباً بدون تغصب . وهكذا يكون الله قد أقامك على الكثير .

كذلك إن كنت أميناً فى محبة أخيك الذى تراه ، ستصل إلى محبة الله الذى لا تراه (١يو٤ : ٢٠) .

ابدأ إذن بهذا القليل وهو محبة الناس ، تصل إلى الكثير الذى هو محبة الله . ولكن لعلك تقول : كيف أصل إلى محبة الناس ، وفيهم أعداء ومقاومون ؟! كيف يمكننى أن أصل إلى محبة الأعداء ؟ أنك تصل بنفس القاعدة : وهى كن أميناً فى القليل .

كن أميناً فى محبة أقربائك ، تصل إلى محبة معارفك .
كن أميناً فى محبة معارفك ، تصل إلى محبة أعدائك .

لأن القلب الذى تعوده على المحبة ، سيأتى وقت تنزع منه الكراهية تماماً . فتصبح العداوة من جانب واحد فقط . هى فى أعدائك وحدهم ، وليست فيك ...



الذى هو أمين للفضيلة التى تمارس بالجسد ، يرتقى إلى فضيلة الروح .

فالأمين فى صوم الجسد عن الطعام ، يقيمه الله على صوم الروح عن الخطيئة .

فيصوم لسانه عن الكلام الباطل ، ويصوم ذهنه عن الفكر الشرير، ويصوم قلبه عن الشهوات الخاطئة . أما الذى لا يكون أميناً فى صوم الجسد عن الأكل ـ وهذا شيء قليل لا يحتاج إلى مجهود ـ كيف إذن يمكنه أن يصل إلى صوم الروح ؟! كذلك قال أحد الآباء :

بسكون الجسد نقتنى سكون النفس .

سكون النفس شيء كبير ، لا نصل إليه إلا إذا كنا أمناء فى سكون الجسد . أى عدم انشغاله بالجولان من موضع إلى موضع ، مع ضبط الحواس من الطياشة فيما لا يفيدها سمعاً ونظراً ولمساً وشماً ...

كذلك بخشوع الجسد نقتنى خشوع الروح .

وبالأمانة فى اتضاع الجسد نقتنى اتضاع النفس .

لاشك أن الذى يكون خاشعاً بجسده أثناء الصلاة ، واقفاً باحترام ، رافعاً نظره إلى فوق ، حافظاً لحواسه وحركاته ، يركع وقت الركوع ، ويسجد وقت السجود . إن فعل هذا بكل أمانة ، ينعم الله عليه بخشوع الروح وخشوع الفكر. والذى يكون أميناً فى مطانياته (سجوده) يعطيه الله السجود بالروح والحق . والذى يقول كلمة أجيوس (قدوس) وهو ينحنى بكل إيمان ، لاشك أن هذا الانحناء يولد الخشوع فى قلبه ..

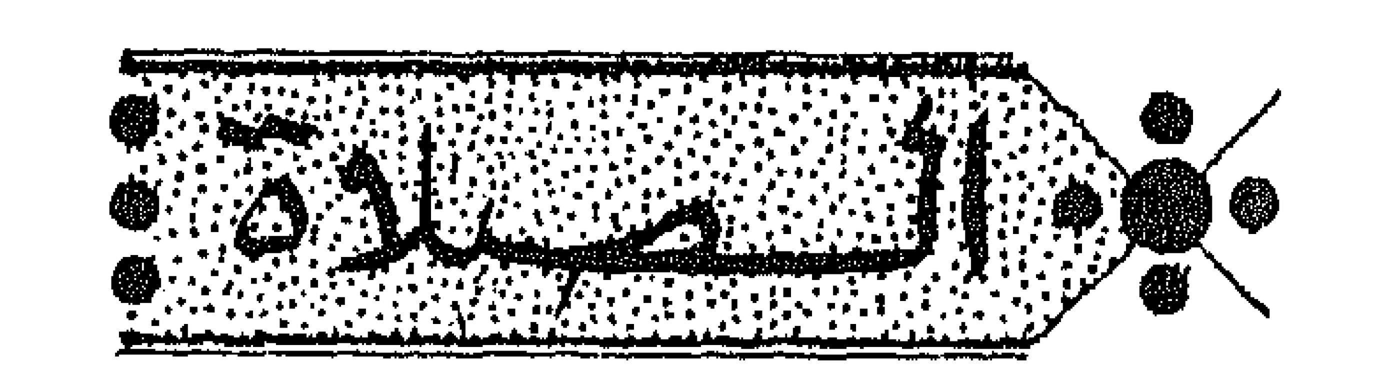
وبهذا نستفيد من خلع الحذاء حينما ندخل إلى الهيكل ونسجد أمامه .

إنها أعمال جسدية ، ولكنها إذا عُملت بأمانة وإيمان ، تنقل خشوع الجسد إلى الروح ، فتخشع هى أيضاً . وذلك لارتباط الجسد والروح معاً .

وهكذا إذا كنا أمناء فى هيكلنا الجسدى ، يتحول إلى هيكل لله .

وإذا كنا أمناء فى هذا الجسد المادى ، يقيمنا الله على الجسد النورانى الروحانى فى يوم القيامة (١كو١٥ : ٤٤) .

وإن كنا أمناء فى الأمور المادية عموماً ، يقيمنا الله على الأمور الروحية ... ولنأخذ الصلاة كمثال ...



الصلاة

لعل إنساناً يقول لأى أحد أن «يصلى كل حين ولا يمل» (لو١٨ : ١) وكيف يمكن تنفيذ الوصية القائلة «صلوا بلا انقطاع» (اتس ٥ : ١٧) ؟! أليس هذا كثيراً علينا جداً ؟! نعم إنه كثير، إن اعتبرته نقطة البدء . لكن ابدأ بالقليل يقيمك الله على الكثير.

كن أميناً فى تعوّد الصلاة ، يقيمك الله على طول الصلاة .

إن كنت أميناً فى صلاة « أبانا الذى » ، وقلتها فى عمق ، وأنت تعنى كل عبارة فيها ، لاشك أنها ستفتح لك أبواباً من التأملات ، وتقودك إلى صلوات أخرى كثيرة ...

وإن كنت أميناً فى الصلوات المحفوظة ، يقيمك الله على صلاة القلب .

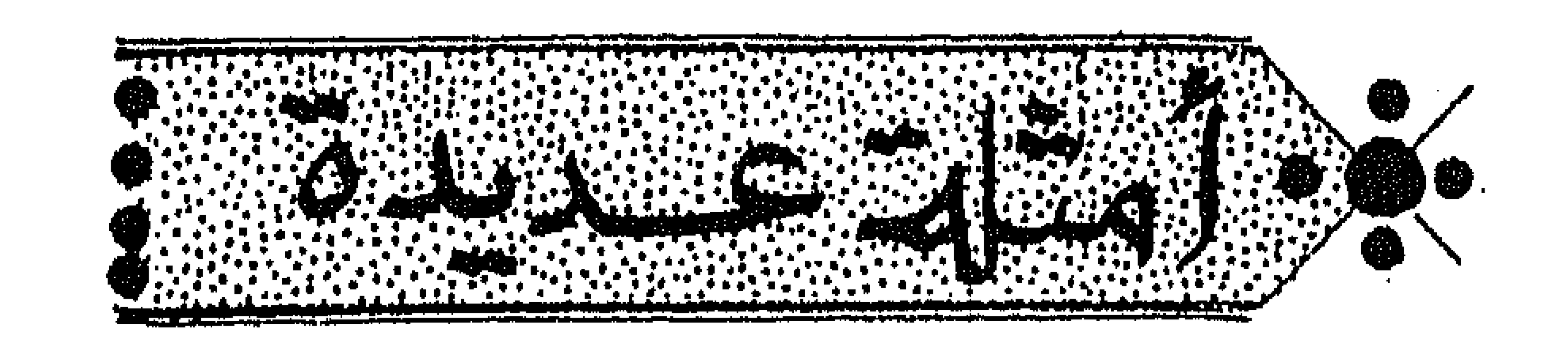
وتبقى أمامنا مشكلة الوقت ، يثيرها البعض . نقول فيها : إن كان الإنسان أميناً على الصلاة فى الوقت المتاح له، سيتيح له الله أوقاتاً أخرى كثيرة يصلى فيها . إنما المشكلة هى أنه أمامنا وقت طويل يمكننا الصلاة فيه ، ولكننا نضيعه عبثاً ، ولا نكون أمناء من حيث رغبتنا فى الصلاة ...

يثير البعض أيضاً سؤالاً آخر عن درجات الصلاة، وحالات الدهش والثيئوريا ، والصلاة بدموع ، وكيفية الوصول إلى كل هذا ؟ نجيب بنفس المبدأ : الأمين فى القليل يقيمه الله على الكثير.

كن أميناً من جهة الصلاة بفهم وحرارة ، يقيمك الله على الصلاة بدموع ...

كن أميناً فى المداومة على الصلاة، وبحب لله ، يقيمك الله على باقى الدرجات . تأتى وحدها ، دون أن تشتهيها كدرجة ... لأن موضوع الدرجات ، قد تدخل فيه الذات ...

الحياة الروحية هى سلّم روحانى ، لا تستطيع أن تصل إلى أعلى درجات ، إلا إذا اجتزت كل درجة سابقة بسلام .



أمثلة عديدة

كن أميناً على الذى فى يدك ، يقيمك الله على الذى فى يده هو .

كن أميناً فى استخدام امكانياتك الحاضرة ، يقيمك الله على الإمكانيات التى ليست لك . إن اتقنت المشى مع المشاه دون أن تتعب ، يقيمك الله على مباراة الخيل (أر١٢ : ٥) .

إن كنت أميناً فى محاربة الخطايا الظاهرة ، يقيمك وينصرك على الخطايا الخفية والسهوات .

إن كنت أميناً لله فى فترة الطفولة والفتوة ، يجعلك الله أميناً فى محاربات الشباب .

إن كنت أميناً فى قبول ليئة ، يقيمك الله على الزواج براحيل (تك٢٩ : ٢٧) . وإن كنت أميناً فى غربة برية سيناء ، يقيمك الله على أرض الموعد فى كنعان .

إن كنت أميناً فى هذا العمر القصير المحدود ، يقيمك على الأبدية غير المحدودة .

المهم أن تكون أميناً فى كل ما تمتد إليه يدك مهما كان صغيراً وقليلاً . لذلك كن أميناً فى الوزنة الواحدة التى معك ، يقيمك على الخمس وزنات . وكن أميناً فى الأمور التى تُرى يقيمك على التى ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان (١كو٢ : ٩) .

كن أميناً على ثمار الروح ، يقيمك على مواهب الروح .

لا تسرع فى طلب المواهب (١كو١٢) ، دون أن تقتنى الثمار أولاً (غل٥ : ٢٢ ، ٢٣) فثمار الروح فى معالم الطريق الروحى ، لابد أن تسبق المواهب .

لو كان أبونا آدم أميناً فى القليل (مجرد أنه لا يأكل من إحدى الأشجار)، ما كان قد حدث له كل ما حدث. ولأمكنه لو نجح فى الأختبار، أن يأكل من شجرة الحياة.

★ ★ ★

من قوانين الرهبنة، أن الذى يكون أميناً فى فترة المجمع وفى أقتناء فضائلها، يمكنه أن يدخل فى حياة الوحدة إن أراد.

قال أحد الرهبان للأب الروحى فى الدير «اسمح لى أن أسكن فى الوحدة، لأنى لا أطيق مضايقات الأخوة». فأجابه الأب المختبر:

إن كنت لا تحتمل مضايقات الأخوة فى المجمع، فكيف تحتمل حروب الشياطين فى الوحدة؟!


اللص اليمين كان أميناً خلال ساعات خمس قضاها على الصليب، فأقامه الله على الدخول معه إلى الفردوس...

★ ★ ★

أحد الآباء طلب من إبنه أن ينظف الحقل من الشوك. فلما ذهب ووجد الحقل مملوءاً شوكاً، يئس ونام دون أن يفعل شيئاً. فلما علم أبوه بما حدث، قال له «يا ابنى. نظف كل يوم على قدر مفرشك فقط. وسيأتيك الوقت الذى يصبح فيه كل الحقل نظيفاً من الشوك.

★ ★ ★

القديس الأنبا ابرام أسقف الفيوم كان أميناً فى فضيلة الرحمة، يعطى كل من يسأله، ولا يستبقى شيئاً من ماله له، بل الكل للمحتاجين. فلما رآه الله أميناً هكذا، ائتمنه على عمل من الرحمة أكبر وأعظم، إذ منحه موهبة شفاء المرضى... وهكذا كان الأنبا ابرام أميناً فى القليل،

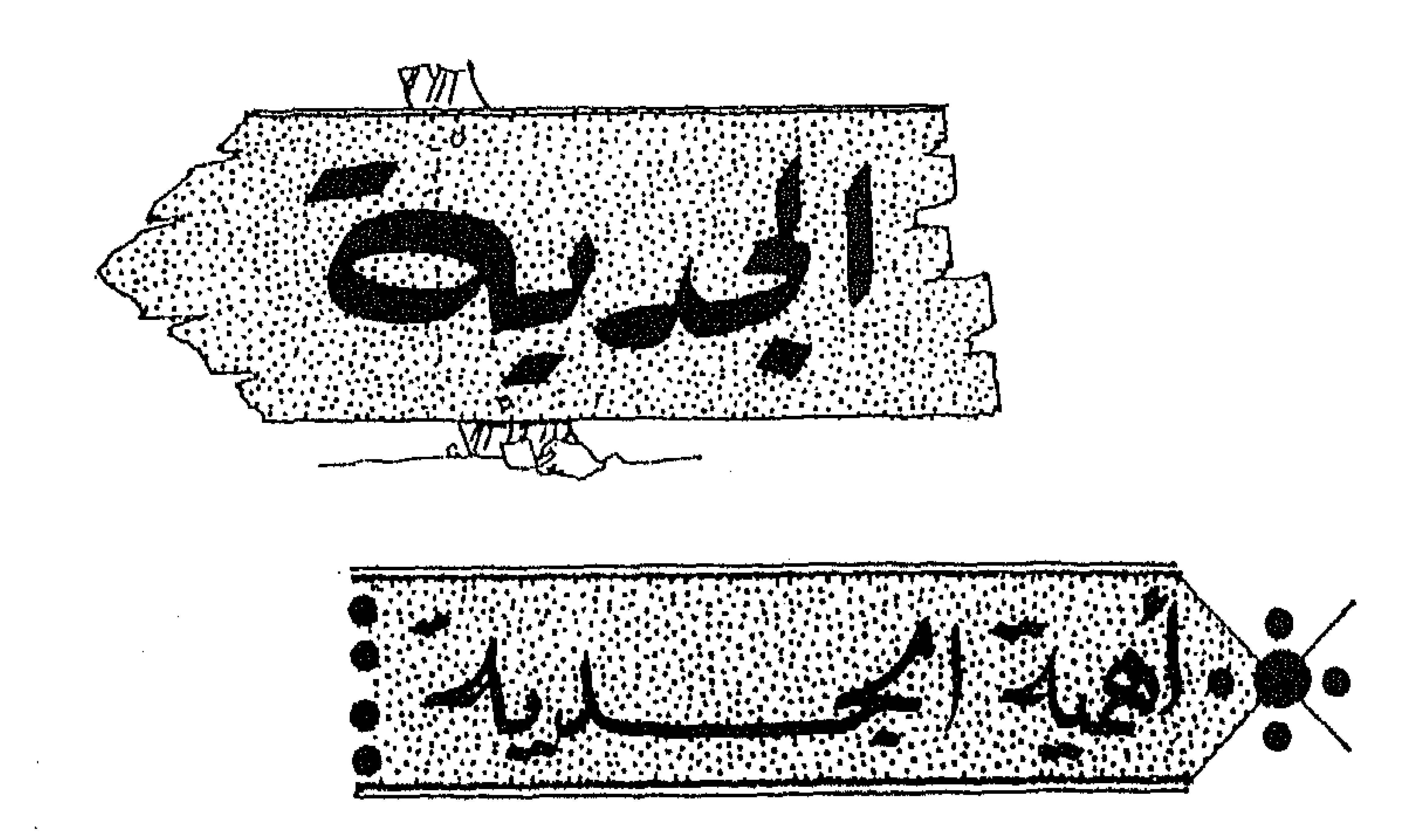


الفصل التاسع:

الجدية والتدقيق

أهمية الجدية.
صفات الإنسان الجاد.
محاربات الشيطان.

أهمية التدقيق.
التدقيق والوسوسة.
مجالات التدقيق.
محاربات الشيطان.



*** الشيطان يحارب الجدية بأسباب كثيرة ...**

الجدية هى من أهم معالم الطريق الروحى .. **وبدونها لا يمكن للإنسان أن يصل إلى هدفه. ولو أننا سألنا :**

كيف وصل القديسون إلى تلك القامات العالية فى حياة الروح ؟

لكانت الإجابة : ذلك لأنهم سلكوا فى الطريق الروحى بجدية كاملة .

كان لهم خط واضح رسموه لحياتهم وساروا فيه بقلب ثابت لا يتزعزع . ولم ينحرفوا عنه يمنة ولا يسرة . وكانت لهم مبادىء ثابتة لا يحيدون عنها . ولم يسمحوا مطلقاً للظروف أن تعوقهم .

وهكذا وصل القديسون بسرعة. القديس الأنبا ميصائيل السائح : سلك فى الرهبنة بجدية من أول يوم . وأمكن أن يصير من السواح وهو فى حوالى السابعة عشرة من عمره . وكان أبوه الروحى الأنبا اسحق يلاحظ الصرامة الشديدة التى يعامل بها نفسه . والقديسان مكسيموس ودوماديوس وصلا إلى درجة عالية فى الروحانية ، بينما كانت لحية أحدهما لم تنبت بعد . ولكن صلاتهما كانت كشعاع من نور واصل إلى السماء ، ذلك لأنهما سلكا فى الطريق الروحى بجدية .

والقديس تادرس تلميذ الأنبا باخوميوس وكذلك القديس يؤانس القصير، صار كل منهما مرشداً روحياً لجيله فى الرهبنة، وهو بعد شاب صغير.

بل ما الذى أوصل القديس الأنبا أنطونيوس إلى الرهبنة إلا الجدية...

سمع الآية التى تقول «إن أردت أن تكون كاملاً، اذهب بع كل مالك واعطه للفقراء وتعال اتبعنى» وسمع هذه الآية معه كل الشعب فى الكنيسة... ولكنه كان الوحيد الذى قام فى جدية كاملة ونفذها عملياً.

كذلك سمع عبارة لو كنت راهباً لدخلت إلى الجبل فى البرية، لأن هذا المكان لا يصلح لسكنى الرهبان- فقال- هذا صوت الله إلىّ- وقام فى جدية ودخل إلى أعماق الرهبنة. وهكذا أسس حياة الرهبنة بجدية..

من منا له مثل هذه الجدية فى تنفيذ الوصية، بدقة وسرعة؟

هذه بعض أمثلة فى حياة الرهبان. أما فى مجال الخدمة، فيمكن أن نذكر كمثال: القديس يوحنا المعمدان، الذى كانت كل مدة خدمته حوالى السنة وفى هذه السنة كرز بالتوبة وأعد للرب شعباً مستعداً. وكان جاداً فى خدمته حتى قال عنه الرب لم يقم من بين المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان» (متى ١١: ١١).

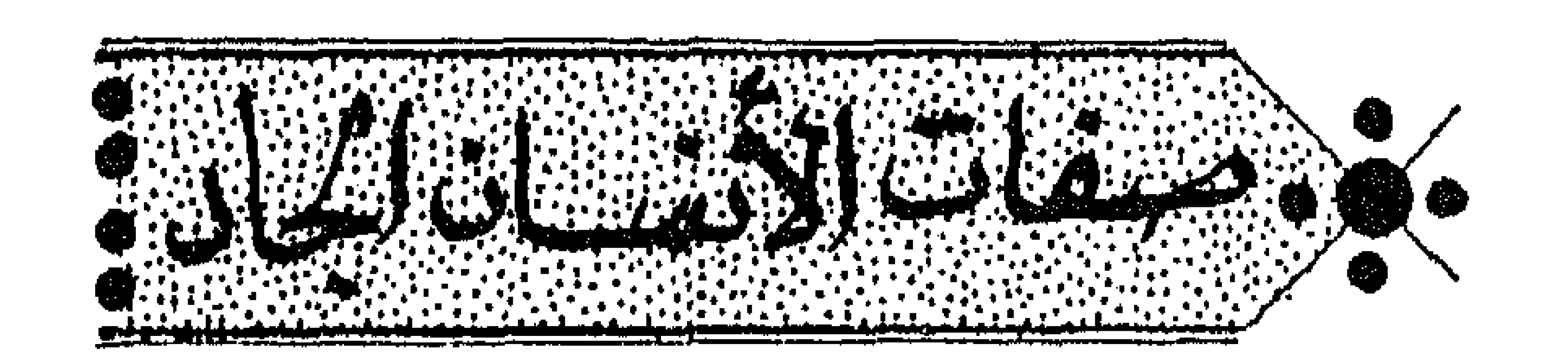
كذلك نذكر الجدية التى سلك بها القديس بولس الرسول فى خدمته، حتى أنه تعب أكثر من جميع الرسل الذين كانوا قبله (١كو١٥: ١٠).

إن الجدية فى الحياة دليل على الرجولة وقوة الشخصية.

الإنسان الجاد فى روحياته، هو إنسان يحترم نفسه، ويحترم مبادئه، ويحترم الكلمة التى تخرج من فمه، ويحترم الطريق الروحى الذى يسلكه.. لذلك يتميز بالثبات وعدم الزعزعة هو كسفينة ضخمة تشق طريقها فى بحر الحياة بقوة متجهة نحو غايتها، وليس كقارب تعصف به الأمواج فى أى اتجاه...

عجيب أن كثيرين يسلكون فى أعمالهم المادية والعالمية بجدية، وأما فى روحياتهم فلا جدية على الاطلاق...

هم جادون فى أعمالهم من أجل المكسب أو الترقية ، أو من أجل ثباتهم فى عملهم ، أو خوف الجزاء أو العقوبة أما فى روحياتهم فلا حافز داخلى يدفعهم إلى الجدية ، ربما لأن مخافة الله ليست فى قلوبهم ، أو لأن الأبدية ليست أمام أعينهم.. لذلك لا يلتزمون بخط روحى واضح يسيرون فيه .



صفات الإنسان الجاد

الإنسان غير الجاد فى روحياته ، يتأرجح دائماً بين الصعود والهبوط . ومسيرته غير ثابتة : يسقط ويقوم ويقوم ويسقط ... وفى حين يكون حاراً فى الروح ... وفى أحيان أخرى يكون فاتراً ، أو بعيداً بالكلية عن الحياة الروحية . أحياناً يصلى ، وأحياناً ينسى صلواته .. قد يقرأ الكتاب أولا يقرأ .. إن وجد وقتاً ، يجلس مع الله ، وإن لم يجد ، فإنه لا يهتم كثيراً ويقابل الأمر بلامبالاة .

حياته وعبادته تتصف بالتراخى .. بينما يقول الكتاب : **« ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة »** (أر٤٨ : ١٠) .

الجدية فى الحياة الروحية لا تقبل الإهمال والتراخى والتردد ، والرجوع أحياناً إلى الوراء . ولا تقبل التأرجح بين الفرقتين : محبة العالم ومحبة الله .

الإنسان الجاد لا يتساهل فى حقوق الله مطلقاً .

إنه يأخذ حق الله من نفسه أولاً قبل أن يأخذه من الآخرين .. هو يسلك فى وصية الله بكل حزم وبكل دقة وبكل عمق .. وطاعته لله تكون بغير مناقشة وبغير مساومة .

أبونا ابراهيم سلك فى الطاعة بكل جدية ، حينما أخذ إبنه الوحيد لكى يقدمه محرقة حسب أمر الرب .

إنه لم يجادل الله ولم يعترض على أمره ، إنما أطاع دون أن يتغير قلبه من جهة الرب .. هذه هى الجدية فى الطاعة .

وبالمثل كان يوسف الصديق جاداً فى طاعته للوصية وفى حفظه لعفته ، ولو أدى به

الأمر إلى السجن.

وكان دانيال النبى جاداً فى عبادته للرب، ولو ألقوه فى جب الأسود.

الإنسان الجاد له قلب قوى، لا يضعف أمام الظروف الخارجية.

يوحنا المعمدان كان جاداً فى حفظ وصية الرب .. حينما قال لهيرودس الملك «لا يحل لك أن تكون لك إمرأة أخيك» (مر٦ : ١٨).. ولقد فعل يوحنا هذا، ولم يبال أن يلقى فى السجن أو تقطع رأسه..

أين هذا من الذين يضغطون على الكنيسة فى أن يتزوجوا خلال الصوم، دون أن يأخذوا وصية الله بجدية.

الإنسان الجاد لا يعذر نفسه، ولا يقدم تبريرات لخطيئته.

الرجل هو رجل، مهما كانت الظروف الخارجية، يوسف العفيف كانت تضغط عليه الظروف.. لكنه لم يخضع لها ولم يتساهل مع الخطية بحجة أنه عبد، وتحت سلطان غيره، وبامكان سيدته أن تؤذيه. ودانيال النبى لم يسمح لنفسه أن يأكل من أطياب الملك مع أنه كان أسير حرب وخاضعاً لنظام، لقد كان جاداً فى المبادىء التى يؤمن بها، مهما كانت الظروف المحيطة.

الإنسان الروحى يكون جاداً أيضاً فى توبته.

فإنْ ترك الخطية، يتركها بجدية ولا يعود إليها مرة أخرى. يكون جاداً فى مقاومة الخطية. ولا يكون كالعبرانيين الذين وبخهم الرسول قائلاً «لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية» (عب١٢ : ٤) ما أعمق جدية هذه العبارة.. حتى الدم..

والجاد فى التوبة، لا يؤجلها مثلما فعل فيلكس الوالى (أع٢٤ : ٢٥) واغريباس الملك (أع٢٦ : ٢٨) بل يكون كالابن الضال الذى قام لوقته وذهب إلى أبيه، وقدم توبة فى انسحاق قلب..

وجدية التوبة تظهر فى قول ذلك الأب الروحى: **«لا أتذكر أن الشياطين قد اطغونى مرتين فى خطية واحدة..»**

لأنه مادام قد عرفها ، فلا يمكن أن يعود إليها مرة أخرى .

أما الذى يعترف و يتناول ، و يكرر نفس الخطايا ، و يكرر نفس الاعتراف فلا شك أنه غير جاد فى توبته ...

فى قصص التوبة المشهورة فى سير القديسين ، مثل توبة مريم القبطية و بيلاجية واغسطينوس وموسى الأسود نلاحظ ملاحظة هامة .

إن التوبة كانت نقطة تحول فى الحياة بلا عودة إلى الخطية . كانت توبة جادة ، انتقلت من الخطية إلى النقاوة ، وارتقت منها إلى القداسة ثم سمت إلى الكمال ... وتحول أولئك الخطاة إلى قديسين . وصاروا أمثلة فى حياة البر ، و بركة لغيرهم ، وصاروا أيضاً مرشدين روحيين .

كانوا جادين فى جحد الشيطان .. وكل أعماله الرديئة .. وكانوا جادين فى علاقة الصلح مع الله ، وفى شهوتهم للحياة الفاضلة .

أما الذين يخطئون كل يوم ، و يعتمدون على قول المزمور « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا بحسب آثامنا » (مز١٠٣ : ١٠) فهؤلاء ليسوا تائبين بالحقيقة ... ورحمة الله إنما تكون للجادين فى توبتهم .

الإنسان الجاد فى طريقه الروحى ، من صفاته أنه ينمو باستمرار . الجدية تمنحه حرارة روحية . والحرارة تدفعه كل حين إلى قدام .

إنه يجاهد من أجل النقاوة والكمال إلى أبعد الحدود .. بكل مثابرة واجتهاد يعطى الله كل قوته وكل امكانياته .. وكل ارادته وكل قلبه .. و يعمل بكل النعمة المعطاة له . ولا يقصر فى شىء إنما يبذل كل طاقاته .

وفى كل يوم يزداد التصاقاً بالله وقرباً منه . و يزداد عمقاً فى المحبة الإلهية ، و يزداد فهماً للفضيلة .. وممارسة لها .

إنه لا يدلل نفسه ولا يحابيها ، ولا يعذرها فى أى تقصير . وإن توانت يغصبها على عمل الله .. حتى تتعوده وتؤديه فى حب .

والجاد لا يهتم بهواه الخاص ، بل يضحى بأية متعة من أجل الرب .

وهكذا الذين تدربوا على الجدية ، كانوا يتعبون باستمرار لأجل الرب .

يضحون دائماً براحتهم من أجل روحياتهم مثل القديس بولا الطموهى الذى كان يجاهد بتعب شديد فى نسكياته ، وفى اخضاع جسده لروحه ، حتى قال له الرب « كفاك تعباً يا حبيبى بولا » ... ومثل داود النبى الذى قال « لا أدخل إلى مسكن بيتى ، ولا أصعد على سرير فراشى ، ولا أعطى لعينى نوماً ، ولا لأجفانى نعاساً .. إلى أن أجد موضعاً للرب ومسكناً لإله يعقوب » (مز ١٣١) .. هذه هى الجدية فى الحياة الروحية .

والإنسان الجاد ، إذا وجد صعاباً لا يعتذر بها ، بل ينتصر عليها .

إنه لا يستسلم لعقبة ، بل يكافح و يصلى ، ساعياً إلى المثاليات واضعاً أمامه قول الرسول « اركضوا لكى تنالوا » (١كو٩ : ٢٤) . « و بهذا يكون باستمرار حاراً فى الروح » (رو١٢ : ١١) ...

ومادامت المثاليات أمامه ، لا يرضى بانصاف الحلول ولا باجتياز مرحلة من الطريق ، بل يكمل بكل نشاط ، متجهاً نحو الكمال . لذلك فهو فى صعود مستمر نحو الله . وطبيعى أن الذى يتقدم باستمرار ، فهذا لا خوف عليه من النكسات والرجوع إلى الوراء .

إنه يأخذ كل شىء بجدية . إنه جاد فى حياة التوبة وعدم التساهل مع الأفكار وهو جاد فى خط سيره الروحى وفى كل ممارسات الفضيلة . وهو جاد فى تداريبه الروحية ، لا يكسرها مهما كانت الأسباب ، وهو جاد فى كل كلمة تخرج من فمه . وهو جاد أيضاً فى كل نذوره وتعهداته أمام الله .

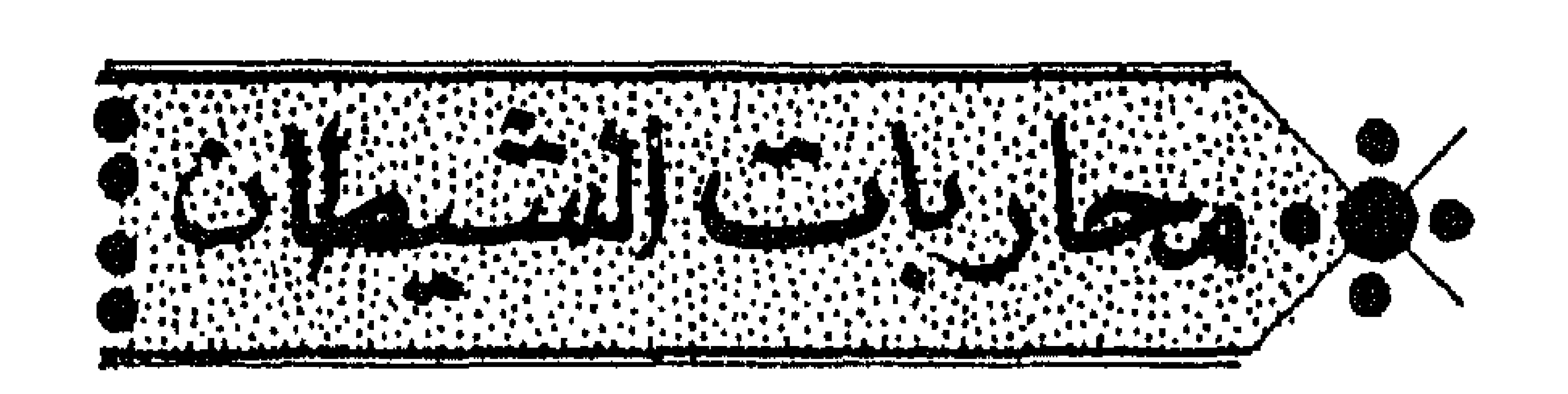
لا ينذر نذراً ثم يعاود التفكير فيه . أو المساومة . ولا يؤجل الوفاء بنذره ولا يحاول استبداله بغيره ، ولا يماطل ولا يرجع فى كلمته . إنما بكل جدية و بكل سرعة ودقة ينفذ . جاعلاً أمامه قول الكتاب « خير لك أن لا تنذر ، من أن تنذر ولا تفى » (جا ٥ : ٥) ومثال يفتاح الجلعادى واضح فى جدية النذر (قض ١١ : ٣٠ - ٢٥) .

والجاد جاد أيضاً فى عبادته. لا يكتفى فيها بالشكليات.

إنما هو يهتم بجوهر الروحيات وعمقها لذلك فهو عميق فى عبادته، بكل إيمان، وكل تواضع وخشوع قلب، يصلى بفهم وحرارة وتركيز، بمحبة قلبية لله، لا يسمح لفكره أن يسرح هنا أو هناك، ولا يسمح لحواسه بالتجول، إنما يسكب نفسه سكيباً فى صلواته وتأملاته ومطانياته وصومه. ولا يكون جسده داخل الكنيسة وعقله خارجها... وكل ما يرشده الرب إليه، يسعى جاهداً لتنفيذه.. و يكون جاداً أيضاً فى خدمته.

والجدية تقود دائماً إلى النجاح وإلى الاتقان.

كل مسئولية تعهد إليه يؤديها بنجاح وعلى أكمل صورة، سواء فى حياته الكنسية، أو فى وظيفته العلمانية أو أى مشروع يقوم به.



ولكن الشيطان يحارب الجدية بكل وسيلة، وربما باقناعات كتابية.

قد يسميها أحياناً حرفية، أو خضوعاً للناموس بدلاً من النعمة. ولكننا نقول ان النعمة لا تشجع على الكسل أو التراخى أو التسيب.

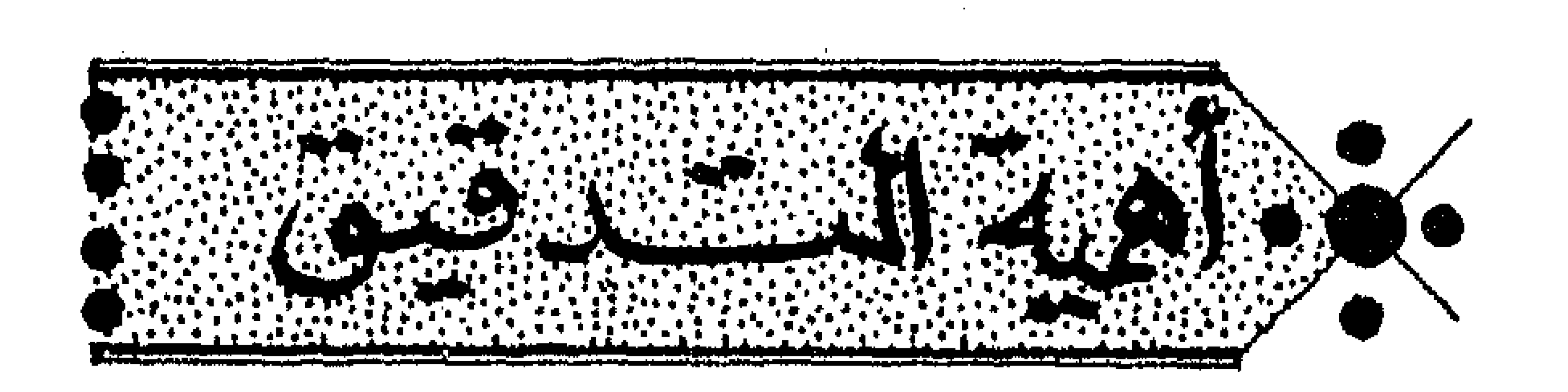
أو قد يقول الشيطان إن الجدية ضد المرونة. فنقول: إن المرونة ليست مجالاً للتراخى أو للتحلل من الدقة، والالتزام. أو قد يقول الشيطان إن هذه ضد حرية مجد أولاد الله «رو٨: ٢١) فنقول إنه لا توجد حرية تتعارض مع الوصية. والحرية الحقيقية هى التحرر من الخطية.

أخيراً نقول: إن الجدية ترتبط أيضاً بالأمانة والدقة والالتزام. وهذا ما أود أن احدثكم عنه إن شاء الله.



لكى نفهم التدقيق فى عمقه ، نفترض الآتى :

تصور أن ملاكاً أعلن لإنسان أن حياته على الأرض ستنتهى بعد أسبوع ، فلا شك أن هذا الإنسان سيسلك فى خلال هذا الأسبوع بكل تدقيق ممكن استعداداً لأ بديته .. وعلى هذا المقياس نود أن نحكم على حياة التدقيق .



إن التدقيق هو من أهم معالم الطريق الروحى . والإنسان الروحانى يدقق فى كل شىء . يدقق فى كل علاقاته مع الله ، ومع الناس ، ومع نفسه . يكون مدققاً فى كل تصرف ، وفى كل كلمة وكل فكر . و يكون مدققاً من جهة حواسه ومشاعره واتجاهاته . ومن جهة مواعيده و وقته والنظام الذى يسير عليه .

والإنسان المدقق ، لا يكون مدققاً فقط وهو مع الناس . وإنما حتى حينما يكون وحده فى حجرته الخاصة .

إن التدقيق فى التصرف قد يكون سهلاً نوعاً ما فى حضرة الناس . لأننا بطبيعتنا لا نحب أن ينتقدنا الناس ، أو نخشى أن ننكشف أمام الناس ، وتظهر أمامهم عيوبنا وأخطاؤنا . ولذلك فإن المقياس الحقيقى لتدقيقنا ، يظهر حينما نكون وحدنا لا يبصرنا أحد . فإن كنا مدققين فيما بيننا و بين أنفسنا ، يكون هذا تدقيقاً حقيقياً وليس ريائياً .

الإنسان الروحى يصبح التدقيق جزءاً تلقائياً من طبعه وليس مجرد محاولة أو تدريب .

إنه إنسان تعود أن يكون مدققاً فى كل شىء بدوافع داخلية فيه تمثل بعضاً من مبادئه وقيمه ...

وحتى إن كان الناس لا يرونه ، فإنه يجب أن يكون بلا لوم أمام الله الذى يراه ، وأمام الملائكة الذين يرونه ، وكذلك من أرواح القديسين ...

فهل أنت فى داخل نفسك تكون مدققاً بغض النظر عن أحكام الناس ؟

هنا ونسأل ، ما هو التدقيق ؟

التدقيق هو حرص من أقل خطأ هو تصرف سليم متزن فى احتراس ، وفى سعى نحو أكمل وضع ممكن ، بغير تسيب ولا تراخ ولا أهمال ، وفى بعد عن الضمير الواسع الذى يبرر كثيراً من الأخطاء .

والتدقيق خطوة نحو الكمال فالذى يدقق محترساً من الوقوع فى الصغائر من الصعب أن يقع فى الكبائر. الذى يحترس بكل قوته لكى لا يقع فى الخطية بالفكر، ليس من السهل أن يقع فى الخطية بالعمل .



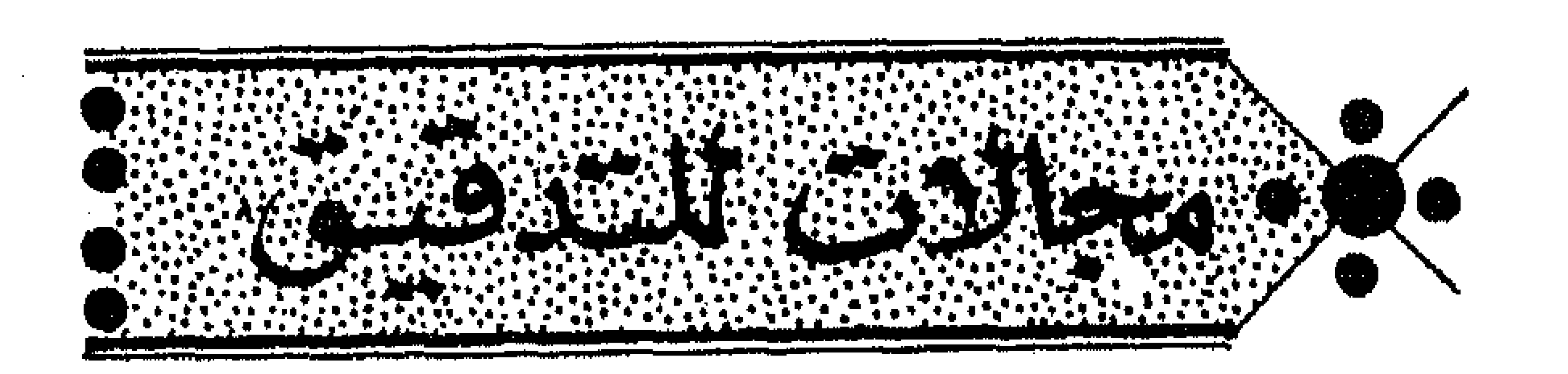
ولكن فليحرص كل إنسان أن يفرق بين التدقيق والوسوسة الوسوسة هى الضمير الضيق الذى يظن الخطأ حيث لا يوجد خطأ ، أو الذى يكبر من قيمة الأخطاء فوق حقيقتها ، أو الذى تحاربه عقدة الإثم بدون سبب معقول أو الذى يخرجه حب التدقيق إلى التطرف البعيد عن الحق ، فيؤثم تصرفات سليمة ...

والوسوسة لون من الحرفية والفريسية وهى سطحية بلا فهم . ومثالها ما كان يراه الكتبة والفريسيون دقة فى تقديس يوم السبت وهى لم تكن دقة ، وإنما حرفية بلا روح ، و بلا عمق ، و بلا فهم سليم للوصية .

ونحن نرفض أن نسمى هذا الوضع تدقيقاً . إنما التدقيق هو التصرف الروحى السليم ، الذى هو فى وضع وسط بين التسيب والوسوسة .

إنه يذكرنا بميزان الصيدلى كل مادة تدخل فى تركيب الدواء ، يكون وزنها دقيقاً جداً . إن زاد قد يضر ، وإن نقص قد يضر .

وهكذا تكون حياة التدقيق روحياً ... الإنسان المدقق يراقب نفسه ويحاسبها ، ولا يتساهل معها فى شىء . له مبادىء وقيم يدقق فى حفظها ولا يسمح لنفسه أن يهبط مطلقاً عن مستوى هذه القيم والمبادىء التى تمثل علامات واضحة فى طريقه الروحى .



مجالات للتدقيق

الإنسان المدقق حريص على وقته يرى أن الوقت هو جزء من حياته فهو يحرص على هذا الوقت واستخدامه له . ولا يضيع دقيقة واحدة منه فيما يندم عليه ، أو فيما لا يستفيد منه .

وهو يوزع هذا الوقت توزيعاً عادلاً على كافة مسئولياته .

وفيما هو يحرص على وقته ، يحرص بالتالى على دقة مواعيده ، وعلى نظام حياته ، فلا تضيع أوقاته عبثاً .

وكما يكون مدققاً من جهة وقته ، يكون أيضاً مدققاً من جهة وقت غيره .

نقول هذا لأنه قد يوجد إنسان وقته رخيص عنده ، فيظن أن وقت الآخرين رخيص أيضاً عندهم . فيزور غيره أو يكلمه أو يشغله مضيعاً وقته ، بينما هذا الغير لا يعرف فى خجل كيف يهرب منه ؟!

أما الإنسان المدقق فهو يحترم حياته ووقته ، ويحترم حياة الآخرين ووقتهم . ولا يسمح أن يضيع وقته فى التوافه أو أن يعطى حديثاً أو مشغولية أو زيارة فوق ما تستحق من وقت .

ويحرص أن يعطى روحياته وقتها يكون دقيقاً فى الوقت الذى تسمح به حياته للصلاة والتأمل والقراءات الروحية ، والوقت الخاص بالكنيسة والخدمة والإجتماعات . و يكون دقيقاً أيضاً فى حفظ يوم الرب ، وكل ما يتعلق بحياته الروحية ، فلا تضيع فى زحمة المشغوليات .

وهو دقيق من جهة صلواته يحرص أن تكون صلاة بكل ما تحمل كلمة صلاة من معنى ، بكل ما يجب لها من فهم ، ومن حرارة وخشوع ، ومن عمق وإيمان وحب واتضاع ... لا يسرع فيها السرعة التى تفقدها عمقها ، ولا يترك عقله فى طياشة وعدم تركيز .

ولا يهمل قانونه ومزاميره وساعاته إنه إنسان يعبد الله فى تدقيق كذلك إذا رشم علامة الصليب إنما يفعل ذلك بكل دقة ، بكل ما تحمل علامة الصليب من معان عقائدية وروحية ، و بكل ما فيها من احترام ومن تأثر روحى ، ومن ثقة فى فاعليتها .

ولا تكون عنده علامة الصليب مجرد حركة سريعة بلا خشوع ولا فهم كما يفعل البعض ...

وفى دخوله إلى الكنيسة يكون دقيقاً فى صلاته وفى حركاته فلا يتلفت هنا وهناك ، ولا يتحدث داخل الكنيسة مع هذا أو ذاك ، ولا ينشغل بغير العبادة ، ولا يسرع فى مشيته اسراعاً يتنافى مع الخشوع وهيبة المكان . إنما يدخل إلى الكنيسة فى هدوء وهو يرتل قول المزمور « أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل إلى بيتك ، واسجد قدام هيكل قدسك بمخافتك » .

و يسجد ، و يقف فى مكانه بكل مهابة ، مدققاً فى كل ما يفعله بسلوك روحى ، و بحفظ دقيق لعقله وحواسه وقلبه ، بحيث حينما يقول الكاهن « أين هى عقولكم ؟ » فيجيب (هى عند الرب) فيكون صادقاً تماماً ...

والإنسان الروحى يكون مدققاً أيضاً فى أفكاره لا يتباطأ مطلقاً فى طرد أى فكر خاطىء بل يحرص أيضاً أن يبعد عن الأفكار الزائلة الباطلة التى لا منفعة فيها . ويحاول بقدر إمكانه أن يجعل فكره نقياً ، مرتبطاً بالله ، بعيداً عن الطياشة .

ويجعل أمامه قول الرسول « مستأسرين كل فكر لطاعة المسيح » (٢كو١٠ : ٥) . أما الذى يتساهل مع الأفكار ، فهو ليس دقيقاً فى ضبطه لفكره .

الإنسان الروحى ينبغى أن يكون أيضاً مدققاً فى كلامه إنه يزن كل كلمة قبل أن يقولها ، سواء من جهة معنى الكلمة أو قصدها ، أو مناسبتها للمجال أو للسامعين .

إن الذى يتكلم ثم يندم على ما يقول ، هو غير مدقق فى كلامه . والذى يتكلم ثم يعاتبونه على معنى كلامه ، فيقول : ما كنت أقصد .. ، هو أيضاً غير مدقق فى كلامه . وكذلك الذى يتكلم فيجرح شعور غيره بغير حكمة ...

إن السرعة فى الكلام من الأسباب التى تؤدى إلى عدم التدقيق فيه . إن السرعة فى ابداء الرأى .. والسرعة فى الحكم على الآخرين .. والسرعة فى الاستسلام للغضب .. كل ذلك يعرض الإنسان للخطأ ، فلا يكون مدققاً فى كلامه ، ولا يكون موفقاً فى كلامه ..

أما الذى يتباطأ ، و يزن الكلمة قبل أن يقولها ، فهذا يكون أكثر تدقيقاً . لذلك يقول الرسول « ليكن كل إنسان مسرعاً إلى الإستماع ، مبطئاً فى التكلم ، مبطئاً فى الغضب » (يع ١ : ١٩) .

وفى الإبطاء ، أو بالتفكير المتزن ، يقدر الإنسان أن يتحكم فى ما يريد أن يقوله ، و يتخير الألفاظ المناسبة ، و يكون مدققاً أكثر فى كلامه . لأن الكلمة بعد أن يلفظها لا يستطيع أن يغيرها أو يسحبها لقد حسبت عليه .. !

وكما يدقق الإنسان فى كلامه ، ينبغى أن يدقق فى مزاحه وضحكه . فلا يتحول ضحكه إلى نوع من التهكم على غيره والاستهزاء به ، وجعله مادة لفكاهاته ولسخريته وتسلية الناس !! .

و بهذا يكون الضحك وسيلة لجرح شعور غيره . من حق الإنسان أن يضحك مع الناس . ولكن ليس من حقه أن يضحك على الناس !

لهذا فإن الإنسان الروحى ينبغى أن يكون مدققاً فى ضحكه ومرحه ، حتى لا يجرح أحداً ، أو يهين أحداً ، ولو فى مجال مزاح ، ولو عن غير قصد ...

ولا يجوز أن يقول أية فكاهة تعجبه ، غير مبال بتأثيرها على السامع ، إن كان فيها ما يمسه ...

والإنسان الروحى يكون مدققاً أيضاً فى نقده ، وفى عتابه ، وفى توبيخه ولا يجرح فيما يحاول أن ينصح . ولا يوبخ فيحطم .

ولقد حذرنا سيدنا يسوع المسيح قائلاً « من قال لأخيه رقاً يكون مستوجب المجمع ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم » (متى ٥ : ٢٢) . وكلمة رقاً هى أقل كلمة تخلو من الاحترام ...

كم مرة يستخدم المتكلمون كلمة « أحمق » ومترادفاتها العديدة ، فى شتى الألفاظ التى يعبرون بها - فى غير تدقيق - عن استصغارهم لعقول غيرهم ومستوى تفكيرهم . أما المدقق فلا يفعل هكذا .

لاحظوا كيف تخير السيد المسيح أرق الالفاظ فى الحديث مع السامرية بحيث قادها إلى التوبة ، دون أن يجرح شعورها على الاطلاق . ولو أراد أن يستخدم ما يسميه الناس بالصراحة ، أو بمواجهة المخطئين ، لنفرت منه هذه المرأة وما كسب روحها ...

الإنسان المدقق تظهر دقته فى أداء أية مسئولية تعهد إليه أياً كانت هذه المسئولية روحية أو مادية أو اجتماعية . ودقته هذه تقوده إلى النجاح وإلى الاتقان ، وإلى احترام الناس له وثقتهم به . وهو لا يحاول أن يعتذر بأية أعذار لتبرير موقفه إن لم يكن مدققاً . لأن المدقق لا يبرر تصرفاته مهما حدث و يرى أن محاولة التبرير ضد التدقيق للأسف . هناك كثيرون يدققون فى محاسبة غيرهم . ولا يدققون فى محاسبة أنفسهم بنفس القياس .

هم مع غيرهم فى منتهى الشدة أما مع أنفسهم فما أكثر الأعذار بينما العكس هو ما ينبغى أن يكون .

حاسب نفسك بتدقيق شديد ، ولا تعذر ذاتك . أما بالنسبة إلى الآخرين فحاول أن تلتمس لهم عذراً .

نلاحظ أن السيد المسيح أعطانا مثالاً لهذا فى قوله عن خطيئتك « الخشبة التى فى

عينك» وقوله عن خطيئة الآخرين « القذى الذى في عين أخيك » (متى ٧ : ٣) . هكذا ينبغى أن تحكم على اخطائك بالخشبة ، وعلى أخطاء غيرك بالقذى .

مشكلة الإنسان فى حياة التدقيق ، أنه يقسم الخطايا إلى صغيرة وكبيرة ، و يتساهل فى الأمور الصغيرة !

ومن الجائز أن هذه الأمور الصغيرة فى نظره ، ليست هى صغيرة فى الحقيقة . وحتى إن بدت صغيرة ستتحول إلى كبائر فيما بعد . والإنسان الروحى لا يستهين بأى خطأ ولا يحسبه صغيراً . لأن الخطية خاطئة جداً . وكل خطية تؤدى إلى الهلاك ، لأن « أجرة الخطية موت » (رو٦ : ٢٣) . وهى تفصله عن الله ، لأنه « لا شركة بين النور والظلمة » (٢كو٦ : ١٤) .

إن أى عيب فى شيء ، ينقصه كماله . وأية بقعة فى ثوب تشوه نظافته مهما كانت صغيرة .

الإنسان الروحى يدقق فى مقاومة الخطية ، ويحترس لئلا يقع فيها . لا ينتظر حتى تأتيه الخطية فيقاومها ، بل يكون حريصاً فى البعد عن الخطية ، وفى سد جميع مسالكها بحيث لا تجد منفذاً إليه . وإن حاربته خطية يكون دقيقاً جداً فى طردها عنه . إنه دقيق فى كل تصرفاته .

يستمع دائماً إلى قول الرسول « انظروا كيف تسلكون بالتدقيق ، لا كجهلاء بل كحكماء » (أف ٥ : ١٥) . لذا فهو يدقق فى كل ما يعمله ، فى العمل ذاته ، وفى وسيلته وفى نتائجه سواء بالنسبة إليه أو إلى غيره . حتى الأشياء التى هى سليمة فى ذاتها ، ولكن قد تكون غير مناسبة حسب قول الرسول « كل الأشياء تحل لى ولكن ليس كل الأشياء تبنى » (١كو١٠ : ٢٣) .

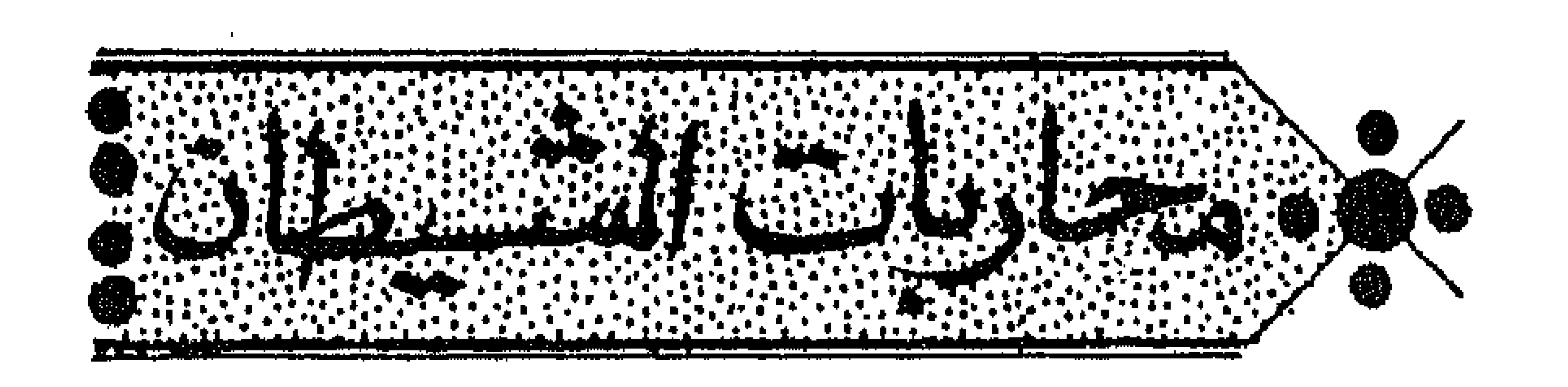
إنه يدقق فى كل حركاته . فى دخوله وفى خروجه . فى صوته وفى مشيته ...

لا ينسى نفسه ، فيعلو صوته على من هو أكبر منه ، أو يقاطعه ليتكلم هو! وفى انتقاله ، كما قال الشيخ الروحانى « بالرفق يفتح بابه و يغلقه » وفى كلامه يحترس من أن يتطور مزاحه إلى العبث أو التهكم . ويحترس أن يتطور من سرد قصة إلى الإدانة .

ويحترس أن ينتقل من الأمر إلى التسلط ، أو ينتقل من القدوة إلى محبة المديح وأعلان الذات . كذلك يكون مدققاً فى عدم التحول من الموضوعية إلى النواحى الشخصية .


إن كل خطوة عنده لها حسابها لا تجرفه التيارات السائدة ، ولا يجارى الأخطاء الشائعة . ولا ينحدر من وضع إلى آخر بدون تفكير.

إنه مدقق فى علاقته فى الله مدقق فى حفظ الوصية ، ومدقق فى وعوده لله ، وفى كل نذوره ، وفى عشوره وبكوره ، لا يساوم الله ، ولا يرجع فى عهد قطعه أمامه .



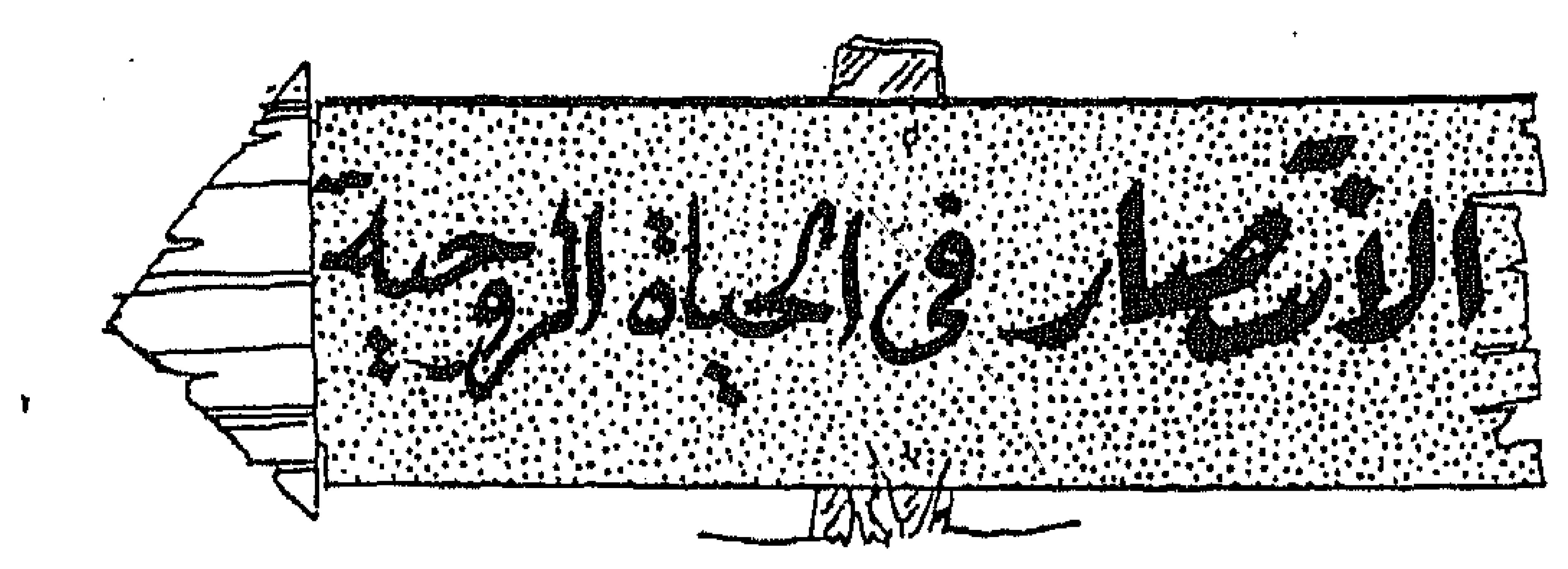
لذلك فالشيطان يحارب التدقيق ويسميه تزمتاً أو عدم مرونة ...

ويريد بهذا أن الإنسان الروحى لا يحتمل كلمة « تزمت » فيتحلل من تدقيقه ! كلا . فما ينتقده الشيطان هو الحرفية والفريسية وليس التدقيق ، كما أن المرونة ليس معناها التحلل من القيم . إنما هى مرونة داخل تنفيذ الوصية ، وليست مرونة فى كسرها فلا تستفزكم هذه الألفاظ لتغيروا مبادئكم ...



أهمية الانتصار وبركاته .
لست وحدك فى الحروب .
لا تخف مهما سقطت .
مقومات الانتصار .

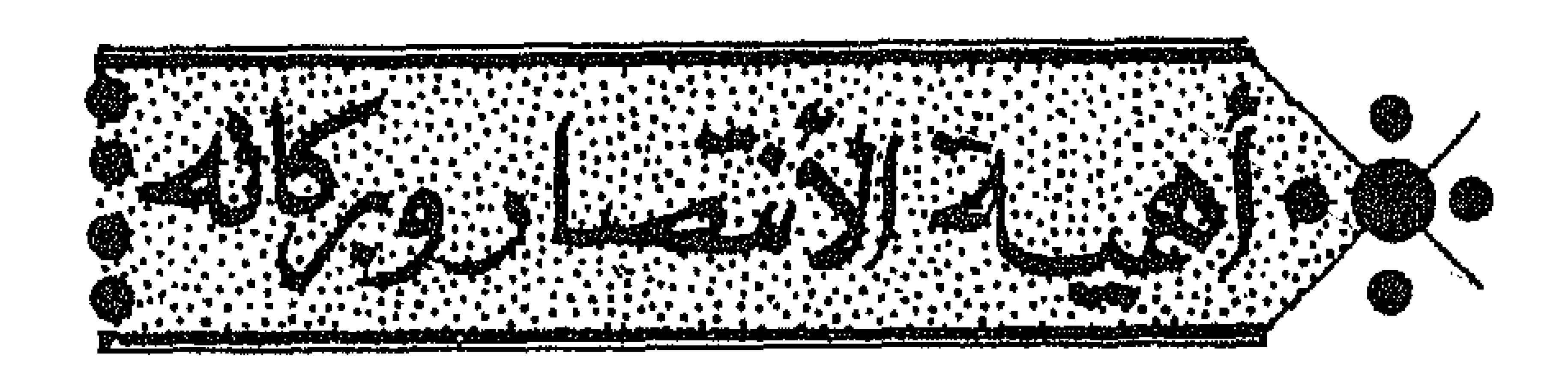
فصل النور عن الظلمة .
أوامر إلهية وكنسية .
فصل أخطر فى الأبدية .
ماذا تفعل إذن .



إجابة سؤال كيف اصلى ؟ وماذا أقول ؟

الإنسان الروحى هو إنسان منتصر فى كل حروبه الروحية : منتصر على نفسه ، ومنتصر على المادة ، ومنتصر على الشياطين . ونتيجة لهذا الانتصار ينال الاكاليل فى السماء ، فى ذلك اليوم .

ولذلك فإن البعض يقسم الكنيسة إلى مجموعتين : إحداهما على الأرض وتسمى الكنيسة المجاهدة ، والأخرى فى السماء ، بعد فترة الجهاد على الأرض وتسمى الكنيسة المنتصرة هذه التى جاهدت وغلبت .



وسفر الرؤيا ، يشرح لنا الرب فيه البركات التى يحصل عليها الغالبون ...

ففى الرسائل التى ارسلها إلى الكنائس السبع ، يكرر فى كل رسالة عبارة « من يغلب » فأعطيه ، أو سيكون « من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة ... » (رؤ٢ : ٧) .

« من يغلب فلا يؤذيه الموت الثانى » « من يغلب فسأعطيه أن يأكل من المن المخفى » ... « من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاء ، ولن امحو إسمه من سفر الحياة » « من يغلب فسأجعله عموداً فى هيكل إلهى » .

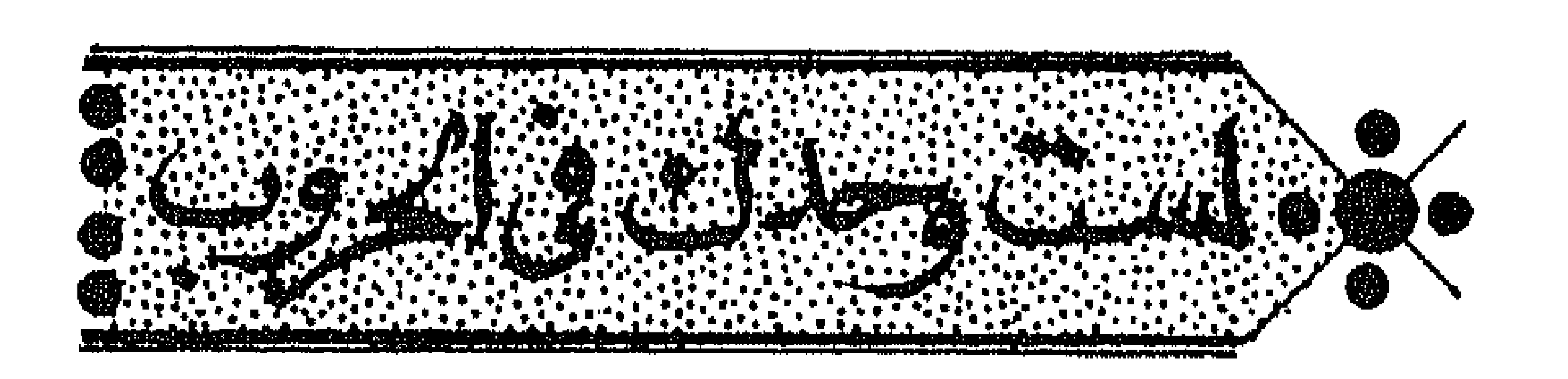
« من يغلب فسأعطيه أن يجلس معى فى عرشى ، كما غلبت أنا وجلست مع أبى فى عرشه » (رؤ٣ : ٢١) .

كل هذه النعم أعدها الرب للذين يجاهدون و يغلبون ، ويحيون حياة الانتصار . ولم يستثن أحداً من هذه القاعدة . فالكل اعطى لهم أن يجاهدوا و يغلبوا لكى يكللوا .

ولهذا فإن القديس بولس الرسول عندما كان يسكب سكيباً ، ووقت انحلاله قد حضر ، قال «جاهدت الجهاد الحسن اكملت السعى ، حفظت الإيمان . وأخيراً قد وضع لى إكليل البر ، الذى يهبه لى فى ذلك اليوم ، الديان العادل ...» (٢تى ٤ : ٦-٨) .

لذلك كله سمح الله بوجود الحروب الروحية ، والاغراءات ، والشياطين إنه يختبر ارادتنا ، ومدى استحقاقاتنا لأكاليله ...

ولهذا قال أحد الآباء : لا يكلل إلاّ الذى انتصر . ولا ينتصر إلاّ الذى حارب . ولا يحارب إلاّ الذى له عدو .. وقال القديس بولس الرسول « البسوا سلاح الله الكامل ، لكى تقدروا أن تثبتوا ضد كل مكايد ابليس ، فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم ، بل مع الرؤساء مع السلاطين ... مع أجناد الشر الروحية فى السماويات ...» (أف ٦ : ١١ ، ١٢) .



والله يرقب حربنا وانتصارنا ، وترقبه أيضاً الملائكة وكل أرواح القديسين .

كلهم يتطلعون إلى جهادنا ، و يفرحون بنا إذا انتصرنا . وكما قال الكتاب إنه يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب ...» (لو١٥ : ١٠) .

والله وملائكته يرقبون حروبنا الروحية ليسوا وهم صامتون ، وإنما وهم يقدمون لنا المعونة فى حربنا .

حقاً إن الله قد سمح بوجود العدو ولكنه لم يعطه سلطاناً علينا .. وسمح بالحروب الروحية ، ولكن منح القوة للانتصار فيها : قوة من الروح القدس وقوة من عمل النعمة ، وقوة فى الطبيعة البشرية التى تجددت وعادت على صورة الله كما كانت ...

كل هذه القوى منحها لنا، وأيضاً أعطانا سلطاناً على جميع الشياطين نستطيع به أن ندوس كل قوة العدو...

ونحن نذكر هذه النعمة فى آخر صلاة الشكر التى نصليها كل يوم ونذكر معها القوة التى منحها الرب لتلاميذه القديسين، حسبما يروى الانجيل المقدس، أن الرب قال لهم: **«ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو» (لو١٠: ١٩).**

عبارة « وكل قوة العدو » هى عبارة معزية بلا شك، إذا وضعت إلى جوارها عبارة «تدوسوا»... إذن فالشيطان ليس مخيفاً كما يتصور البعض، مهما كان يبدو مثل أسد يزأر و يبحث عن فريسة و يبتلعها... لقد أعطانا الرب سلطاناً عليه.

لقد غلب الرب الشيطان فى طبيعتنا هذه التى سبق أن غلبها الشيطان. وهكذا أعطى طبيعتنا روح الغلبة والانتصار...

أعطانا نحن أيضاً أن نغلب. وأرانا صورة الشيطان مهزوماً ومغلوباً حتى لا نخافه فى المستقبل. بل أعطى طبيعتنا القوة على اخراج الشياطين. ورأى آباؤنا الرسل كيف أن الشياطين تخضع لهم باسم الرب «لو١٠: ١٧». وما أجمل قول الرب عن ضياع قوة الشيطان:

« رأيت الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء » (لو١٠: ١٨). إذن فلا تخافوا الشياطين...

إنها ليست أقوى منكم مادمتم تحاربوها بقدرتكم الإنسانية المجردة.

أما إن حاربتموها فبسلاح الله الكامل «أف٦: ١١» و بقوة الله العامل فيكم وبكم، فحينئذ ستخضع لكم، وستغلبونها فى حروبكم...

الله الذى يعمل فيكم سوف يغلبها لقد قال الرب لنا «فى العالم سيكون لكم ضيق. ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦: ٣٣).

ولم يقصد بهذا مجرد غلبته الشخصية للعالم، وإنما أيضاً غلبته للعالم فينا ولهذا حسناً قال الرسول عن الرب إنه **«يقودنا فى موكب نصرته» (٢كو٢: ١٤).**

نعم هذا هو المسيح المنتصر دوماً ، الذى انتصر على العالم وعلى الشيطان وعلى الموت ، والذى يقودنا معه دوماً فى موكب نصرته . كما قال موسى النبى « الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون » (خر١٤ : ١٤) . إنه يحبنا ، ويحب لنا حياة النصرة . وهو الذى يقاتل عنا أما نحن فنقول مع الرسول :

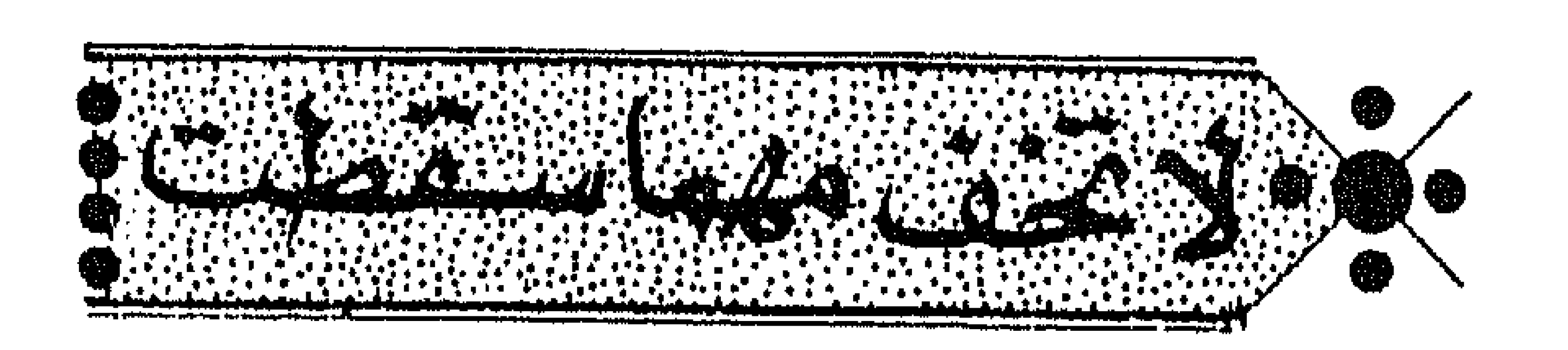
ولكننا فى هذه جميعها ، يعظم انتصارنا بالذى أحبنا » (رو٨ : ٣٧) .

حقاً ، لقد غلب الأسد الذى من سبط يهوذا (رؤ٥ : ٥) . وسنغلب نحن أيضاً طالما كنا ثابتين فيه ، آخذين لنا قوة منه . لأنه لم يعطنا مطلقاً روح الفشل . بل أعطانا أن نغنى قائلين :

« استطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » (فى ٤ : ١٣) .

حروبنا الروحية هذه ، ليست مجرد حروب بيننا وبين الشيطان . إنما هى فى أصلها حروب من الشيطان ضد الله وملكوته . وهو يحاربنا كجزء من محاربته للملكوت ... لذلك فإن الرب لا يتركه لينتصر علينا ، إنها حربه كما قال داود النبى : «الحرب للرب» (صم١٧ : ٤٧) .

وشعر موسى بهذا أثناء حربه مع عماليق فقال « للرب حرب مع عماليق ... » (خر١٧ : ١٦) .



إن الشيطان باستمرار يريد أن يشيع فيك روح الهزيمة وروح الضعف ، لكى تيأس وتستسلم له ! فلا تصدقه . لا تصدقه كلما قال إن التوبة صعبة وإن حياة البر غير ممكنة فى عالم شرير مثل عالمنا ... ولا تصدقه إن قال إنه لا فائدة ، فارادتك ضعيفة لابد ستسقط !! قل له : ليس المهم ارادتى ، إنما فى عمل الله من أجلى وحتى إن سقطت فلا بد سأقوم بعدها كما قال الكتاب :

« الصديق يسقط سبع مرات ويقوم » (أم ٢٤ : ١٦) . وكما قال النبى أيضاً « لا تشمتى بى يا عدوتى . فإنى إن سقطت أقوم » (مى ٧ : ٨) .

لا تزعجك إذن السقطة بعد كل قيام... إنما افرح بالقيام بعد كل سقطة وتأكد أن الله اعطاك القوة التى بها يمكنك أن تقوم ، مهما سقطت « سبع مرات » أى عدداً كاملاً من السقطات .

إن السقوط غير الهزيمة . إنه مجرد مرحلة ، تقوم منها لتنتصر أخيراً .

والله يعرف قوة عدونا ، وضعف طبيعتنا . لذلك هو يشفق علينا فى حروبنا ، ويرسل إلينا قوة من عنده تسند ضعفاتنا . وهو الذى يقيمنا . وكما نقول له فى القداس الإلهى « عرفتنى القيام من سقطتى... حولت لى العقوبة خلاصاً . كأب حقيقى تعبت معى أنا الذى سقطت . ربطتنى بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة... » .

وما أجمل قول أحد الآباء : **إن الجندى الذى جرحه العدو، يكافأ أيضاً بالنياشين ، وليس فقط الجندى الذى انتصر وقتل اعداءه .**

طالما لم يهرب من الميدان ، وإنما حارب وقاتل ، فله مكافأته مهما جرحه العدو . ليست هذه هزيمة . إنما هو جهاد .

ضع أمامك قول الكتاب « الله يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) . فلتكن من هؤلاء ، واطمئن من جهة إرادة الله الصالحة .

وإن تأخرت معونة الله فى الوصول إليك فلا تيأس .

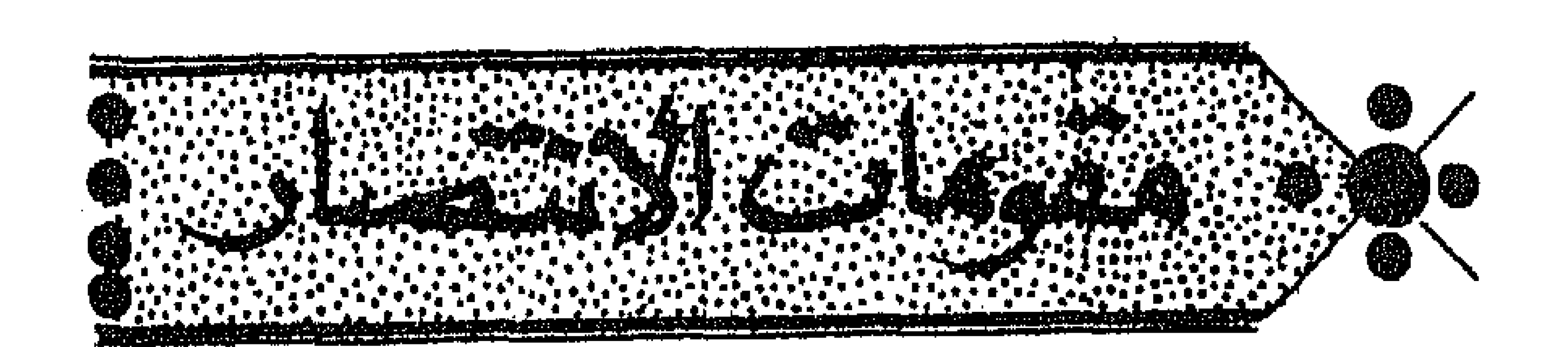
إن الله قد يأتى فى الهزيع الرابع ولكنه لابد سيأتى ...

كان خلاص أوغسطينوس بعد سنوات طويلة جداً فى الخطية . ولكنه نال الخلاص أخيراً ، مهما بدا أن معونة الله قد وصلته متأخرة... ! وبنفس الوضع نتكلم عن مريم القبطية ، وعن موسى الأسود ، وعن شاول الطرسوسى ، وعن أريانوس والى أنصنا .

إن الله قد ذهب ليعد لنا مكاناً ، وسيأتى ليأخذنا إليه (يو ١٤ : ٣) .

فليكن لنا الرجاء إذن فى حياة الغلبة « لا تخش من خوف الليل ، ولا من سهم

يطير بالنهار، ولا من أمر يسلك فى الظلمة» (مز٩١) وإنما قل مع داود النبى : «وإن قام علىّ جيش ، ففى ذلك أنا مطمئن» «إن سرت فى وادى ظل الموت ، لا أخاف شراً لأنك معى» (مز٢٣). املأ قلبك بمواعيد الله المشجعة . وثق أنك لابد ستنتصر.



قلنا إن أهم شيء هو أن يحارب الرب فيك ، ويحارب عنك . لذلك اسكب نفسك أمامه ليعطيك القوة والنصرة .

على أنه مع معونة الله ، ينبغى لك الحرص الكامل الذى من وسائله ...

١ - البعد عن أسباب الخطية ... والهروب منها على قدر استطاعتك .

قال الملاك للوط « أهرب لحياتك ، ولا تقف فى كل الدائرة» (تك١٩ : ١٧) .

وبولس الرسول يقول لتلميذه تيموثاوس « أما الشهوات الشبابية ، فاهرب منها » (٢تى ٢ : ٢٢) . وقد رأينا مثالاً عملياً فى يوسف الصديق الذى هرب لحياته لكيلا يسقط . وقد قال أحد الآباء :

الذى يكون قريباً من مادة الخطية ، تكون له حربان : إحداهما من الخارج والأخرى من الداخل . أما البعيد فإن حصلت له حرب تكون داخلية فقط .

فابحث من أين يأتيك السقوط ، وابعد عن الأسباب . وتذكر قول الكتاب « فصل الله بين النور والظلمة » (تك١ : ٤) . وقوله « إن كانت يدك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والقها عنك » (متى ٥ : ٣٠) .

٢ - كن مدققاً فى حياتك ، واحترس حتى من الأشياء الى تبدو صغيرة .

وذلك كما يقول الوحى الإلهى «خذوا لنا الثعالب الصغار المفسدة للكروم» (نش ٢ : ١٥) « ولا تأخذ وتعطى مع إنسان يقاتلك به العدو» كما قال أحد الآباء :

٣ - كذلك لكى تنتصر ، جاهد بكل قوتك ولا تستسلم فى الحروب .

قاوم الافكار، ولا تعطها مجالاً ، ولا تتركها تنمو فى داخلك . وقاوم الشهوات والرغبات الخاطئة ، ولا تدخل فى مجال تنفيذها مهما ألحت عليك . هوذا بولس الرسول يوبخ العبرانيين قائلاً : **«لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢ : ٤)** .

إن هروبك من الخطية ، وجهادك ضدها ، وتدقيقك ... كل ذلك دليل على أنك تعلن أنك متمسك بالله ، وأن ارادتك صالحة . وهذا يشجع النعمة أن تعمل فيك .

٤ ـ ولكى تنتصر عليك بتقوية محبة الله فى قلبك بالمواظبة على وسائط النعمة .

فغالبية الذين يسقطون ، يكونون بعيدين عن وسائط النعمة من صلاة وتأمل وقراءة وصوم واجتماعات روحية واعتراف وتناول . فتمسك بكل هذه الوسائط الروحية ، بأن تجعل فكرك مع الله باستمرار ، وتدخل فى قلبك المشاعر الروحية التى تبعدك عن الخطية .

٥ ـ لتكن مبادؤك الروحية سليمة : وليكن هدفك هو الله وملكوته .

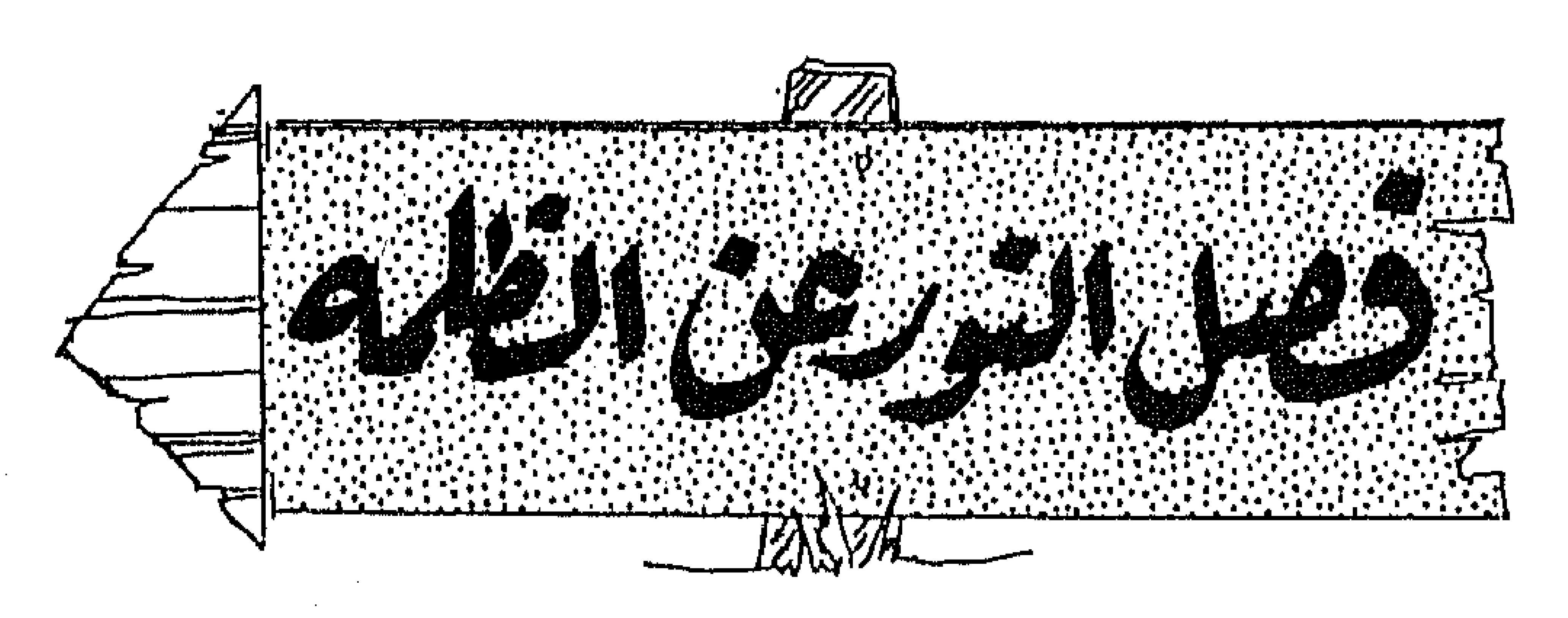
واعلم أنه كلما كانت لك أهداف أخرى ، فإنها تسيطر على عواطفك وتبعدها عن الله . وحينئذ لا تستطيع أن تعبد ربين : الله ، وأهدافك العالمية ...

حاول باستمرار أن تجعل العمق لله وحده . وكلما تزحف إلى أعماقك أهداف غريبة ، كن متيقظاً لها ، ولا تعطها مجالاً ...

٦ ـ وإذا اردت أن تنتصر ، احتفظ بتواضع قلبك باستمرار .

فالتواضع يجعلك تستشير ، ولا تعتمد على فهمك الخاص ، والتواضع يجعلك تعترف بخطاياك ، و يهبك انسحاق القلب ، فيقترب الله منك بنعمه ومعوناته . والتواضع يجعلك تصلى طالباً تدخل الله فى حياتك ، بدلاً من الالتجاء إلى ذكائك ومقدرتك .

٨ ـ واشعر باستمرار أنك مبتدىء فإن ذلك يدفعك إلى قدام لكى تنمو... فإن الذين وقف نموهم ، وقفت حرارتهم ، وفتروا وضعفوا ، وتعرضوا للسقوط ...



الفصل بين النور والظلمة

الإنسان الذى يبدأ طريقه الروحى مع الله ، لابد أن يقطع كل صلة له بالخطية واسبابها . ويحترس من كل خلطة خاطئة . و يستمع فى ذلك إلى قول الكتاب :

«لأنه أية خلطة للبر والإثم ؟ وأية شركة للنور مع الظلمة ؟؟ وأى اتفاق للمسيح مع بليعال ؟ » (٢كو٦ : ١٤ ، ١٥) .

إذن لابد أن يفصل نفسه تماماً عن كل المجالات الخاطئة ، و يبعد عن مادة الحرب الروحية . لأنه لا يستطيع أن يجمع بين محبة الله ومحبة العالميات فى وقت واحد .

وهذا الأمر واضح منذ بداية قصة الخليقة ، إذ يقول الوحى الإلهى :

وقال الله ليكن نور ، فكان نور . ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة (تك ١ : ٣ ، ٤) .

واستمر هذا الأمر ، من جهة الرمز ، كقاعدة ثابتة سار عليها الله فى معاملاته لأولاده فى كل جيل ، فلما انتشر الشر فى العالم قبل الطوفان ، ماذا حدث ؟

كان الفلك رمزاً لهذه القاعدة .

فيه انفصل نوح وبنوه عن كل خلطة خاطئة فى العالم الشرير الذى حل عليه غضب الله . وهكذا خلصوا من الهلاك .

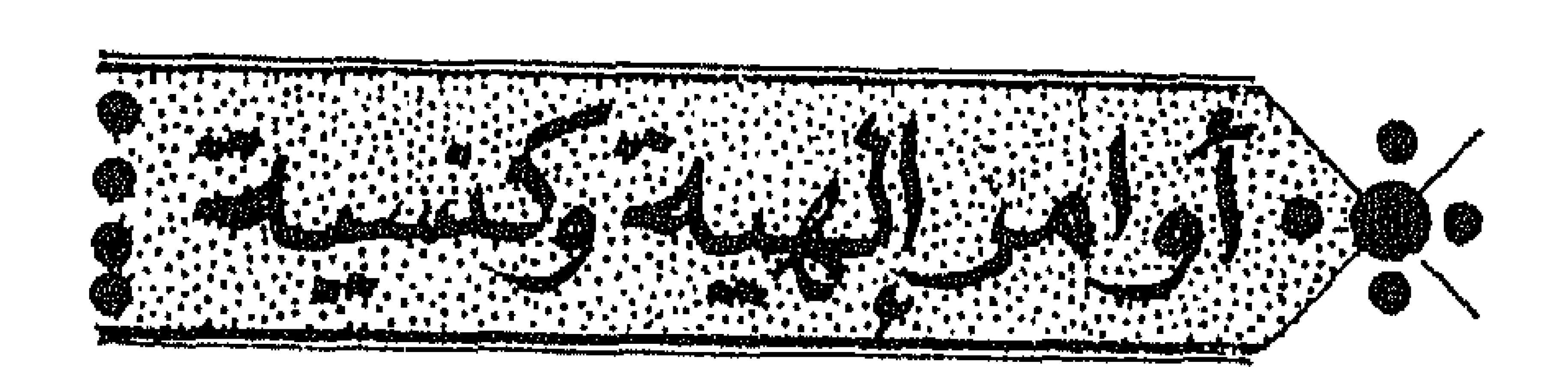
وحدث نفس الأمر مع أبينا أبراهيم . قال له الله فى بداية دعوته «اذهب من ارضك وعشيرتك ومن بيت أبيك ، إلى الأرض التى أريك» (تك ١٢ : ١) . وهكذا

ابتعد أبونا ابراهيم عن الوثنية الموجودة فى أيامه ، وتغرب فى أرض مقدسة يستطيع فيها أن يعبد الله ويحيا فى بر.

ولما خالف أبونا ابراهيم هذه القاعدة الروحية، تعب فى حياته : حدث ذلك لما نزل إلى أرض جرار، فأتته تجربة شديدة من أبيمالك ، تدخل فيها الله لأنقاذه (تك ٢٠) . وحدث ذلك قبلاً لما نزل إلى مصر وقت المجاعة . فنالته تجربة من فرعون ، أنقذه الرب منها بمعجزات (تك ١٢ : ١٤- ٢٠) . وأخذ ابرام من هذين الحادثتين درساً فى حياته .

ونفس المشكلة بوضع أخطر تعرض لها لوط فى أرض سدوم .

كانت معيشته فى بيئة شريرة سبب تعب روحى له . وقال عنه القديس بطرس الرسول « كان البار- بالنظر والسمع وهو ساكن بينهم .. يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » (٢بط ٢ : ٨) . ثم تطور الأمر معه إلى وقوعه فى السبى ، ثم احتراق المدينة بغضب الله ، وانقاذه بمعجزة إلهية بشفاعة أبينا ابرام الذى كان بعيداً عن خلطة الشر والأشرار.



ووضع الله قواعد روحية لوجوب الانفصال عن العشرة الخاطئة ، منها عدم الزواج بالنساء الأجنبيات .

ولما وقع سليمان الحكيم فى هذا الخطأ ، انحرف بسبب نسائه الغريبات اللائى أملن قلبه وراء آلهة أخرى... وأقام المرتفعات « لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن و يذبحن لألهتهن » (١مل ١١ : ١- ٨) .

وعاد سليمان ليحارب هذا الخطأ فى مواضع كثيرة من سفر الأمثال (أم ٢ : ١٦ ؛ ٥:٧ ؛ ٥ : ٢٠ ؛ ٦ : ٢٤ ؛ ٢٢ : ١٤) .

كما حورب هذا الأمر بعنف من عزرا ونحميا (عز ١٠ : ٢ ؛ نح ١٣ : ١٦) .

وقد وضع لنا القديس بولس الرسول مبدأ روحياً هاماً قال فيه : **«لا تضلوا . فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة» (١كو١٥ : ٣٣) .**

و يقول أيضاً «لا تخالطوا الزناة» (١كو٥ : ٩) ، كما يقول «اعزلوا الخبيث من وسطكم» (١كو٥ : ١٣) . وقال بالتفصيل «إن كان أحد مدعواً أخاً ، زانياً ، أو طماعاً أو عابد وثن ، أو شتاماً ، أو سكيراً ، أو خاطفاً ، أن لا تخالطوا ولا تؤاكلوا مثل هذا» (١كو٥ : ١١) .

ووردت نفس النصيحة فى المزمور الأول . **«طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس» (مز١) .**

لاشك أن الإنسان يتأثر بالبيئة المحيطة . وكما قال الآباء أن الشخص البعيد عن مادة الخطية ، إذا حورب بها إنما يحارب من الداخل فقط . أما إذا كان قريباً من مادة الخطية ، فتكون أمامه حربان : إحداهما من الخارج ، والأخرى من الداخل . و يصبح الأمر صعباً عليه .

إذن البعد عن المجال الخاطىء أنفع .

لذلك كانت الكنيسة فى أجيالها الأولى تعزل الخطاة عن جماعة المؤمنين . ولا تسمح مطلقاً بتواجدهم داخل الكنيسة . و يبقى حضور الكنيسة وقداساتها للقديسين فقط . وكان نظام العقوبات شديداً جداً فى الكنيسة فى العصور الأولى للمسيحية . واقصى ما كان يسمح به هو قداس الموعوظين ، وفى الغالبية كان يحضره الداخلون جديداً فى الإيمان وليس الخطاة هؤلاء يحضرون القراءات الكنسية من الرسائل والسنكسار والإنجيل ثم العظة . و ينصرفون ...

والعزل لم يكن يشمل فقط المنحرفين فى سلوكهم ، وإنما أيضاً المنحرفين فى الإيمان وفى الفكر والعقيدة .

وقد قال القديس يوحنا الحبيب فى ذلك «إن كان أحد يأتيكم ولا يجىء بهذا التعليم ، فلا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه ، يشترك معه فى أعماله الشريرة . (٢يو١٠ : ١١) .

وكان هذا الأمر خاصاً باصحاب البدع والهرطقات ، حتى لا ينشروا فكرهم وسط الجماعة المؤمنين و يؤثروا عليهم .

ولعل وصية القديس يوحنا تنفع حالياً مع الذين ينشرون الشكوك فى الدين من أمثلة الملحدين ، وشهود يهوه ، وكل من يبتدع أفكاراً منافية للإيمان المُسَلَّم به مرة للقديسين (يه ٣) .

ولعل من أشهر أمثلة العزل فى عصر الرسل ، قصة حنانيا وسفيره . حيث لم يقبل القديس بطرس الرسول أن يكذب هذان على روح الله القدوس (أع ٥ : ١-١١) .

ومن أشهر الأمثلة أيضاً العقوبة التى أوقعها القديس بولس الرسول على خاطىء كورنثوس (١ كو٥ : ١ - ٥) .

وأقدم مثال للعزل ، هو طرد آدم وحواء من الجنة .

حيث فصلهما الله عن شجرة الحياة ، وفصلهما عن الفردوس ، وجعلهما خارجاً ..

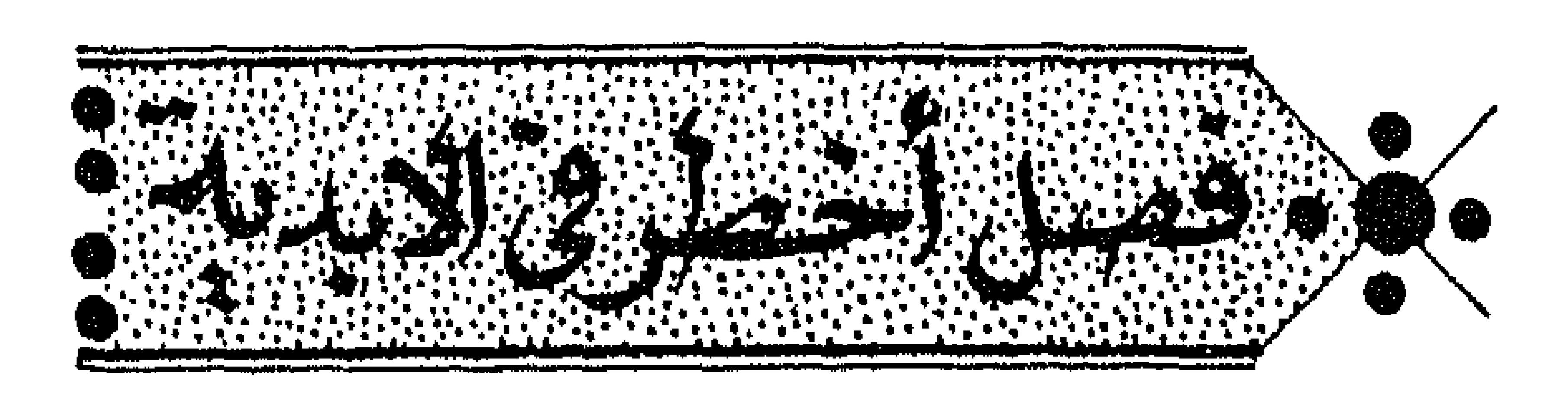
والخطية عموماً هى انفصال عن الله ، وعن ملكوته وملائكته وقديسيه .

وحياة البر هى انفصال عن الخطية وعن مشاركة الخطاه .

وفى المعمودية يبدأ الإنسان الروحى اعتزاله الأول عن الشيطان والخطيئة :

ففى المعمودية يجحده الإنسان علناً ، هو وكل أعماله الشريرة ، وكل جنده وكل سلطانه ، وكل بقية نفاقه .

و يعتزل أيضاً عن إنسانه العتيق ، فيموت هذا الإنسان فى المعمودية ، ليولد إنسان جديد على صورة الله . وكذلك ينفصل الإنسان عن كل الخطايا السابقة للمعمودية ، سواء الخطية الأصلية أو كل الخطايا الفعلية ، ليحيا الإنسان حياة جديدة طاهرة ثابتة فى الله . وهكذا يتحقق أيضاً قول الكتاب « وفصل الله بين النور والظلمة » .



فصل أخطر في الأبدية

وكما يوجد فصل بين النور والظلمة هنا على الأرض ، يوجد فصل من نوع أعمق فى العالم .

و يتضح هذا جيداً من قصة الغنى ولعازر المسكين . حيث قال أبونا ابراهيم لذلك الغنى « بيننا و بينكم هوة عظيمة قد أثبتت . حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا » (لو١٦ : ٢٦) .

وفى الدينونة يوجد فصل بين الذين عن اليمين ، والذين عن اليسار.

سيفصل الله فى يوم الدينونة الرهيب بين الخراف والجداء ، وسيفصل ما بين الحنطة والزوان ، و بين الأ برار والأشرار .

ولا يعود هؤلاء وأولئك يعيشون معاً كما كانوا يختلطون معاً على الأ رض فيمضى هؤلاء إلى النعيم الأ بدى . ويمضى أولئك إلى النار المعدة لأ بليس وملائكته .

و يعيش الأ برار فى كورة الأحياء . بينما يطرح الأشرار فى الظلمة الخارجية .

الآن يستطيع أى خاطىء أن يقابل أى قديس ، و يسلم عليه ، ويجلس معه ، و يتحدث إليه ، و يطلب منه الصلاة لأجله . أما فى الأ بدية ، فإن الخطاة لا يستطيعون اللقاء بالقديسين . لا يستطيع الغنى أن يجلس مع لعازر ، بل ينظره من بعيد . وربما لا يستطيع رؤية الأ برار على الاطلاق .

و يكون حرمانهم من عشرة الملائكة والقديسين جزءاً من عذابهم الأ بدى .

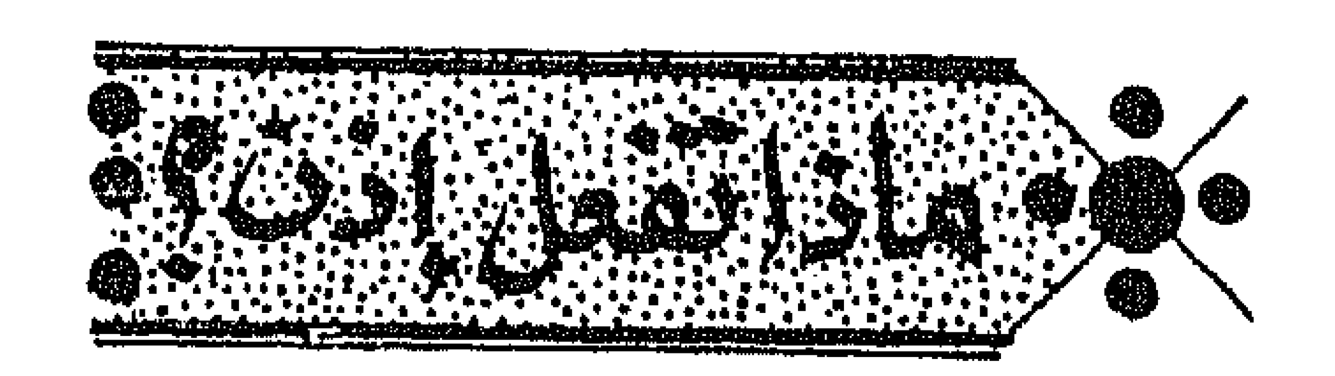
إنه فصل بين النور والظلمة حسبما شاء الله منذ قصة الخليقة .

فإن كنت تحرص على محبة إنسان ، ودوام المعيشة معه ، هنا وفى العالم الآخر أيضاً ، ليس أمامك سوى هذه النصيحة ،

عيشا ههنا فى حياة روحية ترضى الله ، لكى تعيشا معاً فى الحياة الأ بدية .

أما إن سرتما كل واحد فى طريق يختلف عن الآخر من جهة البر والقداسة فلن تلتقيا فى الأبدية. وإن عشتما هنا فى طريق واحد فى حياة الخطية، فإن عذاب الأبدية سيشغل كلاً منكما عن التمتع بالآخر فى الأبدية.

وإن لم تستطع أن تجتمع بمن تحبه فى الأبدية، فعلى الأقل اهتم بأبديتك أنت، وبمحبتك لله، بدلاً من أن تخسر نفسك.



إن لم تستطع أن تعتزل عملياً عن الخطاة، فعلى الأقل اعتزل عن طرقهم ...

إن كنت لابد لك أن تعيش فى بيئة غير روحية، إذ العالم غالبيته هكذا، وليس بامكانك أن تخرج من العالم كما قال معلمنا بولس الرسول ...

وإن كنت لا تستطيع الانفصال عن الخطاة جسدياً، فانفصل بالقلب والفكر..

افصل قلبك عن كل شهوة شريرة، وافصل عقلك عن كل فكر خاطىء. وافصل حواسك بقدر الامكان عن رؤية وعن سماع ما يتعبك روحياً. وتذكر قول القديس بولس الرسول «والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه» (١كو٧: ٣١).

واستمع أيضاً إلى قوله: «لا تشاكلوا أهل هذا الدهر» (رو١٢: ٢). أى لا تصيروا فى شكله وشبهه، بل كونوا مميزين بطريقكم الروحى. وكما قيل «لغتك تظهرك» (متى٢٦: ٧٣) أوم كما قال القديس يوحنا الحبيب «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية... بهذا أولاد الله ظاهرون، وأولاد أبليس (ظاهرون)» (١يو٣: ٩، ١٠).

أولاد الله قد ارتفعوا عن مستوى العالم وشهواته، لأنهم ركزوا كل محبتهم فى الله وحده وهم يرفضون الوضع الذى انتقده إيليا النبى حينما قال:

« حتى متى تعرجون بين الفرقتين؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه. وإن كان البعل فاتبعوه» (١مل١٨: ٢١)

لا يمكن للمؤمن الحقيقى أن يجمع بين الأمرين معاً: الله والعالم. فيعطى ساعة

للصلاة ، وأخرى للمتع العالمية دون أن يثبت على حال.. فقد قال الكتاب «تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ومن كل قدرتك» (تث ٦ : ٥) .

وعبارة « كل » هنا ، تعنى أنه لا توجد محبة أخرى إلى جوار الله تنافسه.. لا توجد ظلمة تشترك مع نوره العجيب داخلك. وانفصالك عن الظلمة ، ليس هو مجرد عمل سلبى ، وإنما له إيجابياته حسبما قال الرسول :

« لا تشتركوا فى أعمال الظلمة غير المثمرة ، بل بالحرى وبخوها » (أف ٥ : ١١) .

وتوبيخ الظلمة يعنى أنك لا تقبلها فيك ولا فى غيرك ، وتعنى حرصك على ملكوت الله وانتشاره. وتوبيخ الظلمة يعنى قوة فى القلب من الداخل ، لا تضعف أمام سلطان الظلام (لو٢٢ : ٥٣) ، وإنما تتصدى للظلمة وتقاومها ، مثلما وقف إيليا ضد آخاب وأنبياء البعل» (١مل١٨) . ومثلما وقف المعمدان ضد هيرودس وهيروديا (متى١٤ : ٣، ٤) .

أنت نور . والخطية ظلمة . النور يستطيع أن يقشع الظلام .

أنت نور ، لأن السيد المسيح قد قال لنا «أنتم نور العالم» (متى٥ : ١٤) . وقال بعدها «فليضىء نوركم هكذا قدام الناس ، لكى يروا أعمالكم الحسنة ، ويمجدوا أباكم الذى فى السموات (متى٥ : ١٦) . ونورك هذا حينما يضىء ، سيبدد الظلمة التى حوله . لا تغطى هى عليه ، بل هو الذى يبددها ...

فهل لك هذه الهيبة الروحية التى تبدد الظلمة التى حولها ؟

هل فى مجرد وجودك يشعر من حولك أنهم لا يستطيعون أن يلفظوا بكلمة خارجة أو كلمة نابية ، ولا يستطيعون أن يتصرفوا أى تصرف غير لائق .

هل وجودك يشعرهم أنك تنقل إليهم حضور الله فى وسطهم فيقولون لك العبارة التى قيلت لذلك المتنيح البار... إننا عرفنا الله اليوم عرفناك .. ؟

هل أنت لا تنفصل فقط عن الظلمة أم أنت تقضى على الظلمة ؟

هل أنت مصباح يوضع على المنارة ، فلا تكون ظلمة ، لأنه ينير لكل من فى البيت (متى٥ : ١٥) أو هل أنت حتى مجرد شمعة ، تضىء فتطرد الظلمة .

قد يكون تعليمك نوراً . وهذا حسن ، وما هو بأحسن من ذلك أن تكون حياتك نفسها نوراً تضيء للآخرين .

ولا يمكن أن تكون نوراً ، إلا إذا أحببت النور. ولا يمكن أن تبدد الظلمة إلا إذا كنت تكرهها من أعماقك.

لذلك افحص قلبك جيداً ، وتأكد من سلامة مشاعره ، واطرد منه كل ظلمة ، بمحبة الله التى إن دخلت قلبك طردت منه كل محبة للعالم وللخطية .

وينبغى أن تثق بأن الخطية ظلمة . يكفى أنك لا تستطيع أن تفعلها إلا فى الظلام ، فى الخفاء ، فى غير ملاحظة الناس لك... وإن تكشفت لأحد ، **تحاول** أن تغطيها بالأعذار أو التبريرات ، أو الكذب ، أو بالصاقها بغيرك ، لكى تبقى فى الظلام لا يراها أحد فيك...

ومادام الله نوراً ، إذن فالخطية ـ وهى ظلمة ـ تفصلك عن الحياة مع الله .

لأنه كما قال الرسول « أية شركة للنور مع الظلمة » ...

وإن كان الأبرار سيقومون فى اليوم الأخير بجسد نورانى روحانى ، وسوف يضيئون كالجلد ، والذين ردوا كثيرين إلى البر يضيئون كالكواكب إلى أبد الدهور (دا ١٢ : ٣) ، فماذا نقول عن قيامة الخطاة الذين كانوا ظلمة فى حياتهم ؟

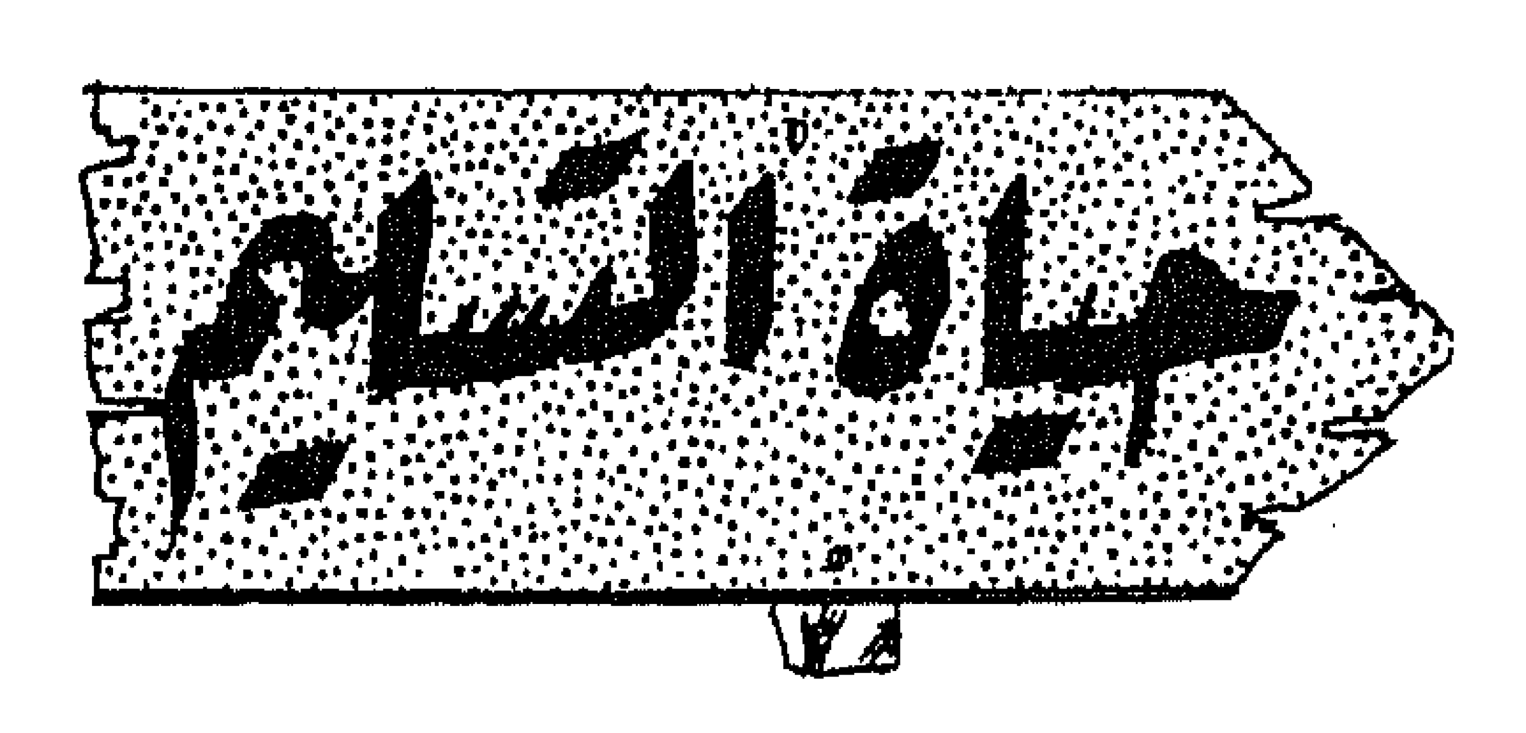
هؤلاء سيطرحون فى الظلمة الخارجية فلا يمكن أن تكون أرواحهم مضيئة .

وهكذا يكون الله قد فصل فى الأبدية أيضاً بين النور والظلمة ، ليس فقط من جهة المسكن ، حين يسكن الأبرار فى المدينة المنيرة التى لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ، لأن مجد الله يضيئها (رؤ ٢١ : ٢٣) .

وإنما أيضاً من جهة طبيعة الأرواح فأرواح الأبرار منيرة ، وأرواح الخطاة مظلمة ...

ولا يمكن أن تكون أرواح الأشرار منيرة ، لأنهم انفصلوا عن الله الذى هو النور الحقيقى ، ولأنهم يعيشون فى الظلمة الخارجية ، ولا شركة للنور مع الظلمة .


الفصل الحادى عشر :
حياة التسليم وحياة الشكر
حياة التسليم
خصائص حياة التسليم .
حياة الشكر
أشياء كثيرة نشكر عليها .
ماذا تعلمنا الكنيسة .
نشكر على النعم والضيقات .
عقبات أمام الشكر.
فضائل تتعلق بالشكر.



حياة التسليم هى أن تسلم الله حياتك تضعها فى يديه ، وتنساها هناك . وتثق من كل قلبك أنه يدبر حياتك حسناً ، حسب مشيئتة الصالحة الطوباوية .

المسألة إذن تحتاج إلى ثقة بالله ، وإيمان بمحبته وحكمته ورعايته .

ولكن للأسف الشديد ، غالبية الناس يثقون بأنفسهم وبذكائهم وعقليتهم وتدبيرهم البشرى أكثر مما يثقون بالله!! لذلك هم يحبون أن يدبروا كل أمورهم بأنفسهم ، ولا يفكرون فى اللجوء إلى الله ، والاعتماد عليه كلية كما تقتضى حياة التسليم .

إن أخطر شيء يتعب الإنسان هو أن يستقل عن الله ويعتمد على نفسه ، تقوده الذات : تقوده رغباته وشهواته أو يقوده تفكيره ، أو يقوده الآخرون .

وفى ذلك إن اعتمد على الله ، إنما يكون اعتماداً جزئياً ، فى حدود معينة لا يتخاطاها ..! **أو يكون اعتماداً فى غير عمق ، وفى غير ثقة .. اعتماداً متردداً ، أو اعتماداً يحاربه الشك والخوف وعدم الاطمئنان .**

يذكرنى هذا بالقديس بطرس الرسول حينما مشى مع السيد المسيح على الماء ولكنه ما لبث أن خاف وبدأ يسقط ، واستحق أن يوبخه الرب قائلاً « يا قليل الإيمان ، لماذا شككت ؟ » (متى ١٤ : ٣١) .

عكس هذا ، الذين مشوا فى البحر الأحمر ، والمياه تحيطهم من الجانبين . هؤلاء لابد أنهم سلموا حياتهم لله ، ووثقوا به كل الثقة .

وهناك تأمل يقول : إن أكثر الناس تسليماً وقتذاك ، كان أول شخص وضع قدمه فى الماء ، لما ضرب موسى البحر بعصاه ، وهو واثق أن الماء لابد سينشق .

ويشابه هذا الإيمان، الذين مشوا تحت السحابة، وهم لا يعلمون إلى أين هم ذاهبون. ولكنهم يثقون بقيادة الرب لهم.

ومثلهم أيضاً أبونا نوح حينما دخل الفلك مع الوحوش. وترك قيادة هذا الفلك لله وحده، واثقاً أنه سيخرجه منه إلى أرض جافة انقشع عنها ماء الطوفان ..

إن أبانا آدم لم يسلك فى حياة التسليم حينما تبع رغبته، أو تبع إمرأته، أو تبع الحية، مستقلاً عن الله ووصيته.. وترك شهوة المعرفة تقوده، فقادته إلى الجهل وإلى الموت !

ويونان النبى لم يسلك فى حياة التسليم، حينما هرب من الله، واغتاظ من مشيئته الإلهية حتى الموت، طالباً الموت لنفسه (يون ٤).

وشاول الملك كان سبب ضياعه، أنه استقل عن الله، تابعاً فكره ونزعاته، وملتجئاً أحياناً إلى مشورة العرافة ...

حياة التسليم هى كما قلنا أن تسلم حياتك لله. وهى أيضاً أن يستسلم الإنسان لعمل الله فيه. يستسلم لعمل النعمة فيه، ولعمل الروح القدس، ولمشيئة الله الصالحة.

تماماً كالحملان مع الراعى ... حينما يقودها تمشى، وهى مطمئنة واثقة برعايته وبقيادته، بدون تفكير، بدون رأى خاص. وكما تقول الترتيلة «حيث قادنى اسير». إنها طاعة كاملة، مبنية على ثقة كاملة.



حياة التسليم إذن ترتبط بالطاعة. ونقصد الطاعة الحقيقية، التى لا تذمر فيها، ولا إرادتين...

حيث تطيع الله ، وأنت مبتهج القلب . وليست لك ارادة غير ارادته ، بل تقول :

لـــــيــــس لى رأى ولا فـــكـــر ولا
شـــهـــوة أخـــرى ســـوى أن اتـــبـــعـــك

إن سبب السقوط الوحيد ، هو الثنائية بين ارادة الإنسان وارادة الله .

حياة التسليم أرشدنا الرب إليها فى الصلاة الربية ، حينما علمنا أن نقول « لتكن مشيئتك ... » .

لتكن مشيئتك هى مشيئتى . ولتكن مشيئتى هى مشيئتك . ولا تسمح أن تكون له مشيئة أخرى منفصلة عنك ...

وإذا دخل الإنسان فى وحدة المشيئة ، لن يخطىء . لأنه يكون حينئذ فى شركة مع الروح القدس ، لا يقاوم الروح ، ولا يعاند المشيئة الإلهية . وهذه هى أحدى ثمار حياة التسليم ...

ومن هنا كانت الخطية لوناً من العناد ، لا يتفق مع حياة التسليم . ومن هنا أيضاً الذى يعيش فى التسليم « لا يستطيع أن يخطىء والشرير لا يمسه » وبهذا « أولاد الله ظاهرون » (١يو٣ : ٩ ، ١٠) (١يو٥ : ١٨) .

الذى يحيا حياة التسليم ، يسلم لله كل شىء ، يسلمه فكره وقلبه وحواسه ، ولا يحاول أن يتدخل فى عمل الله فيه . يسلمه رغباته وانفعالاته وعواطفه .

هذا هو التسليم الكامل ، الذى به وحده يستطيع المؤمن أن يهتف مع القديس بولس الرسول « أحيا لا أنا ، بل المسيح يحيا فىّ » (غل ٢ : ٢٠) .

هذا هو الإنسان الذى صلب ذاته تماماً ، فلم تعد له ذات تقاوم مشيئة الله ...

الذى يحيا حياة التسليم ، يسأل الرب فى كل أمر « ماذا تريد يارب أن أفعل » (أع ٩ : ٦) .

أنا لا أختار لنفسى ، بل أطلب دائماً ما تختاره أنت لى . لأننى لو اخترت لنفسى ربما اخطىء فى اختيارى . أما أنت فتعرف ما هو الصالح لى .

وأنا لا اختار لنفسى ، لأنى لا أثق بحكمتى الخاصة . وما أصدق قول الكتاب : **«على فهمك لا تعتمد»** (أم٣ : ٥) . **وأيضاً «توجد طريق تبدو للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت»** (أم١٤ : ١٢ ؛ أم١٦ : ٢٥) .

لذلك أنا أترك الأمر لحكمتك الإلهية واسلم الأمر لها . لأنك أنت يارب ترى ما لا أراه ، وتعرف ما لا أعرف . وأنت تدرك ما هو الصالح لى وتقودنى إلى الأرض الخضراء ، وإلى موارد الماء الحى .

إذن حياة التسليم ينبغى أن تبنى على اتضاع القلب ، وعلى بساطة القلب ، كما تبنى على أختفاء الذات ...

إن الذات التى تثق بمعرفتها وقدرتها من الصعب عليها أن تصل إلى حياة التسليم .

والذين يفحصون كل مشيئات الله وكل عمله معهم ، والذين يأخذون عمل الله مجالاً للمناقشة والمجادلة ... هؤلاء لا يستطيعون بهذا الأسلوب أن يصلوا إلى حياة التسليم . بل يسمونهم «العقلانيين» ..

إبراهيم أبو الآباء عاش فى حياة التسليم ، حينما ترك أهله ، وحينما رضى أن يقدم إبنه محرقة للرب ...

ترك وطنه وعشيرته ، وهو لا يعلم إلى أين يذهب ، إنما كان قد سلم حياته للرب ، يقوده حيثما يشاء ، و يسكنه حيثما يشاء .

كذلك أخذ إبنه الوحيد ليقدمه ذبيحة محرقة ، مسلماً الأمر لقدرة الله التى تستطيع أن تقيم من الأموات (عب ١١) .

الذى يحيا حياة التسليم ، إنما يسلم للرب الغرض والوسيلة ، كذلك النتيجة أيضاً ...

الله يختار له الطريق والطريقة . وكل نتيجة تأتى من عند الله هى مقبولة . لذلك هو يعيش فى فرح ورضى باستمرار.

إن الحزن يأتى إذا حدد الإنسان لنفسه غرضاً ولم يتحقق. أما الذى يعيش فى التسليم فإنه لا يحدد لنفسه أغراضاً، لأنه قد ترك للرب أن يرشد طريقه. وكما قال أرمياء النبى «عرفت يارب أنه ليس للإنسان طريقة. ليس لإنسان يمشى أن يهدى خطواته» (أر ١٠ : ٢٣).

الذى يسلم للرب طرقه، لا يقلق ابداً، لأنه واثق أن الرب سينجح طريقه. أما الذى يقود نفسه، فهو معرض للقلق ...

بولس الرسول سلم حياته للرب، لذلك كان يغنى و يسبح، حتى وهو فى السجن (أع ١٦) لا يوجد شيء يزعجه، بل كان أيضاً يكتب بعض رسائله وهو أسير فى الرب.

و بطرس الرسول لأنه سلم حياته للرب، نام فى السجن مستريحاً، بينما كان الموت ينتظره فى اليوم التالى (أع ١٢).

حياة التسليم تقوده إلى الاطمئنان، حتى فى أشد الأوقات ...

إنها تذكرنى باطمئنان المريض الذى يرقد فى هدوء وثقة، مسلماً جسده لمشرط الجراح «يجرح و يعصب» ...

هو فى رقاده ونومه واستسلامه لا يحاول، ولا يسأل الجراح ماذا يفعل به ... يكفيه جداً أنه فى يد أمينة تريد الخير له، و يكفيه ثقته فى هذه اليد.

هكذا كل الذين ساروا وراء الله فى تسليم. لم يسألوا، ولم يجادلوا، كما حدث فى دعوة آبائنا الرسل ...

متى - وهو فى مكان الجباية لمّا وصلته الدعوة، ترك كل شيء، ولم يسأل إلى أين؟ وبطرس واندراوس و يوحنا و يعقوب أخوه، تركوا الشباك والصيد، وساروا وراء المسيح وهم لا يعلمون إلى أين .. ولم يسألوا .. إنها حياة التسليم.

لذلك حسناً أن الله اختار أولئك الذين كانت لهم حياة التسليم ...

كان يعرف أن لهؤلاء قلوباً مستعدة بسيطة، تثق ولا تحاول أن تفحص بعناد

يدعى الحكمة والفهم، ولهذا قال السيد المسيح «احمدك أيها الآب لأنك اخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال» «أى للبسطاء» (لو١٠ : ٢١).

وكأنى بالمؤمن يقول للرب فى كل مشكلاته :

لقد قدمتها لك يارب. صمت من أجلها وصليت. وسلمتها لك. وأنا واثق أنك ستعمل. كيف ستعمل؟ ومتى؟ لا أعرف. ولكننى أعرف تماماً أنك لابد ستعمل الخير. وسأرى عملك الآن أو بعد حين. هذا أمر أراه بالإيمان وبالحب والثقة، وأراه بخبراتى الطويلة معك، تحت رعايتك...

فى التسليم يفعل الإنسان هكذا، ولا يقلق من جهة الوقت.

إن الله سيعمل فى الوقت الذى يراه مناسباً ونافعاً، ومهما بدا لك أنه قد تأخر. مسألة التأخير هذه مسألة نسبية تتوقف على نوعية تفكير الإنسان.

فى حياة التسليم اترك الوقت لله، ولا تحدد له مواعيداً، فهو أدرى بعمله، وهو أكثر منك معرفة بالوقت الصالح.

ثق بعمل الله، مهما حاربك الشيطان باليأس. ومهما قال لك فى شماته «لا فائدة»! إنك مادمت قد سلمت أمورك لله، فقد سلمتها للقادر على كل شيء، الله محب البشر، صانع الخيرات، الكلى الحكمة والمعرفة، الذى قد نقشك على كفه...

حقاً إن صفات الله الجميلة هذه، تدعوك إلى حياة التسليم بالأكثر، وتدعوك إلى الاطمئنان مهما بدت أمامك عوائق.

إن الله هو هو، ووعوده هى هى، ومحبته وحكمته هى هى. وهو يعمل حتى لو بدا لك الأمر متوقفاً.

فى حياة التسليم لا تعتمد على حواسك ولا على ادراكك الخاص.

إن كنت قد طلبت من الله طلباً، ثق أنه فى اللحظة التى سمعك فيها قد بدأ يعمل لأجلك حتى قبل أن تطلب.

بحياة التسليم، سلك الرسل فى كرازتهم وفى خدمتهم. ذهبوا إلى بلاد لم

يروها من قبل، ولا يعرفون لغتها، وليس فيها كنائس ولا مؤمنون ولا أية امكانيات. ولكنهم بحياة التسليم كانوا يثقون أن الله سيدبر الخدمة و ينجحها. ولم يكن يعنيهم: كيف ؟.

وبحياة التسليم عاش أباؤنا الرهبان السواح بدون أية معونة بشرية.

عاشوا تائهين فى البرارى والقفار. ومرت على الكثيرين منهم عشرات السنوات لا يرون فيها وجه إنسان. ومع ذلك كانوا سعداء فى حياتهم التى سلموها للرب، ورأوا ورأت الأجيال كيف كان الله يعولهم روحياً ومادياً فى حياة التسليم التى عاشوها.

إن الذى يحيا حياة التسليم، لا يهتم، لا يحمل هماً...

إنه قد ألقى على الله همومه، منذ أن سلمه حياته بكل ما فيها، ولم يعد يحمل هماً بعد ذلك... إن الذى يهتم بالكل، يهتم به أيضاً.

مادام أبوكم السماوى يعلم جميع أحتياجاتكم، ومادام هو يرعاكم فلا يعوزكم شيء، إذن لماذا تهتمون ؟!

لا تهتموا بما للغد، فإن الغد يهتم بما لنفسه» (متى ٦ : ٣٤). إن إله الغد هو الذى يدبره. كما دبر أمساً وقبلاً من أمس...

جميل أن نسمع عن يوحنا المعمدان أن ملاكاً خطفه فى طفولته إلى البرية لينقذه. أو فيلبس الذى عمّد الخصى الحبشى، حمله روح الرب فوجد فى أشدود (أع ٨). أو أن القديس مقاريوس الكبير لما تعب فى البرية فى الطريق قال «أنت تعلم يارب أنه ما بقيت فىّ قوة» وللحال وجد نفسه فى الأسقيط.

إن روح الله الذى قاد الآباء قديماً، قادر أيضاً أن يقودك، إن سلمته حياتك فادخل فى حياة التسليم، لكى ندخل أيضاً فى حياة الاختبار، وتلمس يد الله فى حياتك.

إن الذين عاشوا فى حياة التسليم، اختبروا الرب وذاقوه، وتقوى إيمانهم بالأكثر لكى يدخلوا فى درجة أعمق فى حياة التسليم. وكانت حياة التسليم تقودهم كل يوم إلى اختبار جديد. وحياة الاختبار تثبتهم فى حياة التسليم.

وهكذا كلما زادوا تسليماً ، زادوا اختباراً . وبالاختبار يقوى إيمانهم ، فيزداد تسليمهم . ونعمة تقودهم إلى نعمة ...

بالتسليم تحيا فى سلام . أما كثرة الاهتمامات ، فتتبعها كثرة الهموم .

إلى متى تظل حاملاً هموماً ينوء تحتها ظهرك . القها على الله . أليس هو القائل « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا اريحكم » (مت ١١ : ٢٨) .

إن الله الذى حمل أثقال العالم كله ، من آدم حتى الآن وإلى أخر الدهر ، أكثير عليه أن يحمل همومك ...

هناك إنسان قد يعيش فى الكنيسة مضطرباً يحمل هموماً . وبدلاً من أن يترك الله يحمل همه ، يحمل هو هموم الله ، إن صح هذا التعبير!! فلماذا يا إبنى تتعب نفسك ؟ ولماذا تتعب النفس بكثرة حديثك عن الهموم . سلم الأمر لله الذى سيحملك ويحمل الكنيسة وكل همومك وهمومها ، دون أن تقلق .

حسن أن تختبر الرب ، حينئذ تحكى عنه لابنائك وأحفادك وتلاميذك .

تحكى ليس فقط عن اله الكتب ، إنما عن إله الخبرة والعشرة والمذاقة ... إله كل يوم ، وكل لحظة ، وكل حادث . تحكى عن الله الذى لم يتخل عن أولاده مطلقاً ، والذى قال عنه داود النبى « أبى وأمى تركانى ، أما الرب فضمنى » .

مساكين الذين لم يذوقوا الرب . وكيف يمكنك أن تذوقه ؟ بالاختبار... وكيف تختبره ؟ بالدخول فى حياة التسليم .

سلمه حياتك ، كما يسلم طفل يده لأ بيه ، ليقوده فى زحمة المواصلات فى أحد الميادين ... أو كطفل يتسلق بكتف أمه ، و يشعر بأنه ـ وهو على كتفها ـ فى عمق الأمن والراحة والسلام .

لنرجع إذن إلى حياة الطفولة الروحية ، فى بساطتها وثقتها ، وتسليمها وسلامها .

« إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الاطفال ، لن تدخلوا ملكوت الله » . ومن أشهر

صفات الأطفال .. التسليم وعدم الثقة بالذات ، بقدر ما يثقون بالقائد والأب والمعلم ...

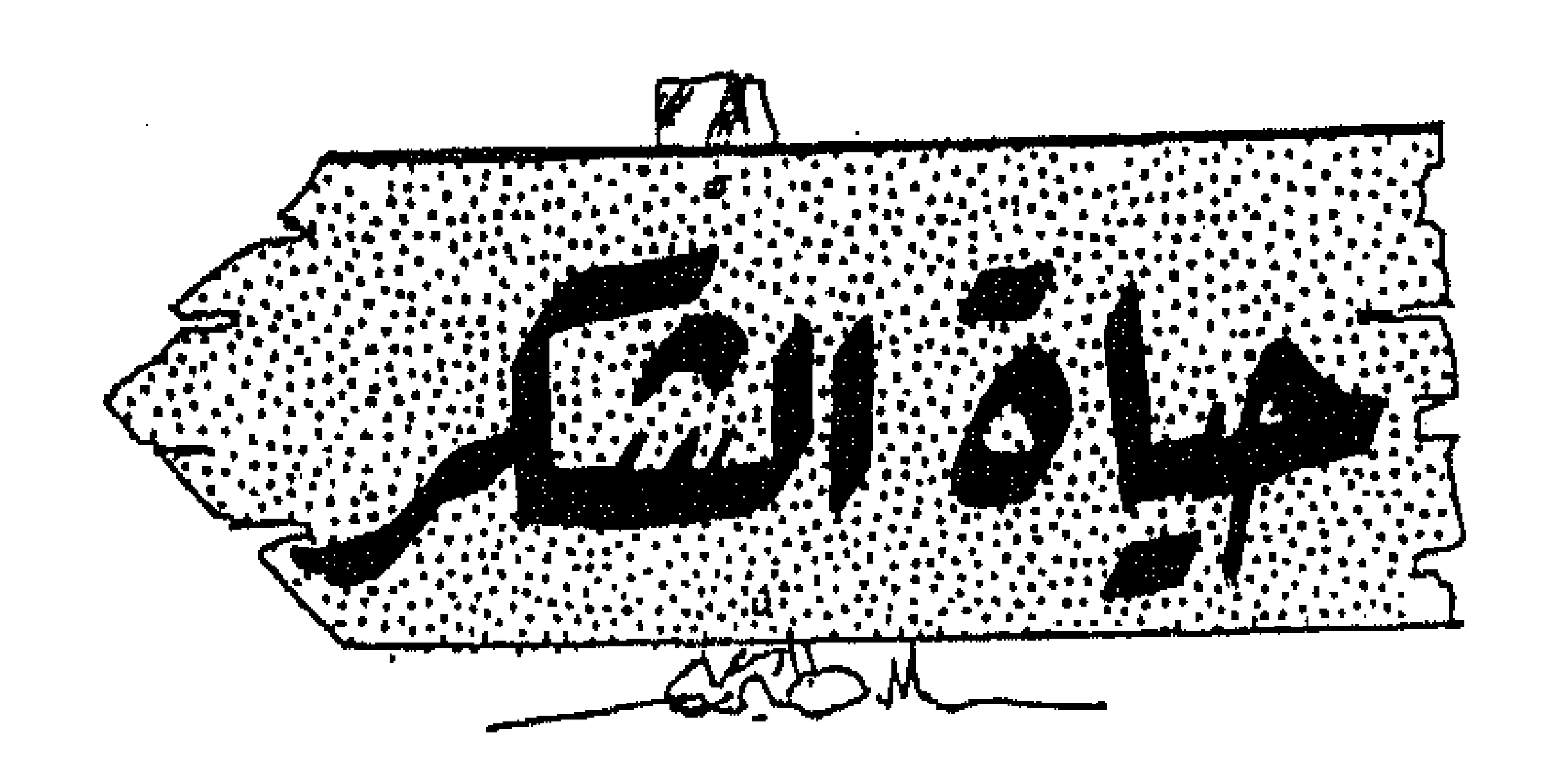
وفى حياة التسليم ، لا تجادلوا ، ولا تشكوا .. إنما ثقوا أن الله يحمل .

جربوا حياة التسليم ، وما فيها من فرح واطمئنان وسلام . واقتنوا خبرة روحية من تسليم حياتكم للرب .

لقد تأمل أحد القديسين فى عبارة «تركنا كل شيء وتبعناك» فقال : إن تركنا كل شيء ، هو تركنا لأهويتنا وارادتنا ...

اقرأ مقال « اتركينى الآن » فى كتاب « انطلاق الروح » ...

صل وقل : أنا يارب سهرت الليل كله ، ولم اصطد شيئاً . لكنى فى حياة التسليم ، على إسمك ألقى الشباك وأنا واثق أنها ستمتلىء سمكاً . إله البحر سوف يملؤها ...



نحن على أبواب عام جديد، جعله الله عاماً سعيداً. فماذا ترانا سنقول لله فيه؟

اعتاد الناس أن يطلبوا ما يريدون ... وليس فى هذا خطأ. إنما الخطأ فى أن قليلين هم الذين يشكرون على احسانات الله السابقة.

أو إن شكروا، يكون شكرهم ضئيلاً إلى جوار طلبهم. فيطغى الطلب على الشكر. وقديماً قال أحد الآباء الروحيين.

« ليست موهبة بلا زيادة، إلا التى بلا شكر » ...

لذلك أود فى هذا المقال أن اركز على موضوع الشكر، حتى يكون عنصراً بارزاً فى صلواتنا فى ليلة رأس السنة. لأنه من المخجل أننا نطلب فى كل مرة طلبات جديدة، دون أن نشكر على العطايا السابقة...

أشياء كثيرة نشكر عليها

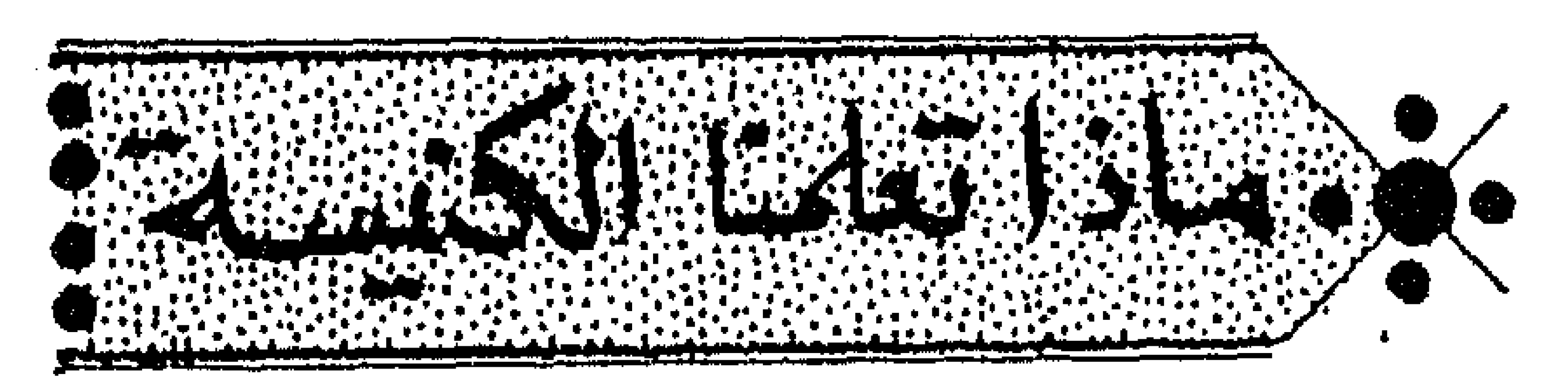
اشكر على احسانات الله إليك، وإلى جميع احبائك ومعارفك، واحسانات الله إلى الكنيسة كلها، وإلى كل المجتمع الذى تعيش فيه...

ولا شك أنك ستجد نقطاً بيضاء كثيرة تحتاج إلى شكر... وعلى الأقل، من الآن، اجلس إلى نفسك، وحاول أن تتذكر بالتفاصيل كل ما صنعه اللهمن أجلك ومن أجل احبائك...

ليس فقط فى العام المنتهى هذا، وإنما فيما سبقته من أعوام، بل حياتك كلها...

اشكر الله لأنه لم يعاملك بحسب معاملتك له ، ولم يجازك على كثير من الخطايا التى تعرفها عن نفسك ، بل على العكس سترك واعانك ، وفتح لك بيته ، ومنحك من اسراره ...

لا تظن أن شكرك لله هو خاص فقط بما صنعه معك من معجزات ، بل الشكر يشمل كل شيء . هناك تفاصيل دقيقة فى حياتك تحتاج إلى شكر . وقد لا تلتفت إليها



إن الكنيسة المقدسة تعلمنا أن نشكر على أشياء قد لا يخطر ببالنا أن نشكر عليها . ولكن كتبَ الصلوات تذكرنا بها . فنحن نقول فى صلاة الغروب : نشكرك يا مليكنا المتحنن ، لأنك منحتنا أن نعبر هذا اليوم بسلام ، وأتيت بنا إلى المساء شاكرين ، وجعلتنا مستحقين أن ننظر النور إلى المساء » ...

ما هذه الحساسية العجيبة فى الشكر ، التى تعلمنا الكنيسة إياها وبالمثل تعلّمنا أن نقول فى صلاة باكر « نشكرك يا ملك الدهور ، لأنك أجزتنا هذا الليل بسلام ، وأتيت بنا إلى مبدأ النهار » ...

إننا نشكر الله على كل دقيقة نحياها . إنها هبة من الله ، فرصة وهبها لنا لنعمل فيها خيراً ...

بل إن مجرد وقوفنا للصلاة ، أمر نشكر الله عليه ، لأنه وهبنا أن نتحدث إليه ، ومنحنا النعمة التى ننحل بها من اهتمامات الدنيا ، لنقف أمامه ، وبخاصة فى الأوقات المقدسة . وهكذا تعلمنا الكنيسة أن نقول فى صلاة الساعة الثالثة .

« نشكرك لأنك أقمتنا للصلاة فى هذه الساعة المقدسة التى فيها أفضت روحك القدوس ... » .

وعبارة ـ اقمتنا ـ هنا ، تعنى أننا نشعر بأن نعمة الله هى التى دفعتنا إلى الصلاة ، وساعدتنا على اتمامها ، وليست هى فقط اتجاهات ارادتنا البشرية ، التى ربما لو تركت لذاتها ما كنا نصلى ...

بل الكنيسة تعلمنا أن نبدأ كل صلاة بالشكر. ليس فقط فى صلاة الأجبية بل أيضاً صلاة القداس الإلهى ، وصلوات جميع أسرار الكنيسة. بل حتى فى حالة الوفاة ، حينما نصلى على الذين رقدوا وفارقوا عالمنا ، مع شدة حبنا لهم ، نبدأ صلاتنا بالشكر أيضاً .

ونقول فى صلاة الشكر « نشكرك على كل حال ، ومن أجل كل حال ، وفى كل حال » ...

إنها صلاة تدخل فى حياة التسليم ، وفى الشعور بأن « كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب » (رو ٨ : ٢٨) ...

ولعل هذه العبارة مأخوذة من قول الكتاب : « شاكرين فى كل حين ، على كل شىء » (أف ٥ : ٢٠) .

إنها درس لمن يحبون حياة التذمر ، أو عدم الرضى ، ساخطين على أمور كثيرة ، بينما يمكن فى حياة الإيمان أن نشكر على كل شىء ، قائلين نشكر -مهما حدث لنا- كله للخير.



غالبية الناس يشكرون على النعم فقط . وقليلون هم الذين يشكرون فى الضيقات .

إنما يشكر فى الضيقة ، القلب الواسع الذى لا يضيق بالضيقة . و يشكر فيها من يحب الله ، لا يمكن أن يتذمر على شىء سمح به ، بل يثق بصلاحه وعنايته ورعايته . و يشعر أن الضيقة لابد تنتهى بخير.

أعلى من الشكر فى الضيقة ، الشكر على الضيقة .

الشكر فى الضيقة يدخل فى فضيلة الاحتمال أو فضيلة التسليم ، شاعرين أنها ضيقة ولكن نشكر عليها . لأنه إن كان الله قد رضى بها لنا ، فلماذا لا نرضى بها لأنفسنا ؟ ...

أما الشكر على الضيقة ، فمعناها محبة الضيقات ، والشعور بأنها بركة وليست ضيقة .

ومثال ذلك التلاميذ : الذين لما حبسوهم وجلدوهم ثم اطلقوهم «خرجوا فرحين لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا لأجل إسمه » (أع ٥ : ٤١) . ومن أمثلة هذا قول القديس يعقوب الرسول «احسبوه كل فرح يا أخوتى، حينما تقعون فى تجارب متنوعة » (يع ١ : ٢) .

طبيعى أن الذى يشكر على الضيقات ، لابد يشكر على النعم . وهنا نسأل :

اتراك تشكر على كل نعم الله ؟ أم أن هناك نعماً من الله خفيت عليك فلم تشكر عليها ، أو نسيتها فلم تذكرها ؟ ...

ما أكثر احسانات الله إليك التى لا تعرفها ! إنك ربما تشكر لأن الله نجاك من ضيقة معينة تعرفها ، ولكن هناك ضيقات أخرى كانت فى طريقها إليك ، ومنعها الله ...

ربما دسائس كانت مدبرة ضدك ، وأنت لا تدرى ، ومنعها الله فلم تحدث ، وأنت لا تدرى ، وهذه لا تشكر عليها ، عن عدم معرفة ...

ربما خطية كانت زاحفة إليك لتسقطك ، ومنعها الله من الوصول إليك . ربما شيطان كان سيغريك ليفنى إيمانك ، وانتهره الرب ، فلم يأت إليك اطلاقاً . وأنت لا تدرى ولا تشكر .

إن الله كما أمرنا أن نعمل الخير فى الخفاء ، هو أيضاً يفعل خيراً لأجلنا فى الخفاء .

والخير العلنى الذى يعمله معنا ، إنما لكى يشعرنا بمحبته ، فنحبه لأنه أحبنا قبلاً ... لذلك مهما شكرنا الله ، لا يمكننا أن نوفيه حقه من الشكر .

يكفى أنه جعلنا هياكل لروحه القدوس . وسمح لروحه أن يسكن فينا و يعمل فينا (١ كو٣ : ١٦ ؛ ١ كو٦ : ١٩) .

يكفى أنه سمح أن يكون لنا أباً ، ونكون نحن أبناء ... هذا الأمر الذى قاله عنه

القديس يوحنا الرسول «انظروا أية محبة أعطانا الآب، حتى ندعى أولاد الله» (١يو٣: ١).

إذن ليتنا نشكر على كل شيء: على النعم الروحية، وعلى النعم المادية. على النعم التى نراها، والتى لا نراها...

ونشكر على الضيقة أيضاً، لأن الضيقة هى أيضاً نعمة...

ربما تقول لنفسك: اشكرك يارب من أعماق قلبى على هذا المرض، لأنه قربنى إليك. جعلنى أعود إلى صلواتى، وجعلنى احاسب نفسى وألومها على خطاياها. واشكرك على المرض من أجل محبة الكثيرين التى تحيطنى بها فى مرضى...

واشكرك أيضاً على هذا المرض... لأنه أعطانى فرصة أخلو بك فيها، ولأنه أعطانى بركة الألم، واشعرنى بتقصيرى السابق فى زيارة المرضى. بل أعطانى بالأكثر الاستعداد لأبديتى... حقاً ما أكثر بركات هذا المرض. وما أحق أن أشكر عليه.



١ ـ احياناً لا نشكر، لأننا ننظر إلى النقط المضيئة فى حياتنا، بل نركز فى المتاعب وحدها.

تركيزنا فى المتاعب، يجلب لنا الحزن والقلق والتذمر والتشاؤم... وكل هذا لا يعطى طبعاً أى مجال للشكر...

وأنا أريدكم أن تبدأوا عامكم الجديد بفرح وبشاشة، لذلك تذكروا كل الأشياء المفرحة التى مرت بكم، واشكروا عليها.

٢ ـ ونحن أحياناً لا نشكر لأننا ننسب الأشياء المفرحة فى حياتنا، لغير الله.

إذا نجحنا ننسب ذلك إلى ذكائنا، أو إلى مجهود مدرسينا، أو إلى سهولة الامتحان. وتختفى معونة الله فى كل ذلك.

وكذلك إن شفينا ننسب ذلك إلى الأطباء. وإن وفقنا فى عملنا، ننسب ذلك إلى قدراتنا وكفاءتنا. وإن نجونا من حادثة، نرجع ذلك إلى مهارة السائق. وبالتالى يختفى الله من أسباب أفراحنا، فلا نشكره على شىء.

٣ - واحياناً لا نشكر على شىء، إلا إذا فقدناه أو حرمنا منه، لا نحس النعمة التى نحن فيها، إلا إذا ضاعت منا، فلا نشكر الله على وجود الوالدين ولا نشعر ببركتهما، إلا إذا توفى أحدهما. ولا نشكر على ما نحن فيه من صحة، ولا نعرف قيمتها إلا إذا مرضنا. بل لا نشعر ببركة وجود النور فى الحجرة، إلا إذا انقطع التيار الكهربائى.

٤ - واحياناً لا نشكر، لأن الأمر أصغر من أن نشكر عليه، أو هكذا نراه.

وهنا نتذكر قول أحد الآباء الروحيين «الذى لا يشكر على القليل، كاذب هو إن قال إنه يشكر على الكثير».

أو من الجائز أنه أمر طبيعى أو عادى، لا يستحق الشكر! ولماذا لا نشكر على الأمور الطبيعية الجميلة؟ لماذا لا نشكر الله على الطبيعة الجميلة؟

لماذا لا نشكره على الجو إن كان صحواً؟ هل ننتظر إلى أن يكفهر الجو، ثم نشعر أننا فقدنا شيئاً؟ وهنا وأقول فى عوائق الشكر.

٥ - إننا كثيراً ما نفرح بالنعمة. ونكتفى بالفرح دون أن نشكر...

نفرح بالخير الذى نحن فيه، دون أن نشكر على هذا الخير. كتلميذ يفرح بنجاحه، أو فتاة تفرح بخطوبتها، أو موظف يفرح بترقيته، دون أن يتقدم أحد هؤلاء بالشكر إلى الله...

إن الله ليس محتاجاً إلى شكرنا، ولكننا نحن نحتاج إلى ذلك. لماذا؟

لإننا بالشكر، نتذكر احسانات الله إلينا ومحبته لنا، فتزداد رابطتنا به عمقاً ونحبه، وهذا مفيد لنا روحياً. كذلك ندل بهذا الشكر على نقاوة قلوبنا، لأن عدم الشكر فيه عدم عرفان بالجميل، وعدم تقدير من أحبنا.

٦ ـ واحياناً نحن لا نشكر، لأننا لم نتعود ذلك فى حياتنا .

إن كنا لا نشكر أخوتنا البشر على خدماتهم لنا ، فطبيعى إننا قد لا نشكر الله أيضاً . وكما قال الرسول : إن كنت لا تحب أخاك الذى تراه فكيف تحب الله الذى لا تراه ؟ (١يو٤ : ٢٠) ونفس الكلام نقوله عن الشكر.

لذلك عود نفسك أن تشكر غيرك على كل أمر يعمله من أجلك مهما كان ضيئلاً . ثم بعد ذلك قل فى داخل نفسك : اشكرك يارب لأنك ارسلت لى من يساعدنى ، ومنحت هذا الإنسان قدرة على أن يخدمنى .

وهكذا تشكر الله والناس فى نفس الوقت . تشكر أخاك الإنسان لأنه كان العامل المباشر المرئى . وتشكر الله لأنه مهد كل هذا بطريقة غير مرئية لك .

٧ ـ وأحياناً نحن لا نشكر ، بسبب أنانيتنا ...

لا نفكر إلا فى ذاتنا ، فإن اخذت ، تكون قد اكتفت ، ولا تفكر فى اليد التى اعطتها . كإنسان جائع ، يوضع أمامه طعام ، فيأخذ فى إلتهامه ، دون أن يفكر فيمن قدمه له ، أو فى شكره على ذلك .

كذلك نحن ننشغل بذواتنا فى أخذها ، دون أن نتطلع إلى وجه المعطى .

كإنسان فتح له الله أبواب الرزق ، فتراه ينشغل بالرزق ، وبجمعه وتكويمه وإنمائه ، ولا يتفرغ ولو لحظة لكى يشكر من وهبه الرزق .

٨ ـ ونحن أحياناً لا نشكر ، لأننا ننسى :

ننسى العطية : وننسى المعطى ، وننسى الشكر ، ولو دربنا أنفسنا على الشكر ، لكان هذا التدريب يحفر فى ذاكرتنا أشياء لا ننساها :

منها إن كل خير نعيش فيه هو عطية من الله : الحياة ، والصحة ، والعمل ، والمال ، وكل شىء ... ومادام هو عطية إذن فلنشكر معطيها .

٩ ـ واحياناً لا نشكر بحجة أن ما نشكر عليه هو من الأمور الذاتية الشخصية ... وهنا نخلط بين الذات والمواهب ... فأنت تفكر حسناً ، ولا تشكر على موهبة

التفكير التى وهبك الله أيضاً حقاً منحك الذكاء والفهم . ولكنك لا تقول مع المرتل « مبارك الله الذى أفهمنى » .

لا تظن أن الذكاء شيء ذاتى . إنه موهبة من الله تحتاج إلى شكر . وكذلك موهبة أخرى كالشعر والموسيقى والجمال والقوة ...

وكذلك كل حياتك الروحية ...

١٠ ـ وأحياناً لا نشكر ، لأننا لا ندرك حكمة الله ...

أمور كثيرة تمر بنا ، ولا نشكر عليها ، بل على العكس قد نتضايق منها ، أو نتذمر بسببها . وكل ذلك لأننا لا ندرك حكمة الله فيها . ولو أدركناها لشكرنا الله كثيراً .

العيب فينا إذن . لنا عيون ولكنها لا تبصر الخير فى كل ما يمر بنا من أحداث ومن أمور ...

إن بيع يوسف الصديق والقاءه فى السجن ، كان وراءه خير، ربما لم يره يوسف فى ذلك الحين ولم يشعر عليه إلا بعد أن تم ...

١١ ـ وأحياناً نحن لا نشكر على خير ، بسبب المقارنة ... !

لا نشكر على ما أعطانا الله ، لأننا نرى أن غيرنا عنده أكثر منا ، أو ما هو أفضل ... أو لأن غيرنا أخذ مثلنا وهو لا يستحق ...

مثال ذلك : موظف فى شركة يتقاضى مرتباً ما كان يحلم به ، وهو أضعاف أضعاف مرتبات بعض زملائه فى وظائف عادية . ومع ذلك تراه لا يشكر الشركة ، لأن بعض موظفيها يأخذون مرتبات أكثر منه ... ! وبالتالى لا يشكر الله ...

قارن نفسك بمن هو أقل منك ، فتشكر الله . ولا تقارن نفسك بمن هو أعلى ، لئلا تتذمر .

كإنسان مليونير لا يشكر الله ، لأن هناك من هو أكثر منه فى الملايين ، كلما قارن نفسه به ، يتضايق ، و يشعر أن ما عنده قليل وتافه ، ولا يستحق الشكر اطلاقاً . وهذا يقودنا إلى نقطة مشابهة وهى :

١٢ ـ هناك من لا يشكر ، بسبب الطموح :

باستمرار له تطلعات أعلى من مستواه ، وله رغبات أكثر مما فى يديه ، وكلما اتجه إلى هذا الطموح ، استصغر ما عنده ، واصبح لا يشكر عليه .

والطموح فى حدود الاعتدال ، وفى عدم شهوة العالم ليس هو خطية ولكن...

ولكن الطموح لا يمنع الشكر. اشكر الله على ما معك، فيعطيك أكثر.

كذلك لا يجوز أن الطموح يجعلك تحتقر ما وهبك الله إياه. فإن كنت تطمح أن تكون استاذاً فى الجامعة، فليس معنى هذا أنك لا تشكر الله الذى جعلك فى هيئة التدريس ، وساعدك على الوصول إلى درجة استاذ مساعد...

كثيرون هم ضحايا الطموح الخاطىء وبسببه ينسون احسانات الله ، و يعيشون فى حزن وتذمر!

أما الطموح الروحى فليس له ضحايا ، إن عاش اصحابه فى حياة الاتضاع ، شاكرين الله ، وراغبين فى الامتلاء من حبه...

١٣ ـ واحياناً البعض لا يشكر ، لأن من طباعه التذمر، أو الجشع ، أو محبة العالم...

وهؤلاء يعيشون فى الخطية ، وليست لهم صلة بالله ، ولا يعترفون بفضله عليهم. إنما كل همهم هو متعة العالم. وكما قال الكتاب «كل الأنهار تجرى إلى البحر. والبحر ليس بملآن» (جا ١ : ٧).

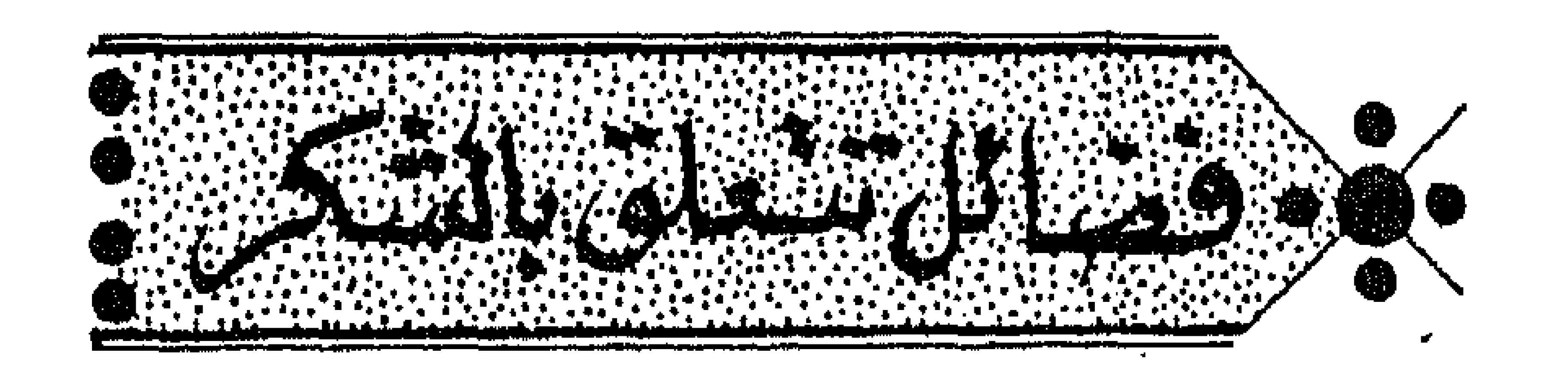
افرح بما فى يديك، واشكر الله. ولا تقل : ملء يدى لا يكفى. أريد أيضاً امتلاء جيوبى وخزانتى!

إن الطمع ، يمنع الشكر ، بلا شك وإن لم يتعود الإنسان حياة القناعة، فمن الصعب عليه أن يصل إلى حياة الشكر...

١٤ ـ واحياناً يكون عدم الشكر ، بسبب ضعف الحياة الروحية كلها .

فهذا الإنسان لا يشكر الله مثلاً، لأنه لا علاقة له بالله اطلاقاً. فلا شكر، كما أنه لا صلاة، ولا قراءة كتاب، ولا حضور اجتماعات روحية، ولا شركة مع الله فى شىء.

ويحتاج هؤلاء إلى أن يدخلوا فى الحياة مع الله. وحينئذ، حينما يشكرون الله الذى أعطاهم فضل معرفته، سيشكرونه على باقى الأمور.



إن الفضائل يرتبط بعضها بالبعض الآخر، كما أن الخطايا ترتبط ببعضها البعض.

فالشكر يرتبط بالقناعة. والذين يعيشون فى القناعة دائماً يشكرون.


والشكر يرتبط بالتواضع. فالإنسان المتواضع يشعر أنه لا يستحق شيئاً، لذلك يشكر على كل شىء مهما كان قليلاً.

والشكر يرتبط بالإيمان. فالإنسان بالإيمان يثق أن الله حافظ ومعين ومحب. وأنه يحول كل شىء إلى خير. لذلك يشكر على كل شىء.

والشكر يرتبط بالفرح والسلام. إنهما وليدان له. فكلما يشكر يمتلىء قلبه سلاماً وفرحاً. وكذلك إن كان فى قلبه سلام وفرح، فحينئذ سيشكر.

والإنسان الشاكر، بالشكر ينجو من أمراض ومشاكل كثيرة تحيط بالمتذمرين غير الشاكرين.

فلنبدأ هذا العام بالشكر. وليكن عاماً سعيداً لنا، ولكنيستنا ووطننا. وكل عام وجميعكم بخير.



الباب الضيق .

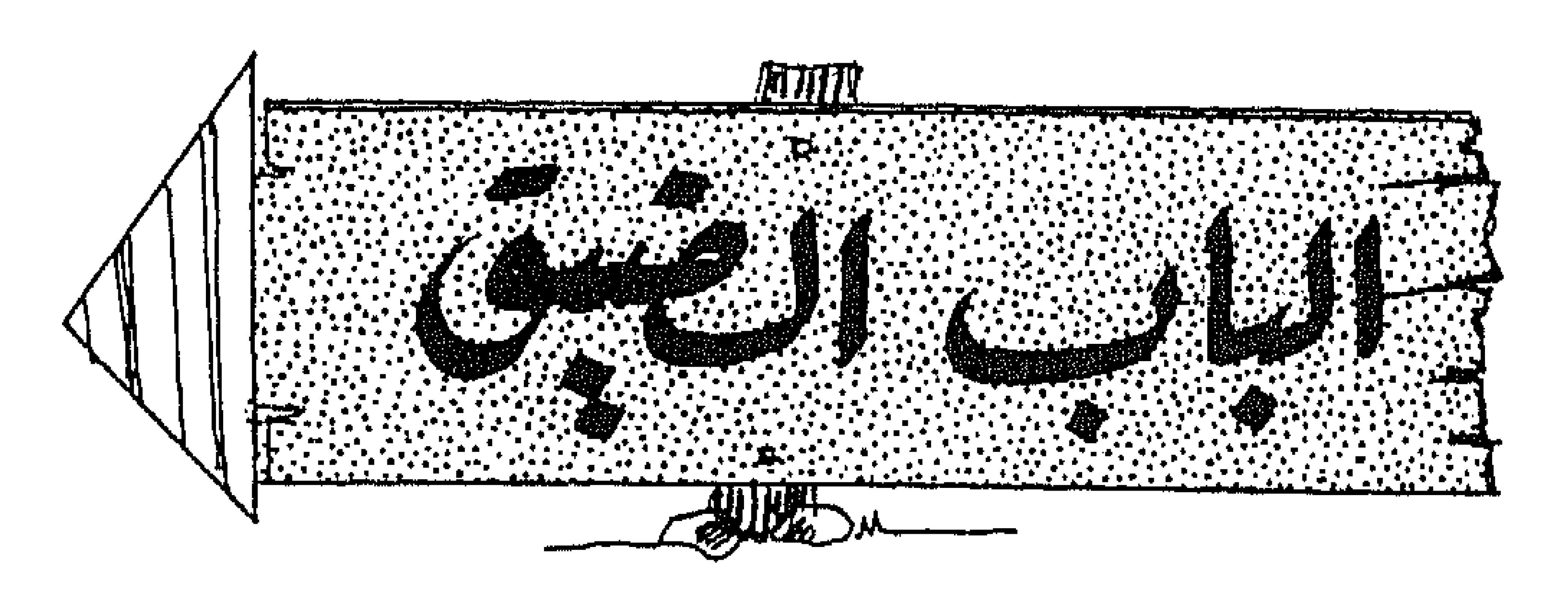
ما هى هذه الضيقات ؟

إنكار الذات .

التعب من أجل الرب .

الباب الضيق للكل .

تقييم الضيق .



من علامات الطريق الروحى آن تدخله من الباب الضيق . وهذا هو تعليم الرب نفسه :

« ادخلوا من الباب الضيق ... ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه » (متى ٧ : ١٣ ، ١٤) .

إذن من علامات الطريق أن تتعب من أجل الرب . وأن تبذل . وأن تحتمل ، ولا تبحث عن راحتك هنا ... وأن تسلك فى طقس لعازر المسكين . وليس زميله الغنى ...

والضيقات التى تحتملها هى علامة على أنك جاد فى محبة الله . وأنك مستعد لبذل كل شيء لأجله ...

حياتك كلها على الأرض هى مجرد اختبار لك : هل أنت تفضل روحياتك وأبديتك وعلاقتك بالله على كل شيء آخر؟ وهل أنت مستعد أن تدفع الثمن ؟ هنا تبدو الضيقة كاختبار لك فى مدى تمسكك بالرب ...

وهنا تبدو الضيقة كضرورة اختبارية وكعلامة أساسية فى الطريق الروحى . لأنه بأى حق تكافأ فى السماء وتنال الأكاليل ؟ .. إن كنت قد عشت فى نعيم على الأرض . وتريد أن تنال الحياتين معاً . متعة على الأرض ومتعة السماء !! ألست تتعرض بذلك لقول أبينا ابراهيم « أنك استوفيت خيراتك فى حياتك » (لو١٦ : ٢٥) .

لذلك إن سلكت فى طريق الله ، ووجدت كل شيء سهلاً أمامك ، وأنت فى راحة دائمة ، بلا ضيقات ولا تعب ، إسأل نفسك : هل أنا قد ضللت الطريق ؟!

قطعاً أكون قد ضللت لأن طريق الرب ليس هكذا سهلاً و بلا تعب . ألا يوجد شيطان

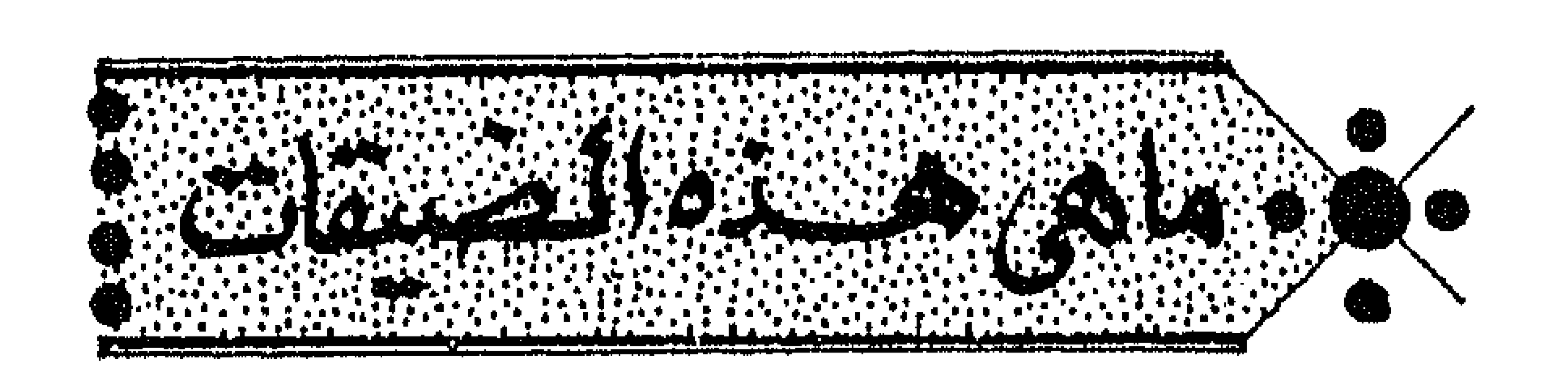
يحارب ؟ ألا توجد عوائق من العالم ومن المادة والجسد ؟ ألا توجد مقاومة من أعداء الخير ؟!

من غير شك لو كانت تصرفاتى لا تعجب الشيطان ، ما كان يتركنى مطلقاً فى راحة ! إذن لماذا هو ساكت عنى ؟!

إنها مسألة تدعو إلى الشك..! ثم من من القديسين عاش حياته كلها فى راحة وبلا تعب ؟ لا أحد على الإطلاق. كل القديسين قد دخلوا من الباب الضيق من أجل محبتهم لله «ووهب لهم لا أن يؤمنوا به فقط ، بل أن يتألموا أيضاً من أجله» (فى ١ : ٢٩).

لذلك فإن هذه الضيقات والآلام إنما تهمس فى أذنك قائلة : اطمئن ... أنت سائر فى الطريق السليم ...

وهكذا تفرح وتسر وتطمئن كلما رأيت ضيقة فى طريق الرب. لأنه هكذا هى علاماته ... ولكن :



هى أولاً مقاومة هذا الجسد المادى لرغبات الروح «لأن الجسد يشتهى ضد الروح ، والروح ضد الجسد» (غل ٥ : ١٧).

وهكذا يدخل الإنسان الروحى فى صراع لاخضاع الجسد. وكما قال القديس بولس الرسول : «أقمع جسدى واستعبده» (١كو٩ : ٢٧)... وهذا القمع قد يطول عند البعض وقد يقصر. حسبما تكون حربه قوية أو ضعيفة ...

اخضاع الجسد باب ضيق تدخل منه ، وله تداريب روحية كثيرة ...

ولعلنا نذكر أن أبوينا الأولين آدم وحواء لم يدخلا من هذا الباب حينما أكلا من الشجرة. وعيسو أخو يعقوب لم يدخل من هذا الباب حينما باع بكوريته

(تك ٢٥ : ٣٤) .. وكذلك رفض بنو اسرائيل الدخول من هذا الباب حينما تذمروا على الطعام السمائى واشتهوا أن يأكلوا لحماً (عد ١١ : ٤) .

وعكس كل هؤلاء أفلح دانيال النبى حينما وضع فى نفسه أن لا يتنجس بأطياب الملك وفضل أن يأكل القطانى هو والثلاثة فتية (دا ١ : ٨ ، ١٢) .

لهذا دخل الروحيون فى تدريب الصوم - أيضاً فى تدريب السهر ، بالصوم قاوموا شهوة الجسد فى الأكل ، وبالسهر قاوموا شهوته فى الراحة والنوم . وحفظوا أنفسهم ساهرين فى عمل الصلاة والتأمل .

ولم يقتصروا فى الصوم على مظهرياته . وإنما اهتموا قبل كل شىء باخضاع الجسد . لكى يشترك مع الروح فى عملها .

واشركوا الجسد فى عمل الروح القدس أيضاً بالمطانيات « السجود المتتابع » لكى يخشع الجسد كما تخشع الروح و يشترك معها فى الخضوع لله وتمجيده وهكذا يقدم العبادة لله . الإنسان كله روحاً وجسداً ...

ومن أهم النقاط فى اخضاع الجسد الحفاظ على طهارته وعفته .

إن الذين يسلكون فى شهوات الجسد إنما يدخلون من الباب الواسع باب المتعة الجسدية التى قال فيها سليمان « ومهما اشتهته عيناى لم أمنعه عنهما » (جا ٢ : ١٠) .. هذه المتعة التى يرفضها الروحيون ، وهم يقاومون حتى الدم مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .

وفى اخضاع الجسد ، مما يقاومه الروحيون أيضاً : متعة الحواس ..

الحواس التى تريد أن تشبع رغباتها فى النظر والسمع والمذاق ... فيكبح الروحى جماحها . و يسيطر عليها . و يتحكم فيها . وهكذا يجاهد . ولا يعطى الجسد راحته . بل كما قال الرسول : « **كل من يجاهد ، يضبط نفسه فى كل شىء** » (١كو ٩ : ٢٥) .

وضبط النفس هو دخول من الباب الضيق . فالشخص العادى يحاول أن يمتع

نفسه . أما الإنسان الروحى فإنه يراقب هذه النفس . و يضبطها حسناً . و يقمع جسده و يستعبده . وكذلك نفسه . ولا يستسلم لرغباتها ولا لشهوات الجسد .

فالرسول قد اعتبر شهوة الجسد جزءاً من محبة العالم (١يو٢ : ١٦) ومحبة العالم عداوة لله (يع ٤ : ٤).

إذن فمن علامات الدخول من الباب الضيق . كبح شهوات الإنسان حتى لا تنحرف . والدخول إيجابياً فى محبة الله وشهوة ملكوته . واعداد الجسد بما يليق كهيكل للروح القدس (١كو٦ : ١٩).

وماذا أيضاً من علامات الباب الضيق ؟ ...



قال السيد المسيح فى ذلك .. إن أراد أحد أن يأتى ورائى . فلينكر نفسه ويحمل صليبه و يتبعنى .. (متى١٦ : ٢٤).

يضع الله أولاً ، فى قمة اهتمامه . والناس ثانياً ، ونفسه آخر الكل .

لاشك أنه باب ضيق أن ينكر الإنسان نفسه و يتجاهلها فى كل شيء . يحتمل اللطمة على خده . فيحول الآخر.. وإن سخره أحد ميلاً . يمشى معه ميلين . وإن اراد أحد أن يخاصمه و يأخذ ثوبه . يترك له الرداء أيضاً (متى٥ : ٣٩- ٤١).

إن احتمال الاساءة والمغفرة للمسيء ربما لا تكون أمراً سهلاً على كثيرين ... فكم بالأولى تكون محبة الأعداء والإحسان إلى المبغضين (متى٥ : ٤٤).

الإنسان الروحى يحتاج أن يحتمل كل شيء . و يتنازل عن اشياء كثيرة و يرتفع فوق المستوى العادى و يبغض نفسه من أجل الرب الذى قال ... من يهلك نفسه من أجلى يجدها .. (متى١٦ : ٢٥).

إن الأمر ليس سهلاً على المبتدىء فى الطريق الروحى . وقد يتضايق أولاً إلى أن يدرب نفسه على الحب الكامل . وما أصدق قول الكتاب :

« بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله ... » (أع ١٤ : ٢٢) .

يحتاج من يسير فى طريق الله أن يصعد على الصليب باستمرار ، حسبما قال الرب « يحمل صليبه و يتبعنى » . وفى هذا قال القديس بولس الرسول « مع المسيح صلبت ، لكى أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فىَّ » (غل ٢ : ٢٠) .

ما أعمق عبارة « لا أنا » ... لا يستطيع أن يقولها إلا الذى دخل من الباب الضيق ...

على الذى تدرب أن يختفى دائماً لكى يظهر الرب ، ولكى يظهر باقى الناس .

و يقول « لا أنا » أيضاً الإنسان المتواضع الذى فى كل موقف يصر أن يكون آخر الكل وخادم الكل ، ويجلس دائماً فى المتكأ الأخير، كما قال الرسول « مقدمين بعضكم بعضاً فى الكرامة » (رو١٢ : ١٠) .

يقول « لا أنا » الإنسان الوديع المتواضع ، الذى يكون مقتنعاً تماماً داخل نفسه أنه لا شىء ... !

ومن يقدر على هذا إلا الذى يدخل باستمرار من الباب الضيق .. لا يقيم رأيه فى أمر من الأمور، وعلى فهمه لا يعتمد « أم٣ : ٥) .

يفضل غيره على نفسه فى كل شىء و يضع نفسه تحت الكل .. لا يقاوم ولا يكون حكيماً عند نفسه .. (رو١٢ : ١٦) .

و يدين نفسه لكى يبرىء غيره . يحمل خطايا الآخرين . ليكونوا هم أبرياء وهو المذنب . وفى عمق محبته يفدى الكل كما فعل المسيح .

وماذا عن الباب الضيق أيضاً؟ إنه يشمل بلا شك ...



يتعب فى تنفيذ الوصايا التى قد تبدو صعبة فى تنفيذها ...

ويتعب من أجل راحة الآخرين : ولنأخذ مثلاً لذلك موسى النبى : كان من السهل عليه جداً أن يبقى فى بيت فرعون كأمير يتمتع بالجاه والغنى والمركز. ولكنه حسب عار المسيح غنى أفضل من جميع خزائن فرعون.. وماذا أيضاً؟ إنه .. « فضل أن يُذل مع شعب الله ، عن أن يكون له تمتع وقتى بالخطية » (عب ١١ : ٢٥).

وكنبى وراع . تعب كثيراً فى قيادة شعب صلب الرقبة . واحتمل من هذا الشعب التذمر والعصيان. وحمل هذا العبء زماناً طويلاً بصدر رحب يحتمل أخطاء الآخرين.

كل الأنبياء ، وكل الرعاة والخدام تعبوا من أجل الرب .

إننا نمجدهم الآن. ولكنهم فى عصرهم عاشوا فى ضيقات مريرة . خذوا مثالاً لذلك القديس أثناسيوس الرسولى الذى دافع عن الإيمان بقوة وبفهم عميق.. قيل له فى بعض الأوقات « العالم كله ضدك يا أثناسيوس ».

وخذوا مثالاً آخر هو القديس بولس الرسول بالنسبة إلى باقى الرسل « فى الأتعاب أكثر، فى الضربات أوفر.. فى السجون أكثر. فى الميتات مراراً كثيرة... فى تعب وكد ، فى أسهار.. فى جوع وعطش . فى أصوام مراراً كثيرة ، فى برد وعرى ... (٢كو١١ : ٢٣-٢٧).

وقال هذا القديس عن نفسه وعن زملائه فى الخدمة وفى الضيق :

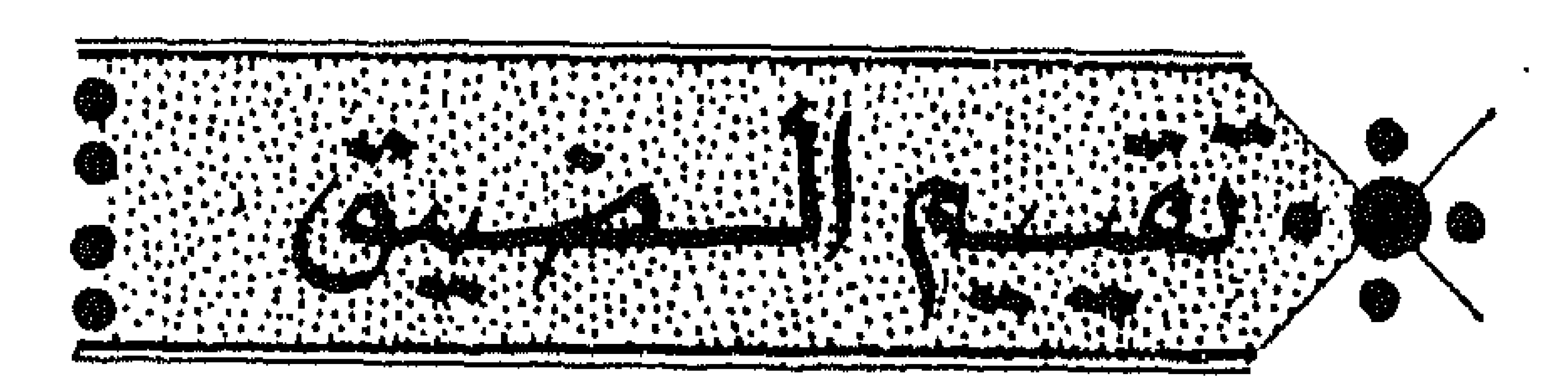
« فى كل شىء نظهر أنفسنا كخدام الله ، فى صبر كثير، فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات فى ضربات ، فى سجون فى اضطرابات ، فى أتعاب فى أسهار فى أصوام .. بمجد وهوان ، بصيت ردىء وصيت حسن » (٢كو٦ : ٤ - ٨) ... « مكتئبين فى كل شىء لكن غير متضايقين .. متحيرين لكن غير متروكين .. حاملين فى الجسد كل حين إماتة الرب يسوع » (٢كو٤ : ٨- ١٠).

وهنا ملاحظة نريد أن نسجلها وهى أن قاعدة « الباب الضيق » هى للكل ، لكل مؤمن مهما علا مركزه ...

الباب الضيق للكل

حتى القديسة العظيمة العذراء مريم اطهر أهل الأرض كلها . دخلت هى الأخرى من الباب الضيق . فعاشت فى يتم وفى فقر : وولدت إبنها فى مزود بقر . وتغربت عن بلادها .. وتحملت الآلام الكثيرة وهى ترى إبنها وحيدها مظلوماً من الناس . ومصلوباً وهو القدوس الكامل . وتحقق فيها قول سمعان الشيخ « وأنت أيضاً يجوز فى نفسك سيف » (لو٢ : ٢٥) . وكما جازت العذراء فى الضيقة ، اجتازها أيضاً القديس يوحنا الرسول أحب تلاميذ الرب إليه . سجن وجلد مع باقى الرسل ونفى .

وكل الشهداء والمعترفين دخلوا هم أيضاً من الباب الضيق ، لذلك رفعتهم الكنيسة فوق كل القديسين . وفى كل عذاباتهم وآلامهم برهنوا على عمق محبتهم للرب . فكافأهم فى كورة الأحياء بمكانة أعلى من أن توصف .




إن الله لا ينسى مطلقاً أى تعب أو ضيق يحتمله مؤمن من أجله .

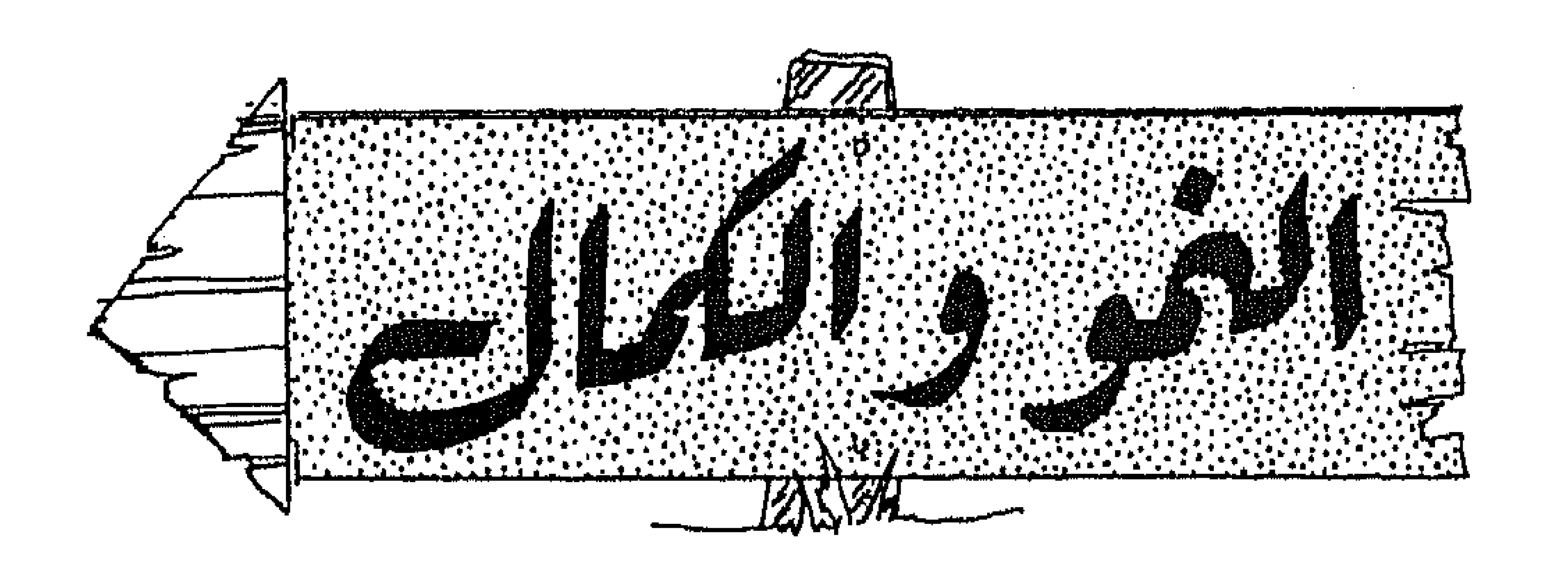
إنه يقول حتى لملاك كنيسة أفسس الذى ترك محبته الأولى : « أنا عارف أعمالك وتعبك وصبرك .. وقد احتملت ولك صبر ، وتعبت من أجل إسمى ولم تكل » (رؤ٢)

وبقدر ما يتعب الإنسان هنا على الأرض ، تكون مكافأته فى الأبدية السعيدة . كما قال الرسول : « إن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً » (٢كو٤ : ١٧) . وقال أيضاً « إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا » (رو٨ : ١٨) .

لهذا كان الذين لا يصادفهم ضيق من أجل الرب ، يضيقون هم على أنفسهم ، فى جهادهم من أجله وفى عملهم الروحى .

نقطة هامة أخرى أقولها عن الباب الضيق وهى : أن الباب الضيق قد يكون ضيقاً فى أوله فقط ، ثم ما يلبث الإنسان الروحى أن يتعوده ويجد فيه لذة روحية


الفصل الثالث عشر :
رحلة نحو الكمال
النمو والكمال
عوائق النمو
١ - حروب الشياطين .
٢ - البيئة المعطلة .
٣ - الإكتفاء في الروحيات .
٤ - الإرشاد الخاطىء .
٥ - التقليد الخاطىء .
٦ - الكبرياء .
٧ - تدبير النعمة .
٨ - التحول إلى الإداريات .
٩ - الإهتمام بالفضائل الظاهرة .
١٠ - الفهم الخاطىء .



يظن البعض أنهم قد وصلوا إلى الله حينما يتركون الخطية ، و يسيرون فى الطريق الروحى .

ولكن ترك الخطية ، إنما يمثل فقط الجهاد السلبى فى الحياة الروحية ، فماذا إذن عن الإيجابيات ؟... إنها طريق طويل...

لذلك فالحياة الروحية لا تقف مطلقاً عند حد . إنها سائرة باستمرار. تنمو فى كل حين وتتقدم . وهكذا تكون حياة النمو هى إحدى خصائص ومعالم الطريق الروحى...

بماذا شبهها السيد المسيح ؟ إنه يشبه ملكوت السموات بإنسان « يلقى البذار على الأرض ، و ينام و يقوم ليلاً ونهاراً ، والبذار يطلع و ينمو... أولاً نباتاً ، ثم سنبلاً ، ثم قمحاً ملآن فى السنبل » (مر ٤ : ٢٦ - ٢٨) .

وهكذا شبه الإنسان الروحى بالشجرة التى تنمو باستمرار ولا تتوقف لحظة واحدة عن النمو...

والشجرة تنمو بطريقة هادئة ، ربما لا تلحظها وأنت تمر عليها كل يوم . ولكنها تنمو باستمرار ، و يظهر نموها بعد حين... وقد قيل **« الصديق كالنخلة يزهو . كالأرز فى لبنان ينمو » (مز ٩٢ : ١٢) .**

إنه ينمو فى كل عناصر الحياة الروحية ، ينمو فى معرفة الله وفى محبته . و ينمو فى حياة النقاوة وفى الصلاة والتأمل .

ونلاحظ هنا ملاحظة هامة وهى :

الذى لا ينمو ، هو عرضة للفتور ، بل عرضة لأن يرجع إلى الوراء

إنه كالسيارة التى طالما هى سائرة تكون محتفظة بحرارتها . فإن وقفت ، وقفت حرارتها أيضاً . كذلك السير الدائم فى الحياة الروحية ، يعطى حرارة للقلب ، تشمل كل العلاقة مع الله والناس .

ولكن إلى أين يمتد الإنسان الروحى فى نموه ؟ إنه يمتد نحو القداسة ، كما قال القديس بطرس الرسول :

« بل نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين » (١بط ١ : ١٥) .

إنها إذن دعوة عامة إلى القداسة . وهذا هو المستوى الذى يريده الرب لنا . وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول :

« كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه فى المحبة » (أف ١ : ٤) .

المسألة إذن ليست مجرد توبة ، وإنما هى حياة قداسة تليق بالمؤمنين . بل إن كلمة قديس كانت تطلق على المؤمنين فى العصر الرسولى ، كما يقول بولس الرسول فى آخر رسالته إلى فيلبى التى كتبها من رومة :

« سلموا على كل قديس فى المسيح يسوع ... يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين من بيت قيصر » (فى ٤ : ٢١ ، ٢٢) .

فهل أنت تعيش فى هذه القداسة ، وأصبحت عضواً مع جميع القديسين ؟ أم مازلت تقوم وتسقط ، وتتردد بين الحياة مع الله والحياة مع العالم ؟ .

إن القداسة ليست معينة لأفراد قلائل فى القمة ، إنما هى هدف الجميع « مكملين القداسة فى خوف الله » (٢كو٧ : ١) . لأنه « هذه هى إرادة الله : قداستكم » (١تس ٤ : ٣) .

و فى عظة الرب على الجبل ، اشترط النقاوة لكى ترى الله فى الأبدية ، فقال :

« طوبى لأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) .

فهل وصلت إلى النقاوة والقداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب ؟ .

ولعلنا نقول هنا أيضاً إن القداسة وحدها لا تكفى ، بل لابد من النمو أيضاً فى القداسة حتى يصل الإنسان الروحى إلى الكمال .

والمقصود طبعاً هو الكمال النسبى ، لأن الكمال المطلق هو لله وحده . إنما الكمال النسبى هو الكمال الذى يستطيع الإنسان أن يصل إليه فى حدود إمكانية ونسبة إلى ما وهبه الله له من نعمة ، وما تحيط به من ظروف . وعن هذا الكمال قال الرب :

« كونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (متى ٥ : ٤٨) .

إذن يلزمك فى حياتك الروحية ، أن تنمو فى النقاوة والقداسة حتى تصل إلى الكمال ، إلى كمال قدرتك ، إلى كمال السيرة حتى تعود إلى الصورة الإلهية التى سبق الله فخلقك عليها (تك ١ : ٢٧) .

ولكن من هذا الذى يستطيع أن يصل إلى الكمال ؟ .

إن كنت لا تستطيع ، فمهما فعلت ومهما جاهدت فى حياة الروح ، قف أمام الله كخاطىء ومقصر ، لأنك مطالب بالكمال بينما أنت بعيد عنه هذا البعد .

ولهذا عندما كان القديسون يقولون عن أنفسهم إنهم خطاة ، لم يكن ذلك منهم نوعاً من المبالغة أو من التواضع إنما قالوا ذلك لشعورهم بالتقصير أمام الكمال المطلوب ...

ولما كان الكمال غير محدود ، لذلك كان النمو الروحى غير محدود أيضاً .

لقد شبهت فيه الإنسان الذى يسعى إلى الكمال ، بإنسان يطارد الأفق ...

يقف فيرى الأفق بعيداً ، حيث تنطبق أمامه السماء على الأرض . فيذهب إلى هناك ، فيرى الأفق أمامه عند النهر ، فيذهب إلى النهر و يعبره ، ليرى الأفق إمتد إلى الجبل ... وهكذا إلى غير نهاية ...

مادام الأمر هكذا ، فتأمل إذن قول الرب فى الإنجيل :

« متى فعلتم كل ما أمرتم به ، فقولوا إننا عبيد بطالون » (لو١٧ : ١٠) .

وقد أمرنا فى الكتاب بوصايا عديدة جداً لم نفعلها حتى الآن ... وحتى إن كنا قد نفذنا جميع الوصايا ، فواجب أن نقول إننا عبيد بطالون « لإننا إنما عملنا ما كان يجب علينا » (لو١٧ : ١٠) ، ولم نتجاوزه إلى الكمال ...

صدقونى أنّ درجة [عبيد بطالين] هى درجة كبيرة لم نصل إليها بعد .

لاشك أن الطريق طويل أمامنا ، ولم نسر فيه شيئاً . ونحن محتاجون بكل اتضاع القلب أن نبدأ .

وهناك آية أخرى فى الكتاب وقفت أمامها منذهلاً ، وهى قول القديس بولس الرسول فى رسالته إلى أفسس « وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة ، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو » .

« وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة ، لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله » (أف٣ : ١٨ ، ١٩) .

يعلم الله أننى لا أزال واقفاً أمام هذه الآية منذهلاً ، لم أصل بعد إلى شىء من أعماقها العجيبة . وسأحاول أن ارجع إلى تأملات الآباء فيها ، لعلى أعرف . فإن وصلت إلى شىء سأخبركم لأن ههنا الروح يعمل ، وليس العقل ولا الفكر...

هذا الامتلاء ، من ذا الذي يمكنه أن يصل إليه ؟... مطلوب منا جميعاً ، كما يأمرنا الرسول قائلاً فى نفس الرسالة **« امتلئوا بالروح » (أف ٥ : ١٨) .**

لقد قال فى موضع آخر « اسلكوا بالروح » (غل ٥ : ١٦) . ودعانا أن نكون لنا ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . ولكن هنا درجة أكبر يجب أن نصل إليها فى نمونا وهى الامتلاء بالروح ...

إذن فالطريق طويل أمامنا ، ويحتاج إلى جدية كبيرة للسير فيه .

يحتاج الإنسان الروحى أن يجتاز مرحلة التوبة ، إلى مراحل النقاوة والقداسة ، إلى الدخول فى العلو والعمق ، وإلى معرفة المسيح الفائقة المعرفة . و ينتقل من السلوك بالروح ، إلى كل ثمار الروح ، إلى الامتلاء بالروح ... إلى الكمال ...

لهذا نرى القديس بولس الرسول يقول : «**ليس أنى قد نلت أو صرت كاملاً ولكننى اسعى لعلى أدرك**» (**فى ٣ : ١٢**).

بولس الرسول الذى صعد إلى السماء الثالثة ، إلى الفردوس (٢كو١٢ : ٤) الذى تعب أكثر من جميع الرسل الاثنى عشر، وسافر وبشر وكتب اربع عشرة رسالة، وألقى فى السجون وتعذب من أجل الرب، وصنع آيات كثيرة، وكانت له كثرة من الاستعلانات، وتكلم بألسنة أكثر من الكل، يقول أخيراً «لست أحسب أننى قد أدركت. ولكننى أفعل شيئاً واحداً» ونسأله ما هو، فيجيب :

«**أنسى ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام ...**» (فى ٣ : ١٣).

ينسى كل هذه المواهب الفائقة، وينسى كل هذا التعب فى الخدمة، وينسى اختطافه إلى السماء الثالثة ، ويسعى نحو الغرض، يسعى لعله يدرك... يدرك ماذا ؟ يدرك «جعالة دعوة الله العليا فى المسيح يسوع» (فى ٣ : ١٤). يدرك هذا الامتلاء العجيب ...

لذلك فإنه ينصحنا قائلاً «**اركضوا لكى تنالو**» (**١كو٩ : ٢٤**).

ويقول معنا «وأنا أركض هكذا» (١كو٩ : ٢٦). ويقول أيضاً «فليفتكر هذا جميع الكاملين منا» (فى ٣ : ١٥).

إذن هى دعوة ليست للاشخاص العادين فقط، بل للكاملين أيضاً... دعوة للجميع أن يسعوا نحو الغرض، لكى يدركوا ...

هناك درجة أخرى موضوعة أمامنا كأولاد لله، وكلنا ندعى أننا أولاد الله يقول القديس يوحنا الرسول :

«**كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية**... ولا يستطيع أن يخطىء، لأنه مولود من الله» (١يو٣ : ٩).

ويقول فى ذلك أيضاً «كل من ولد من الله لا يخطىء. بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه» (١يو٥ : ١٨).

فهل وصلت إلى هذا المستوى الذى لا يستطيع فيه أن تخطىء ، والشرير لا يمسك ؟ هنا مستوى خاص ، ليس هو مقاومة الخطية والجهاد معها والانتصار عليها ، إنما مستوى إنسان قديس لا يستطيع أن يخطىء ...

من وصل إلى هذا الكمال ؟

ومع ذلك لا أريد فقط أن أقدم لك مستويات العهد الجديد بكل ما تحمل من سمو، إنما انتقل بك إلى وصية فى العهد القديم وهى :

« تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك » (تث ٦ : ٥).

من ذا الذى قد وصل إلى محبة الله من كل القلب . وعبارة [كل] تعنى أنه لا يوجد فى القلب شىء سوى الله ... لا توجد أية محبة أخرى فى القلب تنافس محبة الله . ولاشك أن هذا يعنى الموت الكامل عن العالم ، ويعنى التجرد ، وامتلاء القلب بمحبة الله ...

فهل بدأت هذا الطريق ؟ .

هل بدأت بمخافة الله التى هى الخطوة الأولى الموصلة إلى المحبة ؟

وذلك كما يقول الكتاب « بدء الحكمة مخافة الرب » (أم ٩ : ١٠) . ومخافة الرب تعنى طاعته والخضوع لوصاياه . وبهذا تصل إلى محبة الله وتدخل إلى ملكوته . يقول الكتاب فى هذا : **« ملكوت الله داخلكم » .**

فهل تشعر بهذا الملكوت داخلك ؟ وهل بدأت حالياً بمذاقة الملكوت ؟ هل أخذت عربونه فى حياتك الحاضرة ، حتى تتمتع بملئه فى العالم الآخر ؟ .

ابدأ إذن بمذاقة الملكوت .

وحينما تصلى وتقول « ليأت ملكوتك » اطلب أن يأتى ملكوته على كل قلبك وكل فكرك ، وعلى حواسك وجسدك ومشاعرك . وحينئذ تغنى وتقول « الرب قد ملك » (مز ٩٦) .

ولكن لعلك تسأل بعد كل هذا ؟ ماذا أفعل والطريق طويل أمامى ؟

الأمر لا يأتى باليأس ولا بالحزن ، ولا بعبارة [إذن لا فائدة منى] ...

كل هذه حيل من الشيطان ، يريد بها أن يوقعك فى صغر النفس ، حتى تبطل الجهاد يائساً ، أو تشعر بثقل الحياة مع الله . إنما أهم نصيحة توجه إليك هى :

إن اطول طريق أوله خطوة . إبدأ إذن بهذه الخطوة .

ابدأ بهذه الخطوة ، مهما كانت قصيرة ، ومهما كانت ضعيفة ، ومهما كانت فاترة . وحينئذ عندما يرى الله رغبتك فى الحياة معه ، سيرسل لك معونات إلهية من عنده ، وتفتقدك نعمته ، و يعمل فيك روحه القدوس بكل قوة .

والله الذى عمل فى القديسين وأوصلهم هو قادر أن يعمل فيك ...

لكن نعمة الله ليست تشجيعاً لك على الكسل ، وعلى التهاون والإهمال إنما هى تعمل معك . و بهذا تدخل فى شركة مع الله ، فى العمل لأجل ملكوته ... ملكوته فيك وفى غيرك .

الله قادر أن يرفعك دفعة واحدة ، كما فعل مع بعض قديسى التوبة ...

كما عمل مع أوغسطينوس ، الذى نقله من عمق الخطية ، إلى عمق التأمل فى الإلهيات ، وإلى عمق محبة الله ...

وكما عمل مع مريم القبطية التى أخذها من الدنس إلى الرهبنة وإلى السياحة فصارت من القديسات العظيمات .

وإن اراد لك الله التدرج فى حياة الروح ، فلتكن مشيئته .

هكذا فعل مع القديس موسى الأسود إذ قاده تدريجياً إلى التوبة . و بالتدريج منحه الفضائل الروحية . ونزع منه قساوة القلب ، ومنحه محبة لجميع الناس ، ووداعة عجيبة وتواضع قلب وصار إنساناً آخر .

المهم إذن أن تقدم قلبك لله ، لكى يملأه الله بمحبته .

قل له : أنا يارب غير قادر أن أصل إلى محبتك ، إذ توجد محبات أخرى عالمية ومادية وجسدية تجتذبنى وأنا ضعيف أمامها . لذلك أريد أن تمنحنى محبتك كعطية مجانية من عندك كمجرد هبة ، كما يقول الرسول :

« لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو ٥ : ٥).

وفى نفس الوقت الذى تطلب فيه أن يعمل الله معك ، اعمل أنت أيضاً معه ، أعمل بكل ما تستطيع ، ولا تكسل مطلقاً فى روحياتك ، وكن جاداً . افتح قلبك لكى يملأه الله . واحرص ألا تفتحه لمحبة خاطئة .

وابعد بكل جهدك عن كل ما يبعدك عن الله ...

والقليل الذى تقدمه إلى الله ، سيقبله كما قبل فلسى الأرملة ، ويكون عزيزاً عنده .

إن الله يعرف تماماً مقدار امكانياتك ولا يطالبك بأكثر منها . بل سيبارك فى هذا القليل الذى لك ليصير كثيراً ، ويمنحك امكانيات أكثر ، تصل بها إلى أعماق أكثر.

وهكذا يقودك خطوة خطوة إلى حيث يريد لك بنعمته . لا تنظر إذن إلى نهاية الطريق وتيأس . إنما انظر إلى هذه الخطوة الواحدة ، كيف تخطوها حسناً ...

وكلما كنت أميناً على القليل ، سيقيمك الله على الكثير ، حسب وعده الصادق .

أما كيف تكون أميناً فى القليل ، فهذا ما أود أن أحدثك عنه بالتفصيل فى مناسبة أخرى إن شاء الله .



تكلمنا فى المقال السابق عن النمو فى الحياة الروحية ، ولزومه ، وكيف أنه علامة مميزة للسير السليم فى الطريق الروحى .

وقلنا فى هذا المجال إن النمو الروحى هو رحلة إلى الكمال .

و يهمنا الآن أن نسأل :

هل كل إنسان ينمو فى روحياته ؟ وهل كل نمو روحى يستمر ؟

الواضح تماماً أن النمو يتعطل أحياناً بالنسبة إلى كثيرين ، فيتوقفون عند درجة معينة فى حياتهم الروحية . بل ربما يرجعون أحياناً إلى الوراء . فما هو السر فى كل هذا ؟ وما هى العوائق التى تقف أمام النمو الروحى .

العوائق تختلف من شخص لآخر.

ولكننا سنحاول فى هذا المقال أن نتحدث عن كثير من العوائق العامة التى تقف فى طريق النمو. ونذكر منها .



إن الشيطان لا يقف ساكناً إن وجد إنساناً يمتد إلى قدام باستمرار فى طريقه الروحى ، فلابد أن يقف ضده .

ويسمى هذا أحياناً حسد الشياطين .

إنهم يحسدون الذين يتقدمون فى محبة الله ، لأنهم أى الشياطين قد فقدوا هذه الصلة الجميلة بالله ، وفقدوا ملكوته .

لهذا فإنهم يحاربون ليس فقط النمو الروحى ، إنما الطريق الروحى كله ، لذلك يقول سفر يشوع بن سيراخ .

يا ابنى إذا تقدمت لخدمة ربك ، فهيىء نفسك لجميع التجارب ...

والكنيسة تورد هذا الفصل وهذه الآية فى طقس سيامة الراهب ، لأن الداخل فى حياة الرهبنة ، إنما يحاول أن يبدأ فى حياة الكمال .

وكذلك ترتب الكنيسة هذا الفصل فى صلاة الساعة الثالثة من يوم ثلاثاء البصخة ، لأن السيد المسيح مقدم على اكمال عمل الفداء العظيم ، وداخل فى عمق التجارب ...

لذلك فكثيراً ما يسير الإنسان الروحى فى طريق النمو ، ليجد أن الدنيا قامت عليه ولم تقعد ... ؟

والبعض يصارع هذه الحروب الروحية ، بكل ما يملك من جهد ، وبكل عمل النعمة فيه ، وينتصر ويستمر نموه . والبعض يخور فى هذه الحروب ويضعف ، ولا يستطيع أن يتقدم أكثر فى نموه...

إن الشيطان لما وجد عمل الفداء قد أوشك أن يتم ، أثار عنف حروبه على التلاميذ ، فقال لهم السيد المسيح .

« هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة » (لو ٢٢ : ٣١) .

وفى تلك الغربلة وقف النمو الروحى للتلاميذ ، بل رجع غالبيتهم إلى الوراء !

وأمثال هذه الغربلة أو هذه الحروب مرت على كثير من القديسين والأنبياء ، لأن الشيطان لا يترك أحداً بدون حرب ...

فإن تعرضت لهذه الحروب ، فلا تتضايق . إنها شيء طبيعى ...

إنها من طبيعة الطريق الروحى ، من طبيعة الشياطين .

ولكن قاوم بقدر ما تستطيع ... وفى كل درجة جديدة تصعدها فى السلم الروحى ، توقع محاربة لايقافك واستعد .

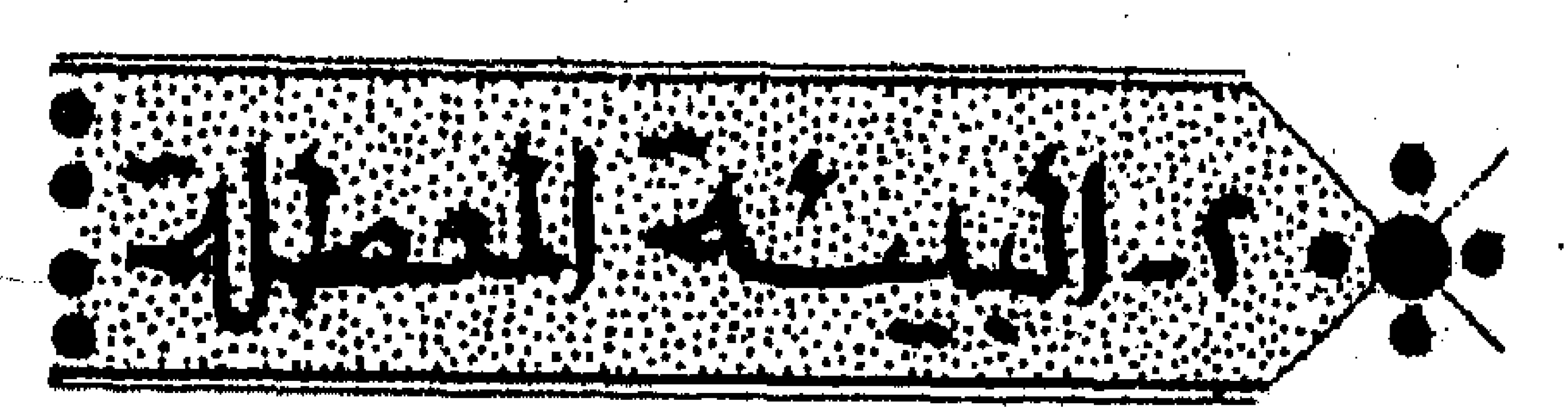
وفى كل تدريب روحى جديد تسلك فيه لنموك ، إن وجدت حرباً فاطمئن .

لولا أن الشيطان يخاف من هذا التدريب ، ما كان يقاومه ويحاربك فيه . إنها ظاهرة صحية بالنسبة إليك ، وظاهرة مرضية من الشيطان . ولكن الحرب شىء ، والسقوط شىء آخر .

وتاريخ الآباء الرهبان والسواح حافل بالحروب الروحية لمنع نموهم ...

إنها مجرد محاولات من الشيطان ، قد تنجح حيناً ، وقد تفشل .

ولكنه عدو للنمو ، لابد أن يحاربه على أية الحالات ، وليحدث ما يحدث والشيطان ليس هو العائق الوحيد أمام النمو الروحى ، إنما هناك أعوان له كثيرون فى ذلك ، ونذكر فى المقدمة .



البيئة السيئة تعطل النمو الروحى . **لذلك تخير اصدقاءك ومعاشريك ومرافقيك فى الطريق ...**

إنهم قد يوقفون نموك ، بل قد يرجعونك إلى الخلف .. وكما أن الصديق الصالح يجذبك معه إلى فوق كذلك الصديق الخاطىء يجذبك إلى أسفل و يعطل نموك .

والزوج غير الروحى ، يمنع نمو الزوجة روحياً . وكذلك تفعل الزوجة غير الروحية مع زوجها . إنهما يشتركان معاً فى حياة واحدة . ومن شروط المرافقة الموافقة . وإن لم تكن هناك موافقة فالنمو الروحى يتعطل ، أو قل الحياة كلها قد تتعطل ...

أبونا ابراهيم أبو الآباء تعطل نموه حيناً بسبب البيئة المحيطة .

تعطل لما تغرب فى جرار، وكان يعلم أنه « ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة » وخاف أن يقتلوه من أجل امرأته (تك ٢٠ : ١١) . ودفعه الخوف إلى أن يقول عن سارة إنها أخته، فأخذها أبيمالك ...

وإذا بهذه البيئة التى لا يوجد فيها خوف قد عاقت نمو هذا النبى العظيم، بل أوقعته فى أخطاء نقائص .

ونفس الوضع حدث للوط البار ولكنه بنسبة أكبر . فى أرض سادوم .

وفى ذلك قال عنه القديس بطرس الرسول « كان البار - بالنظر والسمع - وهو ساكن بينهم، يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة » وقال عنه أيضاً إنه كان « مغلوباً من سيرة الأردياء فى الدعارة » (٢بط ٢ : ٧، ٨) .

إذن فالبيئة الخاطئة والضغوط الخارجية يمكن أن تعطل حتى الأنبياء والأبرار.

لأنه إن انتصر البار حيناً، فربما إذا ضغطت عليه البيئة « يوماً فيوماً » حينئذ تتعذب نفسه البارة ويقف نموه .

لذلك فى ممارساتك الروحية احترس من استصحاب أحد يعوق نموك .

وفى اليوم الذى تتناول فيه، أو فى يوم اعترافك، وأنت فى حالة روحية نامية، احذر من صديق وزميل يدخل معك فى حديث قد يعكر نقاوة ذهنك وقلبك .

لقد استفاد آباؤنا من الوحدة .

عاشوا وحدهم، بعيداً عن البيئة التى تشغلهم أو تعوق نموهم، فتفرغوا لعملهم الروحى مع الله دون عائق من البيئة ...

وكذلك عاش كل محبى الوحدة حتى فى العالم، لا يعرجون بين الفرقتين، لا يقضون حيناً فى حرارة روحية، وحيناً آخر مع أسباب تبرد حرارتهم ..

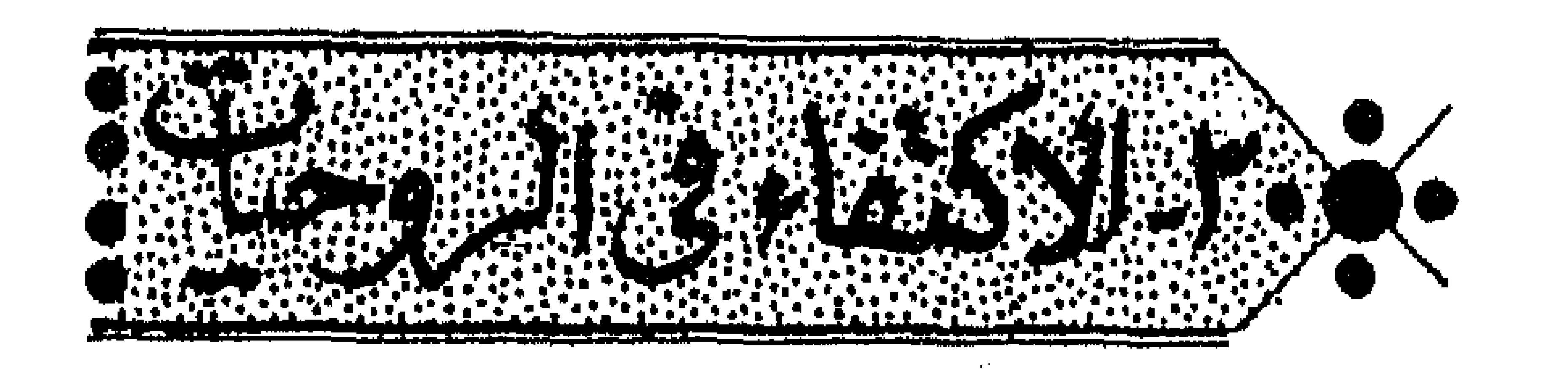
وفى مثل الزارع، نسمع عن الأشواك التى تخنق الزرع بعد نموه (متى ١٣) .

فاحترس أنت ، وابعد عن الأشواك حتى ينمو زرعك المقدس دون أن تخنقه البيئة المحيطة . وفى نموك تذكر قول الشاعر الذى قال :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

من الأسباب الأخرى التى تعطل النمو الروحى ، سياسة الأكتفاء .



حيث يصل الإنسان إلى مستوى روحى معين ، دون أن يتقدم بعده ، و يظن أن هناك المنتهى ، دون أن يفكر فى تخطى هذا المستوى إلى ما بعده .

أو يحاربه الشيطان بأن ما فوق هذا المستوى هو لون من التطرف .

ولكن آباءنا القديسين لم يحدث أن قنعوا فى حياتهم الروحية بما وصلوا إليه . بل كانوا باستمرار يجاهدون إلى وضع أفضل . فبولس الرسول الذى اختطف إلى السماء الثالثة ، قال «انس ما هو وراء ، وأمتد إلى ما هو قدام» (فى ٣ : ١٣) .

إن الذى يقف نموه : هو معرض أن يرجع إلى الوراء .

لذلك حاول باستمرار أن تنمو ، ولا تكتف مطلقاً بما أنت فيه . ولكن بحكمة ، ضع أمامك المستويات العليا التى وصل إليها الآباء ، لكى يحفزك هذا إلى مزيد من الجهاد ، واعرف قاعدة هامة وهى :

هناك فرق كبير بين النمو والتطرف .

والحكمة هى الميزان بينهما . ولكن الشيطان قد يستخدم إحدى العبارتين بدلاً من الأخرى لمحاربتك .

هناك سبب آخر يعوق النمو ، وهو:



الارشاد الخاطىء يعوق النمو الروحى ، إذا كان المرشد غير متمرس فى الروحيات ، أو كان له غرض خاص .

فهناك مثلاً مرشدون يقودون من يسترشد بهم إلى الحرفية فى تنفيذ الوصايا مثلما كان يفعل الكتبة والفريسيون . وقد قال السيد الرب :

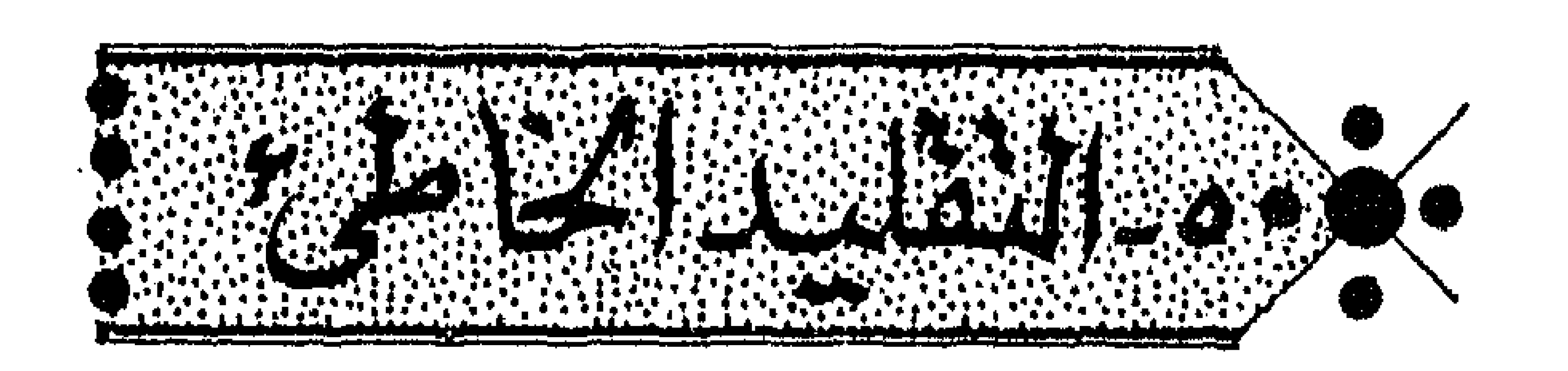
« أعمى يقود أعمى ، كلاهما يسقطان فى حفرة » (متى ١٥ : ١٤) .

لهذا ، سعيد هو الشخص الذى يكون تحت قيادة حكيمة واعية مختبرة كذلك على الإنسان أن يفحص كل شىء ، ولا يتمسك إلا بالأفضل (١تس ٥ : ٢١) .

كذلك لا تسمع نصيحة كل أحد ، ولا تطلب ارشاد كل أحد . وكما قال أحدهم :

فخذوا العلم على أربابه　　　واطلبوا الحكمة عند الحكماء

ومن الأسباب الأخرى التى تعوق النمو الروحى : التقليد الخاطىء .



ونعنى به التقليد الذى يلبس فيه الإنسان شخصية غيره بلا افراز . أو التطبيق الحرفى لما ورد فى بستان الرهبان أو فى سير القديسين ، دون معرفة ما يناسبك أنت شخصياً ، أو الدرجات المتوسطة التى سلك فيها ذلك القديس ، حتى وصل إلى المستوى الذى ورد فى سيرته .

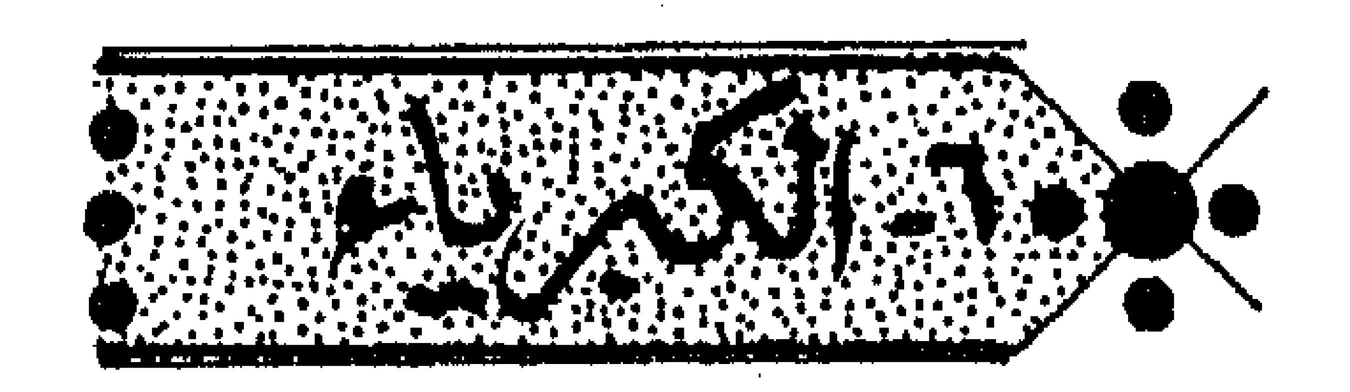
وقد يكون التقليد لما ورد فى الكتب أو تقليداً لأشخاص أحياء أو لأب الاعتراف ...

بينما يكون لكل من هؤلاء طبيعته الخاصة ، أو أسلوبه الذى يناسبه هو نفسياً وروحياً . وقد لا يناسب من يقلده...

وقد يكون الداعى إلى التقليد ، أب الاعتراف نفسه حينما يريد أن يكون أولاده صورة منه، مهما كانت طبائعهم ونتيجة لسيرهم فى طريق يناقض طبائعهم يعاق تقدمهم الروحى.

مثال ذلك أب يحب الحياة الاجتماعية والخلطة ، وله إبن روحى يحب الهدوء والسكون ، إن أجبره على السير فى الخلطة تقف روحياته ، والعكس صحيح ...

سبب آخر لتوقف النمو الروحى هو:



ربما ينمو الإنسان حسناً فى الطريق الروحى ، حتى إذا وصل إلى مستوى معين ، يبدأ فى مقارنة نفسه بمن هم أقل منه ، فيرتفع قلبه ، وحينئذ تبعد النعمة عنه بسبب الكبرياء فإما أن يسقط أو يقف نموه .

إن مواهب الرب لا تعطى إلا للمتضعين . الذين يرتفعون بسببها .

أما الإنسان المتواضع ، فإنه مهما ارتفع فى الطريق الروحى يحسب نفسه لا شىء ، مقارناً بذاته الدرجات العليا التى للقديسين ، لذلك يدعو نفسه خاطئاً . و يرى الرب اتضاعه ، فيعطيه المزيد من النمو.

كذلك الشخص الذى ينمو فيعجب بنفسه ، قد يكتفى بما هو فيه ، فلا يجاهد لنوال ما هو أكثر ، فيقف نموه .

إننا نخشى من الكبرياء ، ليس فى وقوف النمو فحسب ، بل للخوف من السقوط أيضاً .

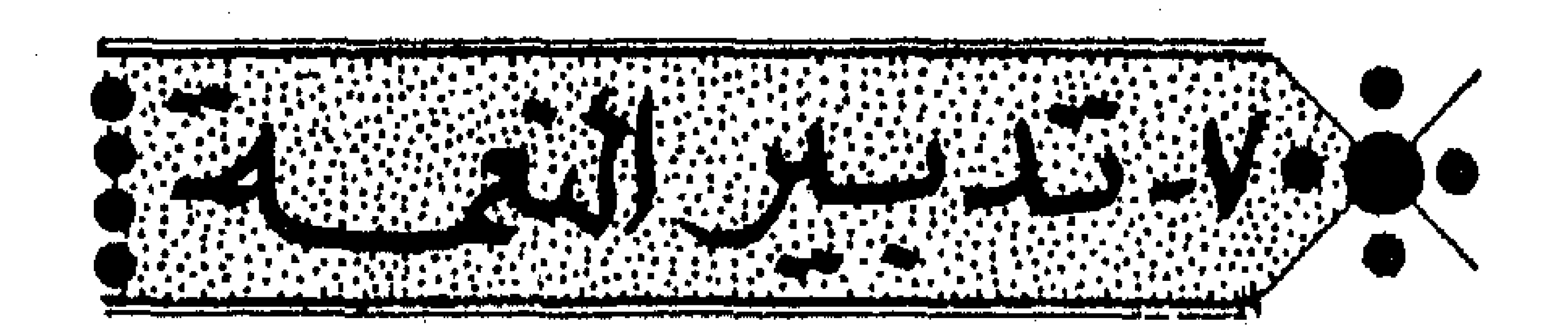
وفى ذلك يقول الكتاب « قبل الكسر الكبرياء ، وقبل السقوط تشامخ الروح »

(أم١٦ : ١٨)، فإن كنت سائراً فى الطريق الروحى، احترس لئلا تكبر فى عينى نفسك، فتسقط.

ومن أمثلة تأثير الكبرياء فى وقوف النمو، إنسان تفتقده النعمة وترفعه إلى فوق، فينسب ارتفاعه إلى مجهوده الشخصى وبره الذاتى، لا إلى عمل الله فيه.

فتفارقه النعمة، لأنه ينسب إلى نفسه ما يناله من معونة النعمة.

وإذ تفارقه النعمة، لا يمكن أن يتقدم خطوة واحدة، بل قد يرجع إلى الوراء، وربما يكون وقوف النمو بتدبير النعمة.



ربما تبعد النعمة لا بسبب كبرياء الشخص، إنما خوفاً عليه من الكبرياء.

وحينما ترتفع النعمة عنه يضعف وقد يسقط فى أخطاء كثيرة،حتى تكون هذه الأخطاء سبب انسحاق له فى المستقبل.

ربما حدث هذا لإيليا النبى العظيم حينما خاف من إيزابل (١مل١٩ : ١٤). وهو لم يخف من آخاب الملك ومن كل أنبياء البعل والسوارى وانتصر على الكل انتصاراً عظيماً على جبل الكرمل (١مل١٨).

وربما حدث مثل هذا لداود النبى العظيم، الذى حل عليه روح الرب، وعاش فى حياة الصلاة والمزامير. وسقط بعدها فى بعض خطايا المبتدئين...! وساعده ذلك على حياة الانسحاق والدموع فيما بعد.

وربما يكون من أسباب وقوف النمو.



٨- التحول إلى الاداريات

كأن يترك الإنسان العمل الروحى ، و يتحول إلى العمل الادارى ، فتشغله الإداريات عن خلاص نفسه وخلاص غيره ، وتوقعه فى أخطاء عديدة توقف نموه .

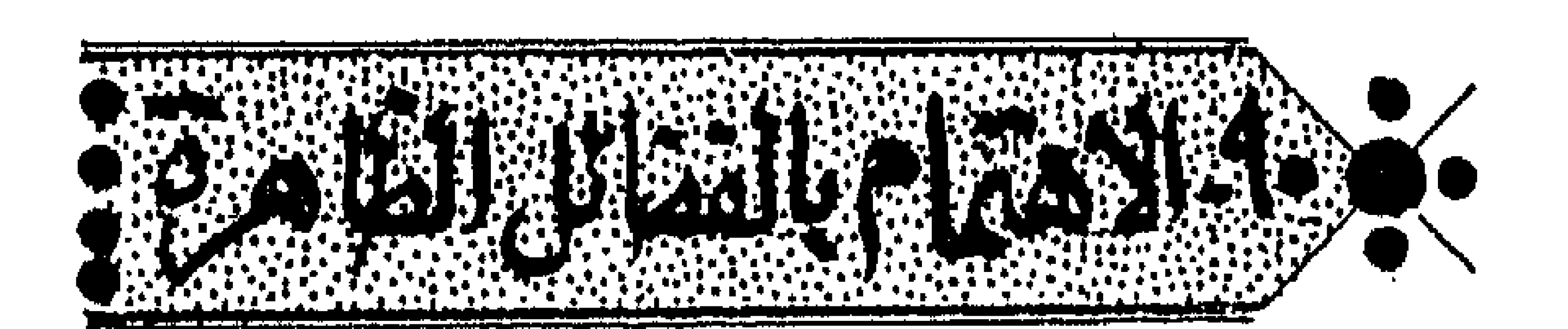
كراهب متوحد فى الجبل ينمو فى روحياته ، و يأخذونه و يضعونه فى وظيفة .

وأمور التدبير ليست خطية فى ذاتها ولكنها تشغله عن العمل الروحى فيقف نموه... ومن أجل هذا ، كان آباؤنا القديسون يهر بون من الوظائف ليتفرغوا لله .

أو مثال كاهن ناجح فى عمله الروحى يتولى الأمور الإدارية فى الكنيسة فتعطله عن روحياته وتوقف نموه .

فإن انشغل أحدكم بالإداريات ، فليختبر نفسه فيها : هل هو استمر فى نموه ، أم توقف ، أم هبط مستواه .

سبب آخر يوقف النمو الروحى وهو:



٩- الاهتمام بالفضائل الظاهرة

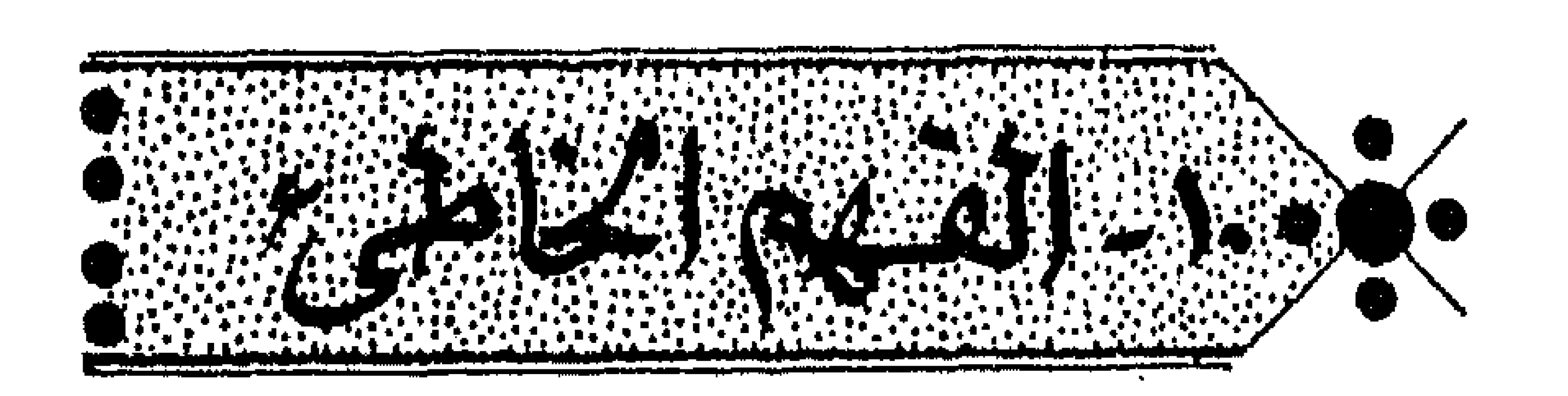
كأن يهتم إنسان بالنمو العددى ، وليس بالنمو الروحى فى كل ممارساته الروحية .

يهتم بعدد المزامير ، وليس بروحانية الصلاة بها . و يهتم بعدد المطانيات وليس بأدائها الروحى... و يهتم بمظاهر الصوم فى فترة الانقطاع ونوع الأكل وكميته ، وليس بما فى الصوم من اخضاع الجسد واعطاء فرصة للروح .

وهكذا يهتم بالشكليات وليس بالعمق فيتوقف نموه . إذ يهتم بكثرة الصلاة

وليس بعمق الصلاة، وكثرة القراءة، وليس بالتأمل والعمق.

أما أنت فاهتم بالروح، وبالنمو الداخلى وبالفضائل المخفاه غير الظاهرة وقد يكون سبب وقوف النمو:



وكما قال القديس الأنبا أنطونيوس إن أعظم الفضائل : الإفراز، أى الفهم السليم فى أمور الروحيات .

فكثير من الاشخاص فشلوا فى روحياتهم ، لأنهم لم يفهموا الطريق الروحى جيداً ، ولم يكن لهم مرشد روحى حكيم، واعتمدوا على مجهودهم البشرى أكثر مما اعتمدوا على الله بالصلاة .

كتب أخرى للبابا شنوده

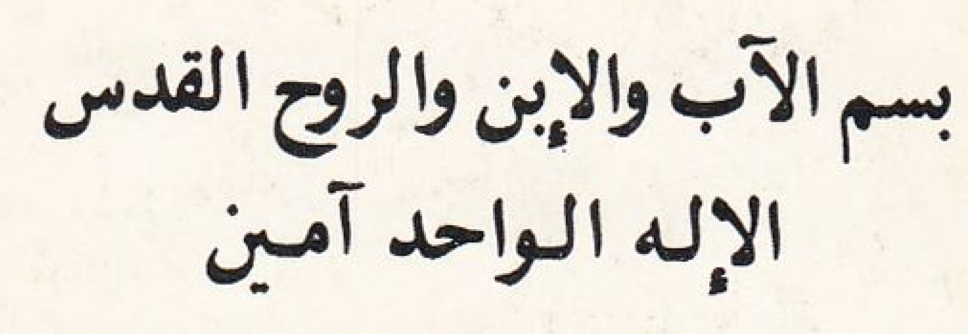
****

١ - انطلاق الروح .
٢ - ٥ كلمة منفعة فى ٤ أجزاء .
٦ - ٩ الوصايا العشر فى ٤ أجزاء .
١٠ - العظة على الجبل .
١١ - تأملات فى الميلاد .
١٢ - من وحى الميلاد .
١٣ - كيف تبدأ عاماً جديداً
١٤ - ١٨ تأملات فى أسبوع الآلام (٥ أجزاء) .
١٩ - آدم وحواء - قايين وهابيل .
٢٠ - يونان النبى .
٢١ - مار مرقس الرسول .
٢٢ - تأملات فى حياة الأنبا أنطونيوس
٢٣ - القمص ميخائيل ابراهيم
٢٤ - شريعة الزوجة الواحدة .
٢٥ - الكهنوت .
٢٦ - الخلاص فى المفهوم الأرثوذكسى
٢٧ - بدعة الخلاص فى لحظة
٢٨ - حروب الشياطين .
٢٩ - الحروب الروحية .
٣٠ - الغضب .
٣١ - إدانة الآخرين .
٣٢ - تأملات فى مزامير الغروب .
٣٣ - يستجيب لك الرب (مز ٢٠)
٣٤ - يارب لماذا (مز ٣) .
٣٥ - التلمذة .
٣٦ - الغيرة المقدسة .
٣٧ - الوجود مع الله .
٣٨ - الله وكفى .
٣٩ - حياة الإيمان .
٤٠ - حياة التوبة والنقاوة .
٤١ - اليقظة الروحية .
٤٢ - السهر الروحى .
٤٣ - الرجوع إلى الله .
٤٤ ، ٤٥ سنوات مع اسئلة الناس (جـ ١ ، جـ ٢) .
٤٦ - حياة الشكر - صلاة الشكر .
٤٧ - روحانية الصوم .
٤٨ - مقالات روحية .
٤٩ - الهدوء .
٥٠ - معالم الطريق الروحى .

فهـرست

صفحة







بسم الآب والإبن والروح القدس
الإله الواحد آمين

يحدثك هذا الكتاب عن الطريق الروحى ، وعلامات هذا الطريق منذ أن تبدأ ، وتستمر .

وما هو الهدف الروحى ، ومدى ثبات واستمرارية هذا الهدف .

وما هى بداية الطريق ؟

مخافة الله ، والتغصب ثم العمل الداخلى ، والعمل الإيجابى والحكمة والإفراز فى كل عمل والجدية ، والالتزام والأمانة ، بادئة بالقليل وحياة الانتصار ، وما يلزمها من الفصل بين النور والظلمة .

ثم حياة التسليم وحياة الشكر والباب الضيق .

والنمو الروحى ، كرحلة نحو الكمال مع شرح لعوائق النمو

إنه كتاب يسير معك خطوة خطوة ، من البدء حتى الكمال .

شنوده الثالث



٢٢٥ قرش